الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
اللجنة العامة للقرآن والسنة



إعجاز القرآن البياني

بين النظرية والتطبيق

تأليف
الدكتور حفني محمد شرف
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب الرابع
١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سوف أتكلم فى هذه الدراسة عن اعجاز القرآن البيـانى نظريا وتطبيقيا مهتما فى الدراسة النظرية بالوقوف مع الأشخاص الذين لهم دور كبير فى تطور هذه الفكرة قديما وحديثا ، وفى الدراسة التطبيقية سوف أهتم بألفاظ القرآن وفصاحتها وائتلافها وموسيقاها ، وبعباراته ، وائتلاف معانيها ، واتصالها وانفصالها ، وأساليبه ، ومعانيه ، وقصصه ونظمه • وقد أقمت هذا الكتاب على مبحثين :

المبحث الأول : درست فيه فكرة الاعجاز البيانى دراسة نظرية تتبعت فيها العلماء القدماء والمحدثين مبينا مقدار تطورهم بهذه الفكرة ، واضعا كل واحد منهم فى مكانه من دراسة هذه الفكرة ملتزما ــ ما أمكن ــ الترتيب التاريخى •

المبحث الثانى : درست فيه الفكرة دراسة تطبيقية بينت فيها بلاغة القرآن ، واضعا بين أيدى الناس صورا من أسرار بيان القرآن واعجازه، حتى يؤتى البحث ثمرته المرجوة •

علما بأن فكرة الاعجاز البيانى فى القرآن تناولها علماء كثيرون ــ قدماء ومحدثون ــ الا أن أكثر هــذه الدراسة كان بعضها بحوثا متناثرة فى ثنايا كتبهم ، ولم أر من خصص كتابا لهذا الموضوع •

وكان هدفى من هذه الدراسة توجيه أنظار الباحثين والدارسين والعلماء الى الرجوع الى بلاغة القرآن والتأسى بها ، باعتبارها المنار الذى يهدينا فى دراستنا البلاغية ، ويضع أيدينا ــ فى سهولة ويسر ــ على ما نصبوا اليه من سمو وجمال فى لغتنا العربية ــ حرسها الله ــ •

وهأنذا اليوم أضع لبنة فى هذا البناء الضخم راجيا أن أكـون أسـهمت بعض الشىء فى تشييده ، وأجدد العزم لأبدأ شوطا جديدا أكشف فيه لدارسى بلاغة القرآن بخاصة ، والبلاغة العربية بعامة عمن كتب فى اعجاز القرآن البيانى ، ومدى أثر هذه الكتابة ، والدافع اليها ، عسى أن يرسم كل ذلك الطريق الواضح للوصـول الى الحقيقة التى لامناص منها ، ولا تحول عنها وهى بيان القرآن وبلاغته .

والذى أحب الاشارة اليه فى هذه المقدمة هو أن سنة الله قد جرت فى ارسال رسله الى خلقه أن يؤيدهم فى دعوتهم بأروع ما وصلت اليه أقوامهم من علوم أو فنون ، فموسى — عليه السلام — حين بعث الى قومه الذين اشتهروا بالسحر ، وضربوا فيه بسهم وافر يشاء الله أن تكون معجزته من قبيل الغريب العجيب « **فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين** » .

وعيسى — عليه السلام — حين أرسل الى قوم كانت لهم شهرة فى الطب والحكمة ، شاء — عز اسـمه — أن يجرى على أيدى عيسى ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى باذن الله .

وقد يقال : ان المعجزات قد أتت من النوع الشائع الذى عم وشاع وذاع ، فما الفضيلة فيها ، وما مزيتها آنئذ ؟ أقول : ان المعجزات قد أتت حقيقة من جنس ماشاع وذاع ، ولكنها امتـازت بزيادة بالغة ، وفضيلة تقصر دونها الهمم . فعصـا موسى تلقف ما كانوا يأفكون ، وحكمة عيسى فاقت جميع الحكم حين يحيى الموتى باذن الله .

اذا علمنا هذا أدركنا قيمة النفاسة فى معجزة محمد — عليه الصلاة والسلام — وكيف كانت — وهى القرآن الكريم — حجة على رسالته

وبرهانا على صدق دعوته ، وقد بلغت غاية الفصاحة ونهاية البلاغة بين قوم لا يخلون فى جملتهم من شاعر فحل ، أو خطيب مصقع •

ومن هنا فقد كان القرآن الكريم جامعا لفنون البلاغة ، حاويا لأطراف البيـــان والفصاحة ، محكما فى نظمه حتى انك تحسب ألفاظه لجمالها وروعتها منقادة لمعانيه فاذا ما تغلغلت فيه وجدت معانيه منقادة لألفاظه فاذا ما رجعت البصر مرة ومرة فانك ستظل مترددا بين انقياد معانيه لألفاظه وانقياد ألفاظه لمعانيه ، حتى تؤمن أخيرا بأنك تقرأ كلاما ليس من كلام البشر •

ولا شك أنك بهذا انما تجدد الموقف الذى وقفه العرب منه وان كانت النتيجة مختلفة : ذلك الموقف الذى وقفه العرب أمام روعة نظمه موقف الاعجاب والذهول والحيرة ، ولكن سوء نيتهم وخبث طويتهم قد أغلق عيونهم عن الاستجابة لهذا النور المنبثق الوضاء •

ولقد عبر غير واحد من زعمائهم عن هذا الموقف فى مثل قول عتبة ابن ربيعة حين سمع من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الأجزاء الأولى من سورة فصلت ثم عاد الى قومه فسألوه :

ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : « ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت مثـــله قط ما هو بالشـــعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش : أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه » • وفى مثل قول الوليد بن المغيرة : « والله ان لقوله لحلاوة وان أصله لمغدق وان فرعه لجناة » •

واذا كان العرب برغم هـــذا وأمثاله قد كذبوا نبيهم وعارضوا القرآن قائلين : انه ســـحر أو شـــعر أو أساطير الأولين ، أو كهانة

أو ما شاكل ذلك ، فقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله على لسان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فعجزوا ولجوا فى العناد معارضين ، ثم أتوا بالسخافات والتراهات ولكنهم لم يلبثوا أن بهرتهم آلاؤه وجذبتهم آياته ، فثابوا الى رشدهم ، ورجعوا عن غيهم ، ودخلوا فى دين الله أفواجا •

ولقد تأثر بسماعه كل من أتهم وأنجد ورجعوا اليه فى تنظيم حياتهم ومعاملاتهم لأنهم رأوا فيه خير دستور وأقوم منهاج ، وأكثر من هذا جعلوه سلوتهم الوحيدة اذا حزبهم أمر ، أو نابهم مكروه أو نزلت بهم نازلة أو مسهم طائف من الشيطان كما يقول ابن الخطيب فى كتابه « الفرقان » وعلى أية حال فهذه كانت طريقة العرب فى بدء حياتهم الاسلامية ، ولكن لما تعقدت الحياة بكثرة الحروب ودخلت الاسلام شعوب مختلفة ، اختلفت أماكنهم وتباينت مناهجهم فى ثقافاتهم المتعددة لم تلبث هذه الثقافات أن ظهرت فى تفكيرهم وفهمهم لمعانى القرآن الكريم ••• ، ودخل قوم وجلهم من الأعاجم ففتحوا أبوابا من الخلافات ، وظهرت طوائف المتكلمين والأدباء والمفسرين ، وكان لكل طائفة منهم طريقة خاصة فى النظرة للقرآن تختلف حسب مذهبها السياسى أو فرقتها الدينية ، ولما قامت الدولة العباسية وزاد اختلاط الأعاجم بالعرب وتسامح الخلفاء فى أمر الدين وهب الناس يطلعون على كتب غيرهم من الفرس واليونان والهند ، ونتج عن ذلك أعمال عقولهم واطلاق تفكيرهم اطلاقا حرا لا يتقيد بقيد سوى الاجتهاد العقلى •

وفى نهاية القرن الثانى الهجرى ظهرت جماعة من الشعراء والأدباء أمثال ابن المقفع وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وعبد الحميد الكاتب ووالبة بن الحباب ، وأخذوا يتدارسون القرآن الكريم ويقلدون نظمه وأسلوبه ••• ومن هنا ابتدأ الكلام فى اعجاز القرآن الكريم واختلفوا فى وجه اعجازه ، وهذا يدعو الى الحديث

عن بعض الآراء ، والاطلاع على بعض الحجج فى ذلك حتى يتبين لنا الوجه الحق •

وسوف أتكلم عن المعجزة وآراء السابقين فى وجه الاعجاز مفندا رأيهم اما بالرفض واما بالقبول •

المعجزة لابد فيها من اعجاز المنكر فان كان ما أتى به المتحدى صادرا عنه كالاخبار عن الغيب أو ظاهرا على يده غير صادر عنه كالكلام المنزل على نبينا ــ عليه الصلاة والسلام ــ خارجا عن طوق البشر كما هو المختار من جملة ما قيل فيه فالاعجاز فى اتيان المتحدى به •

وان لم يكن خارجا عن طوق البشر ، كما هو رأى أصحاب الصرفة فى وصف القرآن الكريم فالاعجاز لا يخرج عن خرق العادة لأن الاعجاز فى منع المنكرين عن الاتيان بمثله •

واذ قد تقرر ذلك فنقول : القرآن الكريم معجز لأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ قد تحدى به ولم يعارض سواء كان عدم المعارضة مع القدرة أو بدونها ، أما انه قد تحدى به ، فقد تواتر بحيث لم يبق فيه شبهة ، وآيات التحدى كثيرة منها قوله تعالى : « **فليأتوا بحديث مثله** » فكان التحدى بجميع القرآن الكريم فى هذا الزمن ، فلما ظهر عجزهم عن ذلك نزل قوله تعالى : « **قل فأتوا بعشر سور مثله** » ثم لما ظهر عجزهم عن هذا المقدار أيضا نزل قوله تعالى : « **فأتوا بسورة من مثله** » حيث تحداهم بمقدار سورة منه فلما ظهر عجزهم عن الاتيان بمثل أقصر سورة لزمتهم الحجة لزوما واضحا ، وانقطعوا انقطاعا فاضحا ، والضمير فى قوله تعالى : « مثله » يرجع فى كل الآيات الى المنزل لا الى المنزل عليه حتى لا يكون هناك تضييق فى التحدى ومقتضى التنزل من الكل الى العشر ومن العشر الى الواحدة التوسيع فيه ، واما أنه لم يعارض ، فلأنه لو عورض لشاع لتوفر الدواعى الى نقله ، وعدم الصارف عنه ، والعلم بذلك قطعى كسائر القطعيات لا يقدح فيه

احتمال أنهم عارضوا ولم ينقل الينا لمانع كعدم المبالاة ، وقلة الالتفات والاشتغال بمهام الأمور ، وأقول كما قال الفاضل التنفتازانى فى شرح المقـاصد : « ان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحدى بالقرآن الكريم ودعا الى الاتيان بسورة من مثله . مصاقع البلغاء والفصحاء من العرب وغيرهم مع كثرتهم كثرة حصى البطحاء وشـهرتهم بغاية العصبية والحمية الجاهلية ، وتهالكهم على المبـالاة والمباراة وركوب الشطط فى هذا الباب ، فعجزوا حتى آثروا المقارعة على المعارضة وبذلوا المهج والأرواح دون المدافعة ، فلو قدروا على المعارضة لعارضوا ، ولو عارضوا لنقل الينا لتوفر الدواعى وعدم الصارف ، ولتعلم أن المسلمين بعد أن اتفقوا على اعجاز القرآن الكريم اختلفوا فى وجه اعجازه فمنهم من قال : ان اعجاز القرآن الكريم بما اشتمل عليه من النظم الغريب والترتيب العجيب ، والأسلوب المخالف لـما استنبط بلغاء العرب من الأساليب فى مطالعه ومقاطعه ، والفاظه وفواصله وهذا هو مذهب بعض المعـتزلة .

ومنهم من قال : أنه معجز بما اشتمل عليه من البلاغة التى تقاصرت عنها سائر ضروب البلاغات وهذا هو قول الجاحظ من المعتزلة ... وعليه المحققون من أهل العربية ، وهنا أحب أن أقرر أن أصل البلاغة فى القرآن الكريم متفق عليه ولا ينكره من له أدنى تمييز ومعرفة بصـناعة الكلام وانما الخلاف فى كونه فى الدرجة العليا غير المعتادة فالجاحظ ومن حذا حذوه أثبتوا له هذه الكيفية ، وتلك الصفة وخالفهم الآخرون ، وأما كونه فى الدرجة العليا والغاية القصوى من البلاغة فلا حاجة للمثبتين اعجازه من جهة البلاغة الى ادعائه ولا سبيل لهم الى اثباته لكونه فى الدرجة القصوى من البلاغة التى لم يستطع الانسان الوصول اليها .

ومنهم من ذهب الى مجموع الأمرين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة القصوى من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، وهذا القول منسوب الى القاضى الباقلانى •

ومنهم من قال : « انه معجز باشتماله على الاخبار عن الغيب مطابقا لما هو الواقع بعد ذلك ، كما فى قوله تعالى : « **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** » وانما قيد بالواقع بعد ذلك لأن الاخبار عن الغيب الواقع قبله يحتمل أن يكون بواسطة الجن فلا يصلح وجها للاعجاز ، قال الآمدى فى ابكار الأفكار : « ليس المعجز نفس الاخبار عن الغيب • ولا نفس وقوع المخبر عنه اذا كان من الأمور العادية ، بل المعجز من ذلك علمه بالغيب الذى دل عليه وقوع المخبر عنه » •

وقال بعضهم ان اعجازه فى عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول والامتداد ، وتمسكوا بقوله تعالى : « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » وكأن هذا القائل غافل عن وقوع التحدى بمقدار سورة منه ، أو جاهل بأن التحدى يستلزم أن يوجد الاعجاز فى بعض منه مقداره مقدار سورة ، ثم ان استدلاله على هذا بقوله : « ولو كان من عند غير الله » يدل على أنه كلام الله تعالى لا كلام غيره من المخلوقات ، والاعجاز أمر ، وكونه كلام الله تعالى أمر آخر •

ومنهم من قال : ان القرآن الكريم معجز « بالصرفة » بمعنى أن العرب كان فى مقدورهم الاتيان بكلام مثل القرآن الكريم قبل البعثة المحمدية ، ولكن الله تعالى صرفهم عن المعارضة مع بقاء قدرتهم عليها أو بدونها على اختلاف فى الرأيين ، قال الآمدى فى ابكار الأفكار : « وذهب الى ذلك النظام وأبو اسحاق الاسفراييني • وبعض الشيعة وغيرهم من العرب ذهبوا الى أن العرب كانت قادرة على مثل كلام القرآن الكريم قبل البعثة ، وانه لا اعجاز فى القرآن الكريم وانما المعجز صرف بلغاء

العرب عن معارضته ، اما بصرف دواعيهم كما قاله النظام والاسفرأبيينى، واما بسلبهم العلوم التى لابد منها فى المعارضة ، كما قاله الشريف المرتضى من الشيعة ، ولذلك أخطأ التفتازانى فى معنى الصرفة المنسوبة الى النظام حيث قال فى شرحه للمفتاح ، « بالجملة فى الكلام اشارة الى أن وجه الاعجاز فى القرآن الكريم أمر من جنس الفصاحة وهو كونه فى الطبقة العليا منها لا كما ذهب اليه النظام وجمع من المعتزلة من أن اعجازه بالصرفة بمعنى أنه لم يكن معجزا فى نفسه ، وأمكن للعرب أن يعارضوه الا أن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به وقدرتهم عليه » ، لما علمت أن الصرفة مذهب الشريف المرتضى لا مذهب النظام .

نستدل على بطلان الاعجاز بالصرفة بالأمور الآتية :

أولا : أن فصحاء العرب انما كانوا يتعجبون من حسن نظمه وبلاغته وسلامته فى جزالته ، ويرقصون رءوسهم عند سماع قوله تعالى : **« وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر »** .

الثانى : قوله تعالى : **« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »** فان ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير فى مقام التحدى انما يحسن فيما لا يكون مقدورا للبعض وينوهم كونه مقدورا للكل فيقصد نفى ذلك ..

الثالث : انه لو قصد الاعجاز بالصرفة لكان المناسب ترك الاعجاز ببلاغة القرآن الكريم وعلو طبقته لأنه كلما كان أنزل فى البلاغة وأدخل فى الركاكة كان عدم تيسر المعارضة فى خرق العادة .

وان حديثى بعد هذا عن اعجاز القرآن سيشمل نظمه الغريب وأسلوبه المخالف لأساليب العرب فى مطالعه ومقاطعه وألفاظه وفواصله كما سيكون ضمن البحث فى اعجاز القرآن الكريم البيانى، الرأى القائل بأن اعجازه باشتماله

على الصور البيانية التى تقاصرت عنها بلاغة الفصحاء ، كما ستكون هذه الدراسة موسومة بالصفة التاريخية التى أتتبع فيها العلماء مع ترتيبهم التاريخى ما أمكن •

ولكى أضع البذور الأولى لاثبات ما أنا بصدده أقول : لقد ظهرت المعتزلة بجانب الأدباء ووجــد بظهورهم أول كلام منظم عن اعجاز القرآن الكريم ، وظهر بجانبهم طائفة من المفسرين كان لهم فى تنمية البلاغة والكشف عن أسرارها وخاصة بلاغة القــرآن الكريم وبيانه نصيب ، وان كان تفسيرهم تفسيرا لغويا فقط ، وتأويلا لمــا فى القرآن الكريم من أمر ونهى واشارة وغيرها ، ولم تطل هذه المرحلة بل انتهت بنهاية القرن الثانى ، كما أن مؤلفاتها غير متوفرة حتى يمكن الاعتماد عليها فى الدراسة • ثم بدأت مرحلة ثانية ببداية القرن الثالث وتنوعت فيها الثقافات ، وفسدت الألسنة، ولم تستطع العقول ادراك أسرار القرآن وابراز نكته التى تضمنت شيئا من جمال أسراره ووجوه بيانه ، فاضطلع بهذا العبء اللغويون والنحاة ، ويندر أن يعثر باحث فى هذه الفترة على مؤلف الا ويجد اسمه ينم عن معناه فنجد مجاز القرآن ومشكل القرآن الكريم [1] ، وكان بجانب الأدباء والمفسرين المتكلمون الذين نظروا الى القرآن الكريم نظرة سمو فى البلاغة وعلو فى الفصاحة ، وعرفوا أن نظمه وتأليفه فى أعلى درجات الأسلوب ، وعرفوا أيضا أن ما انقطع العرب عن معارضة القرآن الكريم وأذعنوا له الا لمزايا ظهرت فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع فى مبادىء آية ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها ، فى مضرب كل مثل ، ومظان كل خبــر ، وصــورة كل عظة واعــلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وأنهم تأملوا سوره سورة سورة ، وعشرا وعشرا ، وآية آية

---

(١) انظر فهرست ابن النديم بين ٥١ ــ ٥٨ •

فلم يجدوا فى الجميع ــ قل أو كثر ــ كلمة تنبو مكانها أو لفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح منهـــا او أشبه أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الخمول[1] .

ومما لا شك فيه أن عمل « الطائفتين » المتكلمين والأدباء ، كان من حظ البلاغة العربية وتطورها اذ كانتا تعمـــلان على بحثها وبذل الجهود فى دراستها ظنا منهما أن كل واحدة تنير العقول بصنيعها وتهدى القلوب الى اعجاز القرآن الكريم، هذا الى ما كان للأدباء بجانب ذلك من البحوث القيمة ، وأقصد بالأدباء ما كان لهم بجانب دراستهم الأدبية دراسات قرآنية ...

ومن الذين قالوا باعجاز القرآن الكريم ابن حزم وبندار الفارسى الا أن اعجازه فى نظرهم راجع الى أنه كلام الله تعالى .

ومنهم من قال: انه معجز لاحتوائه على مبادىء العلوم، وعلى رأس هذا الفريق الامام الغزالى فى « احياء العلوم » ، والقاضى عياض فى كتابه « الشفا » .

وانى سوف أقصر كلامى فى هذا البحث عمن قال : ان القـــرآن معجز ببيانه وبلاغته ، وسأتتبعهم عبر الأزمنة والأمكنة ملتقيا معهم ، ومناقشا اياهم ، وناقلا رأيهم بأمانة واخلاص .

وسوف أجملهم على وجه التقريب ،وهم : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والفراء ، والجاحظ ، وابن قتيبة والرمانى ، والخطابى والعسكرى والخفاجى وعبد القـــاهر الجرجانى والزمخشرى والباقلانى ، وابن

---

(١) انظر دلائل الاعجاز للجرجانى ٣٢ .
(٢) دلائل الاعجاز ٣٩٨ .

عطية وفخر الدين الرازى ، وابن الأثير ـ ضياء الدين ـ والسكاكى ، والآمدى والزملكانى، وابن أبى الاصبع المصرى والعلوى اليمنى، والزركشى، وابن خلدون، والأصبهانى والسيوطى والألوسى والرافعى والعقاد، وعبد الكريم الخطيب وغيرهم. أرجو أن أوضح رأى كل من هؤلاء ، وأكشف عن مدى تجديده ان كان له تجديد ، منبها على من لم يخصص لبيان القرآن بحثا مستفيضا وخاصا ، كما سأبين الدافع الى التعرض الى هذه الفكرة ، وهل هو دينى أو فنى يبحث فيه جمال اللفظ وسلامة النظم وبلاغة المعنى ؟ .

والله حسبى وهو ولى التوفيق ...

حفنى محمد شرف

المبحث الأول

الدراسة النظرية لتطور فكرة الإعجاز البياني



ان أسبق هذه الدراسة البيانية فى القرآن ظهورا هو كتاب « مجازات القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، والذى يرجع تأليفه الى سنة ١٩٠ هـ ، ولم يكن هذا الكتاب وحده هو نتاج الفكر فى القرن الثانى فى هذا الباب بل كان هناك كتاب آخـــر بهذا الاسم لقطرب معاصر أبى عبيدة والمتوفى سنة ٢٠٦ هـ [١] ولكن لم يسعدنا الحظ بالوقوف عليه ، أو معرفة من نقل عنه حتى نعرف موقفه من الفكرة .

وسبب تأليف كتاب « مجازات القرآن » يرجع الى اشتباه ابراهيم ابن اسماعيل الكاتب فى قول الله تعالى : **« طلعها كأنه رءوس الشياطين »** وكان ذلك فى مجلس للفضل بن الربيع سنة ١٨٨ هـ ، وبحضـــور أبى عبيدة[٢] ، وسؤاله عن ذلك ، فلما عاد الى البصرة ألف كتابه هذا الذى لايوجد منه الا قطعة يسيرة تبدأ بمقدمة حوت كثيرا من الأساليب التى تبدو غير مألوفة الظاهر ، والذى اختار أبو عبيدة لكتابه ما أشبهها ، وأطلق على كل واحد منها كلمة « مجاز » وأنا ارجح أنه يقصد بكلمة مجاز : الطريق فى تأدية المعنى لا ما يقابل الحقيقة فى عرف البلاغين ، ولذلك نراه تكلم عن التكرار للتوكيد فى قوله تعالى : **« فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم »** وقوله تعالى : **« انى رأيت أحد عشر كوكبا »** ، ويتكلم عن التقديم فى قوله تعالى : **« فاذا أنزلنا عليها المـــاء اهتزت وربت »** وتكلم عن الكنـــاية فى قوله تعالى : **« فظلت أعناقهم لها خاضعين »** وتكلم عن الالتفات ، أو تلوين الخطاب فى قوله

(١) انظر معجم الأدباء ٧ : ١١٦ .
(٢) نزهة الألباء ١٤١ — ١٤٤ .

تعالى : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعــذاب أليم** » ، وقوله تعالى : « **واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها** » وقوله : « **آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** » وقوله : « **حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم** » وقوله : « **ثم ذهب الى أهله يتمطى** » .

فأبو عبيدة فى هذا الكتاب، أو فى ذلك الجزء منه الذى بين أيدينا — على الأقل — يريد أن يبين لنا طرق آداء المعنى فى القرآن الكريم، ويقارنها بما هو موجود فى كلام العــرب ، حتى يستبين للقارىء فضل نظم القرآن الكريم ، وأسلوبه ، واحتوائه على الأساليب البيانية ، ولكنه لم يبحث آيات القرآن الكريم كلها ، بل كان يقتصر على ما فيه بيان طريق للاداء وله مثيل فى لغة العرب .

وتتميما لكلمة مجاز — أى معناها — أحب أن أوضح هنا أنها وردت فى القرنين الثانى والثالث للمعانى الآتية :

أولا : جاءت بمعنى تفسير أو تأويل ، ومن ذلك قول أبى عبيدة فى تفسير سورة الصافات : « **اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون** » مجازه اذ قيل لهم : قولوا : لا اله الا الله ... ، وقوله تعالى « **لا فيها غول** » مجازه ليس فيها غول ، ومنه قول المبرد : مجاز الطغام عند العرب من لا عقل له ولا معرفة [1] .

ثانيا : جاءت كلمــة مجاز مقابلة لمعنى كلمــة حقيقة أى التى استعملت فى غير ما وضعت له فى أصل اللغة . وذلك ما ورد فى كتاب الحيوان[2] حينما أورد شواهد كثيرة من مادة أكل كقول الله تعالى « **انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** » ، وقوله « **أيحب**

---

(1) الكامل ١ — ١٤ .
(2) الحيوان للجاحظ ٥ : ١٠ .

أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » فانه يقول : « هذا أكله مختلف ، وهذا أكله مجاز » .

ثالثا :وردت كلمة مجاز فى هذين القرنين بمعنى الأسلوب وطريق الأداء ، قال ابن قتيبة : [1]

« وللعرب المجازات ومعناها طرق القول ومآخذه فمنها الاستعارة والتمثيـــل والقلب والتقـــديم والتأخير والحـــذف والتكرار والاخفاء والاظهار والتعريض والافصاح والكناية، والايضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع ومخاطبة الجمع خطاب الواحد ، والواحد خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص »

وخلاصة القول : أن أبا عبيدة كانت طريقته شرح الآية ، ثم يتلوها بشاهد فى معناها وطريقة استعمالها من كلام العـــرب الفصيح ومن الشعر القديم مع حرص شديد على كشف الصلة بين أســـلوب القرآن الكريم وفنون التعبير فيه ، وبين فنون العـــرب وأساليبهم فيذكر فى نهاية كلامه على الآية أن العرب تفعل هذا ، ولذلك كان يقصد من كلمة « مجاز » أن يبين صورا من التعبير القرآنى ، ثم يجرى هذه الكلمة على مجموعة من المعانى اصطلح العلماء البلاغيون على تسميتها بأسماء خاصة نشأت وقويت فى ظل الدراسات القرآنيـــة التى يعتبر كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة أساسها .

وعلى أية حال فهى لفتة صادقة من الرجل يعرفهـــا له التاريخ باجلال وتقدير

---

(١) كتاب القرطين ٢ : ١٦٢ .

مازالت فكرة « أبى عبيدة تصاحبنا حين نذكر الفراء فان زمن هــذا الأخير وان اختلف بعض الشيء عن ســابقه الا أنه فى كتابه « معانى القرآن » يعتبر امتدادا للأول ومكملا لدراسته اللغوية الأدبية للقرآن الكريم . فقد بحث الفراء فى التراكيب ، والاعــراب ، وفى الغريب ، وطرق الدلالة . ومجموع الدراسة فى هذه المناحى انما تكشف عن الأسلوب القرآنى ، وأوجه القراءات فيه كشفا يميط اللثام ويزيح النقاب عن بلاغة كتاب منزل من لدن حكيم عليم ...

والفراء اذ يقوم بهذا كله متعرضا لأسباب النزول بين حين وحين الا أنه يتبع منهج أبى عبيدة القذة بالقذة فى التفسير ، بل انه يتبعه كظله فى تذييل تفسيره بذكر الحديث والأمثلة الشعرية والنثرية لبيان المعنى وتوضيحه ، ولا يفوته أحيانا ايراد بعض المأثور عن الصحابة والتابعين .

وجماع القول فى ذلك أن تفسير الفراء يغلب عليه الجانب النحوى ، وهذا أمر كنا نتوقعه لجهــذ عظيم يعد شيخ المشايخ لمدرسة النحو الكوفية .. وقد يقال : ما دامت هذه حاله فما له وللاعجاز ؟..

الواقع أن الفراء لم ينس الدراسة البيانية فى بحثه فى القرآن الكريم ، فقد عرج على كثير منها هنا وهناك فنراه قد تكلم عن الكناية عند تفسير قوله تعالى : « **سمعهم وأبصارهم وجلودهم** » ، وتحدث عن التشبيه عند قوله تعالى : « **كمثل الحمار يحمل أسفارا** » . وعرج على المجاز بصورة بلاغية فى قوله تعالى : « **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** » ، وهو بهذا يختلف عن أبى عبيدة .

وتناول الاســتعارة تناولا خفيفا وان لم ينص عليها صراحة فى تفسيره عند قوله تعالى : « **يوم يكشف عن ساق** » وتعرض للالتفات

فى تفسير قوله تعالى : ((**كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة**)) • وهو فى نظره عام •

هذا ولم يقف أمر الفراء عند بيـــان بعض الصـــور البيانية فى القرآن بل تعدى ذلك الى الكشف عن موسيقى الألفاظ فى القـــرآن ونظمه ، وأثر ذلك كله فى نفوس العـــرب لأنه يثير بألفاظه ومعانيه وجدانهمويروع نفوسهم ويبهر أنظارهم •

وانظر الى تفسيره لقوله تعالى : ((**ولمن خاف مقام ربه جنتان**)) اذ يقول : ان نظم القرآن يجيز حذف أواخر الكلمات حتى تتوافق مع رءوس الآيات ، وهذا كله موافق لكلام العرب •

ومثل ذلك يقرره الفراء فى تفسيره لهذه الآيات : ((**والليل اذا يسر**)) ((**وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**)) • ((**ما ودعك ربك وما قلى**)) •

وهذا البحث الأخير هو الذى ترجح به كفة الفراء على كفة أبى عبيدة ، بل ويقف به على درجة أعلى من الدرجة التى يقف عليها زميله فوق سلم البحث البلاغى للقرآن الكريم ، ويمكن القول بأن الدراســـة القرآنية كانت فى القرن الثانى دراســـة لغوية أى تتعلق بالألفاظ والمعانى وأثرهما فى النفس •

— ٣ —

بدا ضوء الاســـلام قويا ثم انتشرت أشعته فى جميع الأرجاء وانداحت الدائرة فاذا بها تسفر عن عقيدة ونهضة ، فمنذ اتسعت قاعدة الاسلام ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، تسللت اليه أفكار جديدة ، ونظر الناس الى دينهم الجديد من خـــلال تراثهم القديم ، فوجهوا النقد والنقض للقرآن ، وكان هؤلاء النـــاس ممن غلبوا على أمرهم من أصحاب الديانات الأخرى فكانوا يتطاولون ويقدحون •

ولم يقف خلصاء العقيدة والنية من معســكر الاسلام مكتوفى الأيدى بحال من الأحوال ، فدينهم ايجابى لا يرضى بذلة ولا ينام على هوان ، ومن يومها هبت كتائب مختلفة جندت قواها وآلت على نفسها الذود عن الاســلام والدفاع عن القرآن • وقامت معــركة حامية الوطيس بين الفريقين بيد أن هذه المعركة لم يقع فيها قتلى ولم يسقط جرحى بقدر ما رقى العلم والأدب على حسابها رقيا بينا • ، ولقد كانت طائفة المعتزلة على رأس هذه الكتائب جميعا ، وذلك لحريتها الفكرية وعقليتها المنهجية ، بل وكثير من حججها السليمةالدامغة، برئاسة واصلبن عطاء الذى لا ينكر أحد أياديه ومن بعده ابراهيم بن سيار النظام الذى تثقف ثقافة عربية صميمة وان كان يرى الاعجاز بالصرفة فذلك لا يهمنا هنـــا •

جاء الجاحظ [١] ـ والحال على ما وصفنا ـ وكان أديبا من أدباء المعتزلة واماما من أئمة البيان ، ولغيرته على الحق ـ والحق وحده ـ نراه يظهر معارضـــة لأستاذه النظام ، فألف كتابه « نظم القرآن » الذىيدل اسمه على ما تضمنه من أفكار وآراء تدور كلها حول البحث الأدبى البيانى لهذا الكتاب ، القويم ، وكم كنا نود أن يسعدنا الحظ بالوقوف على كتاب الجاحظ حتى نستطيع أن نكون رأيا سليما عن الجاحظ ونظرته الى بيـــان القرآن وبلاغته ولكن افتقادنا هذا الكتاب لن يقف بنا فى ظلمت اليأس ، ولن يصرفنا عن الادلاء برأى الجاحظ فى هذا الموضوع مهما عز المطلب وصعب الطريق •

ولمـــاذا نذهب بعيدا وهذه كتب الجاحظ الأخرى ـ وما أكثرها ـ تفيض بالطريف التليد فى هذا الشأن ؟ ان جولة يسيرة هنـــا وهناك نتسمع الكلمات ونتنخل الأصوات سوف تهدينا سواء السبيل ، وتقطع برأى حاسم فى هذا الموضوع •

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ •

فعلى هامش كتاب « الكامل » للمبرد [1] توجد الفصول المختارة من كتب الجاحظ وفيها كلام يغلب على ظنى أنه من كتاب « نظـم القرآن » لأنه يتعلق باعجاز القـرآن ونظمه • وفيه يقول بعد أن تكلم على معجزتى موسى وعيسى « ان محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ مخصوص بعلامة لها فى العقل كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة والعرب عامة، مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة والحكماء وأصحاب الرأى والمكيدة والنظر فى العاقبة : ان عارضتمونى بسورة واحدة فقد كذبت فى دعواى وصدقتم فى تكذيبى ، ولا يجوز أن يكون مثل العرب فى كثرة عددهم واختلاف عللهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا فى الحيـات والعقارب والذئاب والخنافس والجعلان •• وكل مادب ودرج ولاح لعين وخطر على قلب ، ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والمزدوج والمجانس • وبعد : فقد هجوه من كل جانب ، وهجا أصحابه شعراءهم ونازعوا خطباءهم ، وحاجوه فى المواقف ، وخاصموه فى المواسـم ، وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم وقتلوا منه ، وهم أثبت الناس حقدا وأبعدهم مطلبـا •• ثم لا يعارض معارض ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر ، وهو أبلغ فى تكذيبهم ، وهم يبذلون مهجهم وأموالهم ، ويخرجون من ديارهم فى اطفاء أمره وفى توهين ما جاء به ولا يقولون بل لا يقول واحد منهم : لم تقتلون أنفسـكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم والحيـلة فى أمره يسيرة والمأخذ فى أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاما فى نظم كلامه كأقصر سورة يخذلكم بها ، وكأصغر آية دعاكم الى معارضتها بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكرهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن

---

(1) الطبعة الاولى مطبعة التقدم العلمية بالقاهرة سنة ١٣٣٤ هـ .

ينبههم بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف فدل ذلك العاقل على أن حالهم فى ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

اما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم فرأوا أن الاضراب عن ذكره والتغافل عنه أسلم لهم فى هذا الباب • وأن قرعهم به أمثل لهم فى التدبير ، وأجدر أن يجدوا الى الدعوى سبيلا والى اختداع الأنبياء سببا ، فقد أدعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه وهو قوله عز وجل : « **واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا** » •

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز ثم لا يبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم وهم أشد خلق الله أنفة ، وأفرط حمية ، وقد سمعوه فى كل منهل وموقف ، والناس موكلون بالخطابات مولعون بالبلاغة ؟ فمن كان شاهدا فقد سمعه ، ومن كان غائبا فقد أتاه من يزوده به •

واما أن يكون غير ذلك ، ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحكماء مع اختلاف عللهم وبعد هممهم وشدة عداوتهم الاطباق على بذل الكثير وصون اليسير ، وهذا من ظاهر التدبير ومن جليل الأمور التى لا تخفى على الجهال ، فكيف على العقلاء وأهل المعارف ، فكيف على الأعداء ؟ لأن تحبير الكلام خير من القتال ومن اخراج المال •

ولم يقل ان القوم تركوا مساءلته فى القرآن والطعن فيه بعد أن كثرت خصومتهم فى غيرة ، ويدلل على ذلك قوله تعالى حكاية عن قولهم : « **لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** » وقوله عز وجل « **واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله** » وقوله تعالى : « **وقال الذين كفروا ان هذا الا افك**

افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » ، وتدل كثرة هذه المراجعة على أن التقريع لهم بالعجز كان فاشيا ، وأن عجزهم كان ظاهرا ، ولو لم يكن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحداهم بالنظر والتأليف ، ولم يكن أيضا أزاح علتهم حتى قال تعالى : « **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** » وعارضونى بالكذب ، لقد كان فى تفصيله وتركيبه وتقديمه ... ما يدعوهم الى معارضته ومغالبته ..

ولو لم يكن قد تحداهم من كل ما قلنا وقرعهم بالعجز عما وصفنا لوصل الينا ذلك بالتواتر ، والذى منعهم من المعارضة هو الذى منع ابن أبى العوجاء واسحاق بن طالوت والنعمان بن المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلا ، وبالايمان كفرا ، وبالسعادة شقاء وبالحجة شبهة » .

فاذا تركنا هذا الهامش وذهبنا ننشد ضالتنا فى مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى[1] فاننا نراه بصدد الرد على أستاذه النظام وهو يثبت الاعجاز فى الوقت ذاته حيث يقول :

« ان الحجة لا تكون حتى تعجز الخلق وتخرج عن حد الطاقة كاحياء الموتى والمشى على الماء ، وكفلق البحر ، وكاطعام الثمار فى غير أوان الثمار ، وكايطان السباع واشباع الكثير من القليل ، وكالذى لا يجوز أن يتولاه ولا يقدر عليه الا الله عز وجل ذكره ، فأما الاخبار عن أفعال العباد وهم تولوها وبهم كانت ، وبقولهم حدثت فلا يجوز أن تكون حجة ، اذا كان لا حجة الا ما تقدر عليه الخليقة » .

وبعد اثبات اعجاز القرآن نراه يوضح [2] أن الاعجاز فى النظم

---

(١) ص ١٥٦ .
(٢) كتاب الحيوان ٤ : ٩٠ .

حيث يقول : « وفى كتابنا الذى يدلنا على أنه صدق : نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التى جاء بهـــا » .

كما أن الجاحظ فطن الى أن لألفاظ القرآن ميزة أزيد على غيره من حيث النظم ، وهى اتيان بعض ألفاظه مقترنة متصاحبة ، لا تكاد تفترق كالصلاة والزكاة والجوع والخوف والجنـــة والنار والرغبـــة والرهبة والمهاجرون والأنصار والجن والانس[1] .

كما أنه اهتدى الى أن من ألفاظ القرآن ما يستغنى به عن ألفاظ كثيرة فى الاستعمال ، ويدل على معان كثيرة وأسماء مجتمعة حيث يقول : وقد قال الله تعالى : « **يسألونك ماذا أحل لهم** » ؟ فقال لنبيه : « **قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين** » . فاشتق لكل صائد وجارح وكاسب وباز وصقر وعقاب وفهد وشاهين اسما من اسم الكلب[2] .

هذا ولم يقف أمر الجاحظ عند تأليف كتاب فى نظم القرآن أو أقواله المتناثرة فى ثنايا مؤلفاته عن نظم القرآن وألفاظه والكشف عن اعجازه بل انه تحدث عن أنواع بيانية استخرج أمثلتها من القرآن عرفت فيما بعد ضمن البلاغة العربية ، وان كان الجاحظ لم يقننها أو يفصلها التفصيل الذى وجدت عليه الآن . فعرف المجاز وجعله شاملا للاستعارة والتشبيه فى قوله تعالى : « **أكالون للسحت** » .

وقوله تعالى : « **انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** »[3] وقوله تعالى : « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه**

---

(١) البيـــان ١ : ٢١

(٢) الحيوان ٢ : ١٨٨ .

(٣) الحيوان ٥ : ٢٨ — ٣٤ .

الشيطان فكان من الغــاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا »[1] ، وتكلم عن الايجاز عند كلامه عن كتابه « نظم القرآن » حيث يقول : « ولى كتاب جمعت فيه آيات القرآن — ولعله يقصد بآياته آياته البينات التى جمعت الصور البلاغية — لنعرف بها فضــل ما بين الايجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها فى الايجاز والجمع بين المعانى الكثيرة بالالفاظ القليلة فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة « **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** » وهاتان الكلمتان قد جمعتا عيوب خمر أهل الدنيا • وقوله عز وجل حين وصف فاكهة أهل الجنة : « **لا مقطوعة ولا ممنوعة** » حيث جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى وهذا قليل من كثير قد دللتك عليه فان أردته فهو مشهور •

وقصارى القول ان الجاحظ بهذا العمل الخالد قد أسدى الى بيان القرآن واعجازه خاصة والى البــلاغة العربية عامة • اليد الطولى والنعمة الكريمة ، وذلك بدراسة أسلوب القرآن تلك الدراسة المبنية على حسن فهم وقوة ادراك ، والتى كان لها ما بعدها اذ كانت بمثابة المفتاح لكثير من الدراسات العربية فى حياة البلاغة والنقد • ولم يكن من الرجل هذا كله الا لايمانه ايمانا لا يخالجه ظن ولا يساوره شك فى أن القرآن الكريم فى الذروة العليا من البــلاغة وأسلوبه المثــل الأعلى للاسلوب العربى الرصين •

---

(١) الحيوان ٢ : ١٦ — ١٧ .

— ٤ —

خطا الزمن خطوات وساير ركبه تأليف الاسلام والمسلمين وخاصة فيما يتعلق بقرآنهم المجيد فوجدنا لونا آخر من النظر للاعجاز يكون مع ماسبقه أجزاء فى كل موحد هو اعجاز القرآن الكريم •

هذا اللون نجده لعالم جليل قد ارتضع ثدى المجد وافترش حجر الفضل فغدا بطينا من العقل خميصا من الجهل : هذا العالم هو ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ فقد ألف كتاب « مشــكل القرآن » للرد على الطاعنين فى بلاغته من المعتزلة والملحدين فى معانيه الذين اتبعوا ماتشابه منه ابتغـــاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلم عن مواضعه وعدلوا به عن سبيله ، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة فى اللحن وفساد النظم والاختلاف • فبين ما غمض فيه من معان لالتباسه بغيره واستتار المعانى المختلفة تحت لفظه ، وتفسير المشكل الذى ادعى على القرآن فساد النظم فيه •

وان الذى يتصفح كتاب ابن قتيبة هذا يجده قد تكلم عن بلاغة القرآن وبيــانه ، وان لم يشر الى ذلك حيث يقول : الحمد لله الذى نهج سبيل الرشاد ، وهدانا بنور الكتاب ، ولم يجعل له عوجا بل نزله قيما مفصلا مبينا « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » وشرفه وكرمه وعظمه وسماه روحا « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمــان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهــدى الى صراط مستقيم** »[1] وسماه رحمة « **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** »[2] وسماه شــفاء « **ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا**

---

(١) الآية ٥٢ الشورى •
(٢) الآية ٢٠ الجاثية .

فصلت آياته أأعجمي وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد »[1] .

وقطع بمعجزة التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين ، وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة ومسموعا لا تمجه الآذان ، وغضا لا يخلق على كثرة الرد ، وعجيبا لا تنقضي عجائبه ومفيدا لا تنقطع فوائده . ونسخ به سالف الكتب وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه وذلك معنى قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « **أوتيتم جوامع الكلم** » ، ثم أراد أن يبين ويوضح أنه لا يمكن الوصول الى فضله وبلاغته الا بكثرة النظر فيه واتساع العلم وفهم مذاهب العرب فقال : « وانما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الاساليب وما خص به لغتها دون جميع اللغات » .

ثم أراد بعد ذلك أن يبين فضل الله على الامة العربية وما خصها الله به من قوة العارضة والبيان واتساع المجاز فقال : « فانه ليس في جميع الامم أمة أوتيت من قوة العارضة والبيان واتساع المجاز ما أوتيته العرب .. خصيص من الله لما أرهطه[2] الرسول وأراده من اقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعل علمه كما جعل علم كل شيء من المرسلين من أشبه الامور بما في زمانه المبعوث فيه » .

ثم أخذ يقارن بين لغة القرآن وبلاغته وبين لغة العرب وبلاغتهم، كما قارن بين لغة قوم ولغة غيرهم من الامم . ومما لا شك فيه أن ابن

---

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .
(٢) جعله معدنا للخير ومأتى له .

قتيبة فى هذين النصين يريد أن يثبت أن القرآن بليغ بأسلوبه ونظمه وألفاظه ومعانيه وما كان كذلك الا للتدليل على أن العرب مع ما هم عليه من الفصاحة والبيان عجزوا عن الاتيان بمثله ولو مفترى • مع أنه من جنس كلامهم وطرقه فى الاسلوب لم تخرج عن طرقهم • كما أنه أرجع الاعجاز البيانى الى التأليف والنظم فيرى أن سبك ألفـــاظ القرآن وضمها بعضها الى بعض فى تأليف دقيق بينها وبين المعانى ، انما تجرى معا فى سلاسة وعذوبة كالجدول ، لا تعثر ولا كلفة ولا وحوشى ولا زيادة ولا فضول •

كما أن ابن قتيبة لم ينس أثر القرآن النفسى اذ يثير الوجدان عن طريق الشعور ، ويهز القلوب لأن أسلوبه يخاطب النفس الانسانية خطاب العارف بخفاياها فيبلغ فى التعبير مبلغ الروعة اذ يكلم الغرائز وينادى الطبائع ، كما لم يغفل أيضا الناحية اللغوية فى أسلوب القرآن فنراه قد تناول لغته كأداة للتعبير ثم بين قيمتها البيانية ومكانتها بين لغات العالم من هذه الناحية ، وأراد أن يقارن بين طرق العرب فى تأديتها وطرق القرآن فقال :

« وللعرب المجازات فى الكلام ومعناها طرق القول ومآخـــذه ، فمنها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والاخبار والاظهار والتعريض والافصاح والكناية والايضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع ومخاطبة الجمع مخاطبة الواحد والواحد والجمع مخاطبة الاثنين • والقصـــد بلفظ الخصوص بمعنى العموم والعموم بمعنى الخصوص ، وأشـــياء كثيرة الى أنها ستوجد فى باب المجاز من كتابه المذكور « مشكل القرآن » •

ولكن المعاندين الملحدين لم يتركوا القرآن بل اعترضوا وقالوا مرة : هذا سحر ، ومرة يقولون : انه شعر ومرة هو قول الكهنة ، ومرة

هو أساطير الاولين • ولكن ابن قتيبة انبرى لهذه الاقاويل كلها وكشف للناس ما هم فيه مبلسون • كما أنه وضع لكل لون من ألوان التعبير بابا يخصه ، وسنعرض لبعضها هنا باختصار ، ولطالب المزيد العودة للكتاب • والذى يهمنا من هذه الألوان : الألوان البيانية وان لم يسمها كذلك ، بل سماها مشكلات لخروجها عن حقيقة لفظها الى معنى آخر يدخلها فى حسبان البديع العربى بمعناه العام لانطباقه عليها لطرافتها وحسنها الذى أوقع أصحاب الايمان الضعيف والملحدين فى الاشكال والبلغاء فى نشوة وطرب • فتكلم عن المجاز وبين[1] أنه من وجهته غلط كثير من الناس فى تأويل القرآن وتشعبت بهم الطرق ، واختلفت النحل ، ورد على من أنكره وطعنوا به على القرآن لزعمهم الخاطىء ، أنه كذب • وقد مثل له بكثير من آيات القرآن الكريم •

كما تكلم عن الاستعارة من المجاز وقال : [2] « فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة اذا كان المسمى بها بسبب من الآخر أو مجاورا لها أو مشاكلا » • ولم يقف عند التعريف بل اتبعه بما يوضحه من آيات القرآن بعد أن مهد لذلك بالامثلة التى قدمها من شعرية ونثرية واستشهد على وجود الاستعارة فى القرآن بقوله تعالى : « **يوم يكشف عن ساق** » وقال أى عن شدة من الامر ، كفلك قال قتادة • •

وأصل هذا أن الرجل اذا وقع فى أمر عظيم يحتاج الى معاناته والجد فيه شمر عن ساق فاستعيرت الساق فى موضع الشدة • وقوله تعالى : « **ولا يظلمون نقيرا** » ، وقوله تعالى : « **ولا يظلمون فتيلا** » والفتيل ما يكون فى شق النواة ، والنقير النقرة فى ظهرها • ولم يرد أنهم

---

(١) مشكل القرآن ص ٧٦ .
(٢) مشكل القرآن ص ١٠٢ .

لا يظلمون ذلك بعينه وانما أراد أنهم لا يظلمون فى الحساب اذا حوسبوا ولو مقدار هذين التافهين الحقيرين •

والعرب تقول : مارزأته زبالا والزبال ما تحمـله النملة بفمها يريدون مارزأته شيئا ، وعلى هذا المنوال سار فى لون الاستعارة من الالوان البيانية •

وتكلم عن المبالغة[1] عند تأويل قوله تعالى : « **وبلغت القلوب الحناجر** » أى كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق • وقد يجوز أن يكون مراده منها أنها ترجف من شدة الفزع وتجف ويتصل وجيفها بالحلوق ، ووجيف القلب : خفقانه وفى التنزيل : « **قلوب يومئـذ واجفة** » فكأنها بلغت القـلوب بالوجيف ووجيف القلب اضـطرابه وخفقانه أيضا •

كذلك فان ابن قتيبة لم ينس من صور القرآن البيانية : الكناية فنراه قد تكلم عنهـا فى كتابه المذكور « مشكل القرآن » [2] قائلا : الكناية أنواع ولها مواضع :

فمنها أن تكنى عن اسم الرجل بالابوة لتزيد فى الدلالة عليه ، اذا أنت راسلته أو كتبت اليه ، اذا كانت الاسماء قد تتفق ، أو لتعظيمه فى المخاطبة بالكنية لأنها تدل على الحنكة والتجربة والبصر بالأمور • وقد رد على من قال • مادامت الكنية للتعظيم فلم كنى أبا لهب وهو عدوه وسمى محمدا وهو وليه ونبيه ؟ رد عليه قائلا : « ان العرب ربما جعلت اسم الرجل كنيته ، وكانت الكنية هى الاسم قال أبو محمد خبرنى غير

(١) مشكل القرآن ص ١٣١ .
(٢) نفس المرجع ص ١٩٩ .
(٣) نفس المرجع ص ٢٠٢ .

واحد عن الأصمعى أن أبا عمرو بن العلاء وأبا سفيان أسماؤهما كناهما ، وربما كان للرجل الاسم والكنية فغلبت الكنية على الاسم فلم يعرف الا بها كأبى سفيان وأبى طالب وأبى هريرة » •

ومنها فى القرآن قوله عزوجل : **«ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا»** يقول : « ذهب جماعة من المتسمين بالاسلام الى أنه رجل بعينه ، وقالوا لم كنى عنه ؟ وانما يكنى هذه الكناية من يخاف المبادلة ويحتاج الى المداجاة • وقال آخرون : بل كان هذا الرجل فى هذا الموضع ، فغير وكنى عنه ••

وذهبوا الى أنه عمر وتأولوا الآية فقالوا « **ويوم يعض الظالم على يديه** » يعنى أبا بكر يقول :

« **يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** » يعنى محمدا « **يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا** » يعنى عمر « **لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى** » يعنى عليا • وللرد على هؤلاء نقول :

من قال ان أبا بكر لم يسلم ، ولم يتخذ باسلامه مع الرسول سبيلا فليس هذا التفسير ينكر من تفسيرهم وما يدعونه من علم الباطن كادعائهم فى الجنة والطاغوت أنهما رجلان ، وأن الخمر والميسر رجلان آخران • ومنها التعريض حيث يقول[1] : « ومن هذا الباب التعريض والعرب كانت تستعمله فى كلامها كثيرا فتبلغ ارادتها بوجه ألطف وأحق من الكشف والتصريح ، ويعيبون الرجل اذا كان يكاشف فى كل شىء ويقولون عنه : لا يحسن شعر التعريض الا ثلبا وقد جاء فى القرآن منه قوله تعالى : « **ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب** » وعلق على هذه الآية بقوله :

---

(١) مشكل القرآن ص ٣٠٤ .

« انما هو مثال ضربه الله له ونبهه على خطيئته ، وورى عن النساء بذكر النعاج كما كنى الشاعر عن الجارية بالشاة » .

ولا أدرى كيف يخلط ابن قتيبة بين التورية والتعريض مع أن فى كلامه ما يفيد أن الآية شاهد على التورية ؟

كذلك فانه تكلم عن الايجاز بنوعيه : ايجاز القصر وايجاز الحذف ، ولم يشأ أن يتكلم عنه تحت ما عرف حديثا باسم الايجاز ، بل تكلم عنه تحت عنوان « باب الحذف والاختصار » وقال : « ان تحذف المضاف وتقيم المضاف اليه مقامه وتجعل الفعل له كقوله تعالى : **« واسأل القرية »** كنايتها أى سل أهلها ، وقوله عز وجل **« وأشربوا فى قلوبهم العجل »** أى حبه ، وقوله : **« الحج أشهر معلومات »** أى وقته .

وابن قتيبة وان كان قد مثل لهذا بعديد من الأمثلة ووفير من الآيات القرآنية على وجه الخصوص الا أنى أكتفى بسوق ما قدمناه من شواهد لهذا اللون علما بأن الملاحظ على الرجل أنه مغرم الى حـــد بعيد بالاكثار أيما اكثار من ايراد الامثلة والشواهد فى كل كتابه . وأيضا نراه قد استشهد للاختصار بقوله : « ومن الاختصار بلا جواب اذا كان فى الكلام ما يدل عليه كقوله الله تعالى : **« ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابا »** ثم قال :**« ذلك رجع بعيد »** أى لا يكون . وتكلم عن تكرار الكلام والزيادة فيه فقال[1] : « وأما تكرار الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجزى عن بعض كتكراره فى قوله تعالى : **« قل يأيها الكافرون »** ، وفى سورة الرحمن : **« فبأى آلاء ربكما تكذبان »** وعلى وجود هذا الاسلوب فى القرآن بقوله : وقد بينا أن القرآن نزل بلسان

---

(١) مشكل القرآن ـــ ابن قتيبة ص ١٨٢ .

القوم وعلى مذاهبهم ، ومن مذاهبهم التكرار ارادة التوكيد والافهام كما أن من مذاهبهم الاختصار ارادة التخفيف والايجاز لأن افتنان الخطيب والمتكلم فى الفنون وخروجه عن شيء الى شيء أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد » •

وان بعض ضعاف الدين والفهم يعدون وجود هذا الاسلوب فى القرآن عيبا، ويقولون : ان التكرار لغو ، والقرآن مشتمل عليه »• ثم تكلم عن تكرار المعنى بلفظين مختلفين لاشباع المعنى والاتساع فى الألفاظ **كقوله تعالى : « فيها فاكهة ونخل ورمان »** والنخل والرمان من الفاكهة فأفردهما من الجملة التى أدخلهما فيها لفضلهما وحسن موقعهما • وكقوله تعالى : « **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** » وهى منها: فأفردها بالذكر ترغيبا وتشديدا لأمرها •

وبعد •• فهذا هو فضل ابن قتيبة وتلك هى صنيعته فى بيان اعجاز القرآن الكريم بنظمه بأسلوبه بألفاظه بمعانيه ليس هذا فحسب • بل وفى استخراج ما فيه من الصور البيانية الفريدة التى تعمل على ايضـــاح الفكرة وحسن الصورة واثارة العواطف وحث الخيال على التحليق فى أجواز الحقيقة الكبرى لادراك الاعجاز البيانى للقرآن •

— ٥ —

انتهيت فيما مضى من اعجاز القرآن البيانى الى ابن قتيبة فى كتابه « مشكلة القرآن » ووقفت منه عند اعجاز القرآن بنظمه والكشف عن اسراره وطرقه فى الدلالة وهى الالوان البيانية •

ثم ألتقيت بعالم آخر — وكثير من العلماء لم نعرفهم الا بصفحات قليلة أبقت عليها الايام من ألوان كتبوها ، ومن هؤلاء عالم اشتغـــل

بخدمة القرآن والحديث والفقه والتاريخ ، وهيأته الفطرة لذلك فكان مثالا باهرا بألمعيته وحريته ودهائه ومضائه ، تجسدت فيه الامانة العلمية ــ وهى الصفة الاولى للعالم ــ فوقع الاجماع على قبـــول كلامه أو كاد ، كما كان عارفا كل المعرفة بسياسة العلم وألف كثيرا وكتب البقاء لمؤلفاته .

التقيت بهذا العالم ــ وهو : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر المعروف بابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ــ فى تفسيره الكبير الذى بين فيه أحكام القرآن وناسخه ومنسوخه ومشكله وغريبه ومعانيه ، واختلاف أهل التأويل والعلماء فى أحكامه والصحيح لديه فى ذلك ، واعراب حروفه والكلام على الملحدين فيه والقصص وأخبار الامم ، وسماه « جامع البيان » .

يقول فى حديثه عن اعجاز القرآن وبلاغته [(١)] : « ومن أشرف تلك المعـــانى التى فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله : نظمه العجيب ، وتأليفه البديع الذى عجزت ــ عن نظم مثل أصغر سوره ــ الخطباء ، وكلت عن وصف شكله البلغاء وتحيرت الشعراء » .

من هذا النص نرى الطبرى قد خرج بالتفسير من التفسير اللغوى الى الايضاح والتأويل اذ جعل اعجازه قائما على تلاؤم الالفـــاظ وائتلافها مع تحدى الرسول للعرب أن يأتوا بمثله لانه بلغتهم ولفظه كلفظهم ، ثم ذكر الوجوه والأسرار التى أدت الى التفاوت بين بلاغة القرآن التى عجزت العرب وبلاغتهم وما أتى منها فى اللسان العربى كالتقديم والتأخير والاستعارة والايجاز والاطناب .

---

(١) جامع لبيان للطبرى ١ : ٦٥ .

كما نفهم من نص الطبرى أن التحدى لم يكن فى الاتيان بمثل الفاظ القرآن ولا بمثل معانيه ، وانما التحدى كان بالاتيان بمثل أقصر سورة نظما وتأليفا •

— ٦ —

وفى نفس القرن التقيت بأبى الحسن على بن عيسى بن على بن عبد الله الرمانى النحوى المتكلم ، أحد الائمة المشهورين ، والجامعين بين علمى الكلام والعربية ، والمتوفى سنة ٣٧٤ هـ ، التقيت به فى رسالة صغيرة سماها « النكت فى اعجاز القرآن » وقد طبعت أخيرا ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن بتحقيق السيد الاستاذ محمد خلف الله أحمد وآخرين •

وقد جعل وجوه الاعجـــاز تظهر من سبع وجهات وهى : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة، والبلاغة ، والاخبار الصادقة عن الامور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة ، ويهمنا أو يتصل ببحثنا من هذه الوجوه السبعة البلاغة التى تحدث عنها الرمانى قائلا :

فأما البلاغة فهى على ثلاث طبقات : « منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة ،ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة • فما كان فى أعلى طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن • وماكان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس ، وليست البلاغة افهام المعنى لانه قد يفهم المعنى متكلمان : أحدهما بليغ والآخر عيبى ، ولا البـــلاغة بتحقيق اللفظ على المعنى لانه قد يحقق اللفظ المعنى وهو غث مستكره ، ونافر متكلف •

وانما البلاغة ايصال المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كاعجاز الشعر للعجم ، فهذا معجز للعجم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة كاعجاز الشعر المفحم فهــذا معجز للمفحم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة » .

ولم يقف أمر الرمانى عند بيان اعجاز القرآن البيانى بقوله : ان بلاغة القرآن فى أعلى طبقة بل أخــذ يبين ذلك بتوضيح أساليب تأدية المعنى وطرقه فى القرآن ، فتكلم عن الايجاز وعرفه بقوله : هو تقليل الكلام من غير اخلال بالمعنى ، واذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة فالالفاظ القليلة ايجاز ، وقسمه الى قسمين :

ايجاز حذف : وجعله باسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ، وأخذ يمثل له من القرآن الكريم بأمثلة كثيرة أكتفى منها بقوله تعالى : « **وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها** » كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه التنغيص والتكدير ، وانما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان (1) .

ايجاز قصر : وان كان هذا النوع أغمض من الحذف ـــ وان كان الحــذف غامضا ـــ للحاجة الى العلم بالمواضــع التى يصلح فيها والمواضع التى لا يصلح ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى : « **ولكم فى القصاص حياة** » وقوله : « **يحسبون كل صيحة** »وقوله :« **ولا يحيق المكر السيء الا بأهله** » . وان كان هذا النوع من الايجاز كثيرا . وقد

---

(1) أنظر ص ٧٠ ، ٧١ من ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن .

استحسن الناس من الايجاز قولهم « القتل أنفى للقتل » وبينه وبين قوله تعالى « **ولكم فى القصاص حياة** » تفاوت فى البلاغة والايجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة ٠

أما الكثرة فى الفائدة فيه : ففيه كل ما فى قولهم : القتل أنفى للقتل، وزيادة معان حسنة : منها ابانة العدل لذكره القصاص ، ومنها ابانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به ٠

وأما الايجاز فى العبارة : فان الذى هو نظير — القتل أنفى للقتل — قوله : « القصاص حياة » والاول أربعة عشر حرفا والثانى عشرة أحرف ٠

وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة ، فان فى قولهم : القتل أنفى للقتل تكريرا غيره أبلغ ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر فى باب البلاغةمن أعلى طبقة ٠

وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس ، وموجود فى اللفظ فان الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد الى الحاء أعدل من الخروج من الالف الى اللامْ ٠ فباجتماع هذه الامور التى ذكرناها صار لفظ القرآن أبلـــغ وأحسن ، وان كان الاول بليغـــا حســـنا ٠

وبعد أن بين الايجاز وأنواعه ومراتبه ، وتأملنا ما جاء فى القرآن استطعنا أن نقف على فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام بل وعلوه على غيره من سائر البيان ٠

ومما لاشك فيه أن الايجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والايجاز تصفية الالفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن ، والايجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الالفاظ ، والايجاز اظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير .

ولم يقف أمره فى بيان الاساليب القرآنية عند الايجاز بل تعداه الى أسلوب التشبيه وما تفرع منه كالاستعارة ، وعرف التشبيه وقسمه وجعله من الاساليب التى يتفاضل فيها الشعراء ، وتظهر فيها بلاغة البلغاء لانه يكسب الكلام بيانا عجيبا لاخراج ما لا تقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، واخراج ما لم تجربه العادة الى ما جرت به ، واخراج مالا يعلم بالبديهية الى ما يعلم بالبديهية ، واخراج ما لاقوة له فى الصفة الى ماله قوة فيها ، وسوف أترك التمثيل للتشبيه المختلف النوع المتنوع المرمى الى الدراسة التطبيقية التى سنوافى القارىء بها بعد الدراسة النظرية لفكرة اعجاز القرآن البيانى » .

ولم ينس الرمانى فرع التشبيه ، وهو الاستعارة فعرفها وقسمها[1] واستشهلا لها ، ثم تكلم عن التلاؤم فى الحروف والالفاظ فى القرآن ، وجعل القرآن من المتلائم فى الطبقة العليا ، ومقياس التلاؤم والتنافر فطنة الناس ، وبعض الناس أشد احساسا بذلك فيميزون الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والاخلاق .

وميزة هذا النوع البلاغى حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ وتقبل النفس له كما يرد عليها من حسن الصورة وطريف الدلالة

---

(١) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ٨٧ .

لأن مخارج الحروف مختلفة: فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ماهو من أدنى الفم ، ومنها ما هو فى الوسائط بين ذلك •

كما لم ينس الرمانى فواصل الآيات لأن الفواصل فى القــرآن حسب نظره بلاغة ، أى بلاغة مع أن الأسجاع عيب ينافى البلاغة ؟ وذلك لأن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الاسجاع فالمعانى تابعة لها وهو قلب لما توجبه الحكمة والدلالة ، اذ كان الغرض والحكمة انما هو الابانة عن المعانى التى تمس اليها الحاجة ، فاذ كانت المشاكلة وصلة اليهــا فهو بلاغة ، واذا كانت المشــاكلة على خلاف ذلك فهو عيب لأنهــا تكلف ، ومن يستعملها فهوكمن رصعتاجا ثم ألبسه زنجياساقطا،أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلبا ، ومنه قول بعض الكهان : « والارض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد الى العشراء » ومنها ما يحكى عن مسيلمة الكذاب : يا ضفــدع نقى كم تنقين ، لا المــاء تكدرين ، ولا النهر تفارقين •

فهذا أغث كلام يكون لتكلف المعانى من أجله ، وجعلها تابعة لــه[1] •

وفواصل الكلام كلها بلاغة وحكمة لانها طريق الى افهام المعانى التى يحتاج اليها فى أحسن صورة يدل بها عليها وجعلها على قسمين •

أحدهما : قائم على الحروف المتجانسة كقوله تعالى « **والطور وكتاب مسطور ، فى رق منشور** » •

الثانى : قائم على الحروف المتقاربة كقوله تعالى « **ق • والقرآن المجيــد بل عجبوا أن جاءهم منــذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب** » •

---

(١) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ٩٠ •

وانما حسن فى الفواصل الحروف المتقاربة لانه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة ، وأما القوافى فلا تحتمل ذلك لانها ليست فى الطبقة العليا من البلاغة، وانما حسن الكلام فيها اقامة الوزن ومجانسة القوافى فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج ، وبطل ذلك الحسن الذى له فى الاسماع، ونقصت رنينه فى الافهام ، والفائدة فى الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل ، وابداؤها فى الآى بالنظائر •

ولننظر الآن لما قاله الرمانى من أن الفواصل بلاغة والسجع عيب ، ولكن لما كان ذلك مشكلة فانه يجب أن نقف على رأى علماء البلاغة الذين أتوا بعد الرمانى فيها، وبذلك نكون قد أوضحنا ذلك بعض الايضاح، وفتحنا الباب لمن يريد الزيادة فى وضع الصواب فى هذه المسألة • فأبو هلال العسكرى[1] خالف الرمانى فى عد السجع من العيوب مطلقا، وقال : «وكذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع لازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخالق ، ألا ترى قوله عز وجل : « **والعاديات ضبحا فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا** » قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : والسماء والارض، والقرض والفرض ، والغمر والبرض[2] ، مثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا قال النبى — صلى الله عليه وسلم — لرجل قال له فى شأن الجنين : « أندى[3] من لا شرب ولا أكل ولاصاح فاستهل فمثل ذلك يطل »[4] أسجعا مثل سجع الكهان ؟ •• لان

---

(١) الصناعتين ٢٦١ .
(٢) البرض : القليل ، وماء برض قليل وهو خلاف الغمر .
(٣) أندى : من الدية .
(٤) يطل : من طل دمه اذا أهدره .

التكلف فى سجعهم فاش ، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال : أسجعا ، ثم سكت ، وكيف يذمه ويكرهه ، واذا سلم من التكلف وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام » .

ومن ذلك نرى أن السجع عند أبى هلال العسكرى ليس عيبا فى القرآن مادام بعيدا عن القصد والتكلف وازالة المعنى فى سبيل ارتكاب سجعه .

وقد عقد الباقلانى فصلا فى كتابه نفى فيه السجع عن القرآن وتلك نظرته فى البعد باعجاز القرآن عن الصور البديعية فقال : « ذهب أصحابنا كلهم الى نفى السجع من القرآن ، وذكره أبو الحسن الاشعرى فى غير موضع من كتبه وذهب كثير ممن يخالفهم الى اثبات السجع فى القرآن وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام وأنه من الاجناس التى يقع به التفاضل فى البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة ، وأقوى ما يستدلون به عليه على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام ، ولما كان السجع قيل فى موضع هارون وموسى ، ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل موسى وهارون .. وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب . ونفيه من القرآن أجدر لان الكهانة تنافى النبوات » .

ولا شك أنه بذلك ينفى السجع عن القرآن ، كما نفى الشعر ، وقد تخيل أن سائلا يسأله وما قولك فيما توافقت فيه الفواصل بحروف

---

(١) اعجاز القرآن ٥٩ ط السلفية .

متشابهة أو متقاربة فى القرآن ؟ فقال ردا على ذلك : « والذين يقدرونه أنه سجع فهو وهم » لانه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى ، وفى مكان آخر من كتابه [1] قال :

« ولا معنى لقولهم : ان ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد دورى غير مختلف ، لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده ولو بنى عليه لكان الشعر سجعا ، لأن رويه يتفق ولا يختلف وتتردد القوافى على طريقة واحدة ، وأما الأمور التى يستريح اليها فانها تختلف فربما كان ذلك يسمى قافية ، وذلك انما يكون فى الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع ، وربما سمى ذلك فواصل ، وفواصل القرآن . مما هو مختص بها — لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب .

وابن سنان الخفاجى :

لم يترك الرمانى ومسألة السجع فى القرآن من غير أن يتعقبه فيها فقال بعد أن ذكر رأيه فى كتابه والعلة التى من أجلها منع وجود السجع فى القـرآن :

---

(١) اعجاز القرآن ٦ .

« والذى يجب أن يحرر فى ذلك أن يقال : ان الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفصول على ما ذكرنا ، والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع .

وضرب لا يكون سجعا وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين ــ أعنى التماثل والتقارب من أن يأتى طوعا ســهلا وتابعا للمعانى ، وبالضد من ذلك حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فان كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وان كان من الثانى فهو مذموم مرفوض .

فأما القرآن فلم يرد فيه الا ما هو من القسم الأول المحمود لعلوه فى الفصاحة ، ومثل للنوع الأول وهو المتماثل المحمود بقوله تعالى : **« والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر »** . وقوله تعالى : **« ألم تر كيف فعل ربك بعاد، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد »** .

ومثل للمتقارب ــ بما مثل له أبو هلال العسكرى . ولم يجعله من السجع لأنه جعل السجع ما كانت حروفه متماثلة[1] .

ولعل الذى دعا منكرى السجع فى القرآن لرأيهم هذا هو تنزيهه اياه عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض فى التسمية قريب .

والحقيقة أنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعا .. ولا فرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع .

---

(١) سر الفصاحة : ١٤٢ .

وقال ابن الأثير فى « المثل السائر »[1] عن السجع فى القرآن :
« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به ، والا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم ، فانه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور .

وذكر الرمانى من طرق البيان فى القرآن : التجانس وجعله على قسمين :

مزاوجة كقوله تعالى : **« فمن اعتدى عليكم فاعتـدوا عليه »** ومناسبة كقوله تعالى **« يمحق الله الربا ويربى الصدقات »** فجونس بارباء الصدقة ربا الجاهلية والأصل واحد وهو الزيادة الا أنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة زيادة محمودة .

كما لم ينس أن يذكر من طرق تأديه المعنى فى القرآى : المبالغة اذ عرفها بقوله : « هى الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الابانة » وتحدث عن وجوهها الست ممثلا لكل وجه منها من آيات القرآن .

كما لم ينس البيان الذى هو الاختصار لما يظهر به تمييز الشىء من غيره فى الادراك[2] . وجعله على أربعة أقسام : كلام ، وحال . واشارة ، وعلامة ، وحسن البيان فى الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن فى العبارة ، من تعديل النظم حتى يحسن فى

---

(١) المثل السائر ١ : ١١٤ .
(٢) ثلاث رسائل ٩٨ .

السمع ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة .. والقرآن كله فى نهاية حسن البيان فمن ذلك قوله تعالى : **« كم تركوا من جنـــات وعيون وزروع ومقام كريم »** فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاغترار بالامهال ، وقوله تعالى : **« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »** فهذا أبلغ ما يكون من الحجاج وغير هذا كثير .

ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الوجوه فى اعجاز القرآن وهى ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة الذى يترتب على سابقه ، والصرفة وجعلها أحد وجوه الاعجاز التى يظهر منهـــا للعقول ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة لأنه لما كان لا يجوز أن تقع على سبيل الانتقان دل على أنها من عند علام الغيوب ، ونقض العادة ، لأن العادة جرت بضروب من أنواع الكلام معروفة كالسجع والشعر والخطب والرسائل ولكن القرآن أتى بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة فى الحسن تفوق كل طريقة ، وقياسه بكل معجزة لأنه يظهر اعجازه من هذه الجهة ، ومما لا شك فيه أن الرمانى آمن بكل ما ذكره من وجوه الاعجاز وجعله طريقا من طرقه ولكن أهمها عنده بل ما بنيت عليه هذ الوجوه كلها هو بلاغة القرآن .

— ٧ —

ومادمنا قد شددنا الرحال الى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى ، فاننا سوف نقدم للقارىء الكريم شهابا من شهب البـــلاغة العربية ، شرع قلمه لتبيان هــذه الحقيقة الخالدة التى نحن بصـــدد استعراضها وهى حقيقة اعجاز القرآن البيانى .

---

(١) ثلاث رسائل : ٩٨ .

أما الرجـل فاسمه أبو سليمان حمـد بن محمد بن ابراهيم الخطابى ، وأما أى شىء كان وهو ؟ فسندع ذلك لرواية التاريخ المتواترة لتقول :

الخطابى هو العالم اللغوى المحدث والعف الصالح الكريم ، نشأ محبا للعلم ، جادا فى تحصيله ، طاف البلاد الاسلامية شرقا وغربا للتزود بالعـلم من جهـابذة العلماء ومبدعيهم ، فأخذ التفسـير عن أبى بكر القفال الشاسى . وأخذ اللغة والأدب عن عماء بغداد كأسماعيل الصفار ، وأبى عمر الزاهد وأبى العباس الأصم وأحمد بن سليمان النجار ، وأبى عمرو السماك ، وغيرهم . وقد رحل الى العراق ، فأصاب علما وفيرا من البصرة وبغداد ، ثم هبط الحجاز ثم عاد الى خراسان .

هذا وقد استقر به المقام فى نيسابور عامين أو أكثر ، ثم خرج الى ما وراء النهر ، وانتهى به المطاف الى مدينة بست التى مكث بها الى أن توفى لست من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة أو لسادس عشر من ربيع الآخر سنة ست وثمانين وثلاثمائة كما يقول ياقوت .

ومما يجدر التنويه به فى هذا المجال أن الرجل كان شاعرا مجيدا ، قال الشعر حتى قال فيه الثعالبى وهو بصدد الاشادة بفضـله فى كتابه [1] : كان — يعنى الخطابى — يشبه فى عصرنا بأبى عبيد القاسم ابن سلام فى عصره علما وأدبا وزهدا وورعا وتدريسا وتأليفا الا أنه كان يقول شعرا حسنا ، وكان الخطابى دفحما ومن شعره :

تسامح ولا تستوف حقـك كله ... وأبـق فلم يستقض قـط كريم
ولاتغل فى شىء من الامرواقتصد ... كلا طرفى قصد الامور ذميـم

---

(١) انظر يتيمة الدهر ١ : ٣٢ .

ومنه قوله :

وانى غريب بين بست وأهلهـــا وان كان فيها أسرتى وبها أهلى

هذا وقد شهد له «السمعانى» بالامامة والفضل وكبر الشـــأن وجلالة القدر فاستحق لهذا كله ما رثاه به « أبو منصور الثعالبى » حين قـــال :

انظـــروا كيف تخمد الانـــوار انظروا كيف تســـقط الاقمـــار
انظـــروا هكذا تزول الرواسى هكذا فى الثـــرى تغيض البحار

وبعد فهذه نبذة يسيرة عن حياة الرجل علها قد أعطتنا اجابة التساؤل الذى صدرنا به هذا الكلام عنه .

آثاره العلمية والأدبية :

هذا الأفق الواسع ، والذكاء الجم ، وتلك الثقافة الرحيبة كان لها أثرها الكبير فى حياة الخطابى فى أن ينتج ، فأضاف الى صرح الاسلام ولغته لبنات ولبنات .

ومن أشهر آثاره المطبوعة « معالم السنن » فى شرح سنن أبى داود ، وكتاب « العزلة » وكتاب « اصلاح خطأ المحدثين » وكتـــاب « بيان اعجاز القرآن » .

أما كتبه الأخرى والتى لا تزال مخطوطة فمنها « شرح للبخارى » و « شرح لأسماء الله الحسنى » و « غريب الحديث » و « كتـــاب الغنية عن الكلام وأهله » .

والذى يهمنا من آثاره هذه ويتصل ببحثنا هو كتابه « بيان اعجاز القرآن » الذى طبع بالقاهرة ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القـــرآن

الكريم بتحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام وطبع مرة أخرى بتحقيق الاستاذ الشيخ عبد الله الصـــديق سنة ١٩٥٣ م •

ان المطلع على هذا الكتاب يرى أن الخطابى يرمى السابقين من العلماء ــ حتى عصره ــ الذين تحدثوا عن اعجاز القرآن بأنهم ليسوا صادرين عن رأى بين ، وأنهم يذهبون فى القول فى هذا الموضوع كل مذهب ، واستمع اليه يقول :

« قد أكثر الناس الكلام فى هذا الباب قديما وحديثا ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم ليصدروا عن رأى ، وذلك لتعذر معرفة وجه الاعجاز فى القرآن الكريم ، ومعرفة الأمر فى الوقوف على كيفيته » •

وعلى ذلك فهو يقطع بتعذر المعرفة لهذين السببين مجتمعين : صعوبة الاهتداء الى وجه الاعجاز من ناحية ، وعدم تيسر الوقوف على كيفيته من ناحية أخرى •

ولعله من أجل هذا قد أخذ يدلل على عجز البشر عن الاتيان بمثل القرآن حين بين أنه قائم بين الناس من يوم أن نزل على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى يومنا هذا وما بعده حتى تقوم الساعة على عكس معجزات الأنبياء والرسل السابقين فان معجزاتهم تنتهى بوفاتهم •

وتحدى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ العرب قاطبة أن يأتوا بسورة من مثله ولكنهم عجزوا عنه وانقطعوا دونه •

ثم بقاء هذا التحدى فى زمن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما بعده من الأزمنة ، وظل رسولنا ــ عليه السلام ــ يطالبهم به مدة عشرين عاما ، مظهرا لهم النكير ، مسفها آراءهم وأحلامهم ، ولكن بدلا من أن يعارضوا القرآن نابذوه العداوة وناصبوه الحرب حتى فنيت الأموال وهلكت الأرواح ، وأريقت المهج ، وقطعت الأرحام مع ما كانت عليه قريش من الرزانة ووفارة العقول والالباب ، فقد كان منهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون ، ولكن مالوا الى الجدل واللدد والخصام **« ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون »** •

وهكذا نراه يبين السر الذى من أجله اندفع كفار قريش الى مقاتلة القرآن دون مقابلته ، وبمقابلته بالأسنة بدل الألسنة ، وبالحراب بدل الكتاب حتى أفرغوا كنانتهم برمى آخر نبلة فيه ولم ينجحوا •

ويتقدم الخطابى فى بحثه خطوة فيناقش فكرة الصرفة فى اعجاز القرآن ، ويذكر حجة القائلين بها ويعلق عليها بقوله :

« فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها وهذا أيضا وجه قريب » •

ولسنا ندرى كيف يصفه الخطابى بالقرب •• مع أنه واضح الفساد ظاهر البطلان ، بل لعله أفسد ما قيل فى الاعجاز ، وفساده واضح من قوله تعالى **« قل لئن اجتمعت الانس ، والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »** •

ذلك لأنه يدل على طريقة التكلف والاجتهاد ، والصرفة تخالف ذلك تمام المخالفة •

ونستطيع أن نستدل بالآية على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة — وهو معنى الصرفة — لم يبق لاجتماعهم فائدة لأنه يكون — والحالة هذه — بمنزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى مما يحتفل وينوه به •

كما أن الاجماع منعقد — قبل النظام وهو القائل بالصرفة — على اضافة الاعجاز الى القرآن لا الى الله سبحانه وتعالى •

كذلك فانه لو لم يضف الاعجاز الى القرآن أى أن المنع من المعارضة كان من قبل الله للزم على هذا زوال الاعجاز بانقضاء زمان التحدى ، وهذا فى غاية الفساد • وقد تعرض الخطابى فى كتابه لفكرة اشتمال القرآن على الأخبار المستقبلة مما تثبت للكتاب القويم وجها من وجوه الاعجاز ولكنه لم يوافق على ذلك ولم يرتضه شرحا لأسرار الاعجاز •

هذا ويستطرد الخطابى فى بحثه فيثبت بلاغة القرآن ناظرا للمسألة نظرة جديرة بالاشادة والاعتبار ، فهو لا يقف ببلاغة القرآن عند الحد الذى وقف عنده من تقدمه من العلماء ، ولكنه تطور بها ، وعاب على المتقدمين وقوفهم عندما ورثوه عن سابقيهم معتمدين على النقل لا النقد ، وآخذين بضرب من غلبه الظن دون التحقيق ، ولذلك صاروا — على حد تعبيره — « اذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن الفائقة فى وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة — قالوا : انه لايمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وانما يقرنه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل فتقع فى نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك وقد يخفى سببه عند البحث ، ويظهر

أثره فى النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة .. ولا شك أن هذا الجواب لا يقنع فى مثل هذا العلم ولا يشفى من داء الجهل به، وانما هو اشكال احيل على ابهام » .

ورغم هذا كله فلم يكن موقفه سلبيا بحال ما ولذا نراه يعالج الموضوع على طريقته مبينا السر فى بيان أثر القرآن فى النفس وهل هو الا القدرة على مخاطبة العقل والقلب معا بلسان مبين ، والمزج بين الحق والجمال يلتقيان ولا يبغيان .

فهذا هو القرآن الكريم تراه فى فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ، وتراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير وتهويل ، وتعجيب وتبكيت وتأنيب وصدق الله العظيم اذ يقول فى وصفه « **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله** » .

ولكل من هذه المعانى أولها مجتمعة باعتبارها العروة الوثقى لما يحويه القرآن الكريم من أثر نفسى يقول الخطابى « ان الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب والتأثير فى النفوس فتصطلح من أجله الالسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتحصر الاقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع عنها أمر لابد له من سبب بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف ، وقد استقرينا أوصافه الخارجية عنه وأسبابه النابتة منه ، فلم نجد شيئا منها يثبت على النظر ، أو يستقيم فى القياس فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوبا من ذاته ومستقصى من جهة نفسه فدل النظر وشاهد العبر على أن السبب له والعلة فيه

أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التباين متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين والجذل •

ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز المطلق المرسل » •

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود — فى نظره — دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه على الاطلاق •

فالقسم الأول هو أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصره ، أما الثالث فهو أدناه وأقربه ، وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الضخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد من نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة له على صحة ما دعا اليه من أمر دينه • وهكذا نرى الخطابى لا يألوا جهدا فى تبيان بلاغة القرآن ، وأنها حازت مالم يحزه فن آخر من فنون الكلام ، وقد اتخذ من هذا قاعدة لانطلاقه نحو اثبات الاعجاز البيانى بقوله :

« ان عدم قدرة البشر على الاتيان بمثل سورة منه — وهو معنى الاعجاز — انما كان لما به من بلاغة لا تعدلها بلاغة ، ومن فصاحة تتقاصر الهمم دونها ، وتنتقطع حبالها الأرواح» ولذلك فان الخطابى يرجع عجزهم عن هذا الى أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية ، وبأوضاعها التى هى ظروف المعانى والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشـــياء المحمولة على تلك الألفاظ ولا تكمل معرفتهم

لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها ، وارتباط بعضها ببعض فيتوصلون باختيار الأفضل عن الاحسن من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله . ولما جعل بلاغة الكلام واعجازه قائمين على أشياء ثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ناسب أن يفتش عن هذه الأسس الثلاثة فى القرآن ، وهذه ناحية تطبيقية لنظريته فى الاعجاز نحسبها له ونحمده من أجلها .

ذهب الرجل يفتش عن هذه الأسس ، أو قل يطبق نظريته البلاغية فوجدها فيه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ، ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه .

أما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول السليمة والقرائح التى لم تضل ولم تنحرف . « حقا قد توجد هذه الأسس فى كلام ما ولكنها اذا وجدت لا تجتمع ، وانما توجد فيه متفرقة لأننا لم نرها اجتمعت الا فى كلام العليم القدير الذى أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا » .

فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا يبطل قول من قال : ان العرب كان فى قدرتها الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط الاتيان بشىء من هذا . ولمــاذا نذهب بعيدا وأمامنا المثل حية نابضة ، فهذا شاعر قوى ينقح قصيدته حولا كاملا ؛ وذلك خطيب لسن يفتن فى اختيــار الأساليب والكلمات فاذا نظر هذا أو ذاك الى عمله مرة أخرى ، فلا يفتأ أن يغير أو يبدل فيأتى بدل القديم بجديد ، وقد يحدث أن يغير الجديد أيضا بما هو أكثر جدة وأقرب حداثة . أما الأمر بالنسبة لكتاب الله ــ عز وجل ــ فمختلف أيما اختلاف ، فلو نزعت منه لفظة ثم أدرت لسان العرب على

أخرى أحسن منها ، فانك ولاشك سوف ترجع صفر اليدين ذلك لأن القرآن الكريم قد جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف ، متضمنا أصح المعانى من توحيـــد له ــ عزت قدرته ــ وتنزيه له فى صفاته ، ودعوة الى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر اباحته ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر وارشاد الى محاسن الاخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعا كل شىء موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه ، ومما لا شك فيه أن اجتماع هذه الأشياء وتلك الأمور والاتفاق بين أشتاتها ، حتى تلتئم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر وهذا ما دفع بعض الناس الى القول بأنه شعر لـــا رأوه منظوما ، وبعضهم قال بأنه سحر لـــا رأوه غير مقدور عليه ، وطائفة ثالثة لجهلها قالت بحقد يملأ صـــدورها : انه أساطير الأولين اكتتبهـــا فهى تملى عليه بكرة وأصيـــلا •

والغريب فى المسألة أنهم ــ مع هذا ــ كانوا يعترفون بأمية رسولنا الكريم لأنهم أحسوها ولمسوها ، وهل خرج الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الا بين ظهرانيهم ؟

كذلك فلم يكن بحضرته الشريفة من يملى أو يكتب ولكن ماذا نصنع حيال التكذيب والافتـــراء من قوم جبلوا عليه وطبعـــوا على اختلاقه ؟

النضر بن الحارث ــ قاتله الله ــ كذب وتولى وأنكر وأعرض ثم ادعى زورا وبهتانا أن أناسا من أهل الكتب منهم عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن عامر الحضرمى ، وجبر مولى عامر ــ هؤلاء وغيرهم يدعى النضر أنهم كانوا يساعدون الرسول باختلاق الأراجيف والقصص ، وساعدهم علىأداء مهمتهم أنهم كانوا من

اليهود ، وقرأوا التوراة ، وحدثوا بأحاديث منها فى أم القرى فتلقفها الرسول ـــ كما يزعم ابن الحارث ـــ وعبر عنها بعبارات من عنده ، فكان منها القرآن ، ألا فلتخسأ يا نضر فى كل ما زعمت وكفاك وأمثالك أن يسجل القرآن الكريم لكم جميعا صفة الكفر : تلك الصفة الدنيئـــة الخسيسة وهو بصدد حكاية ما كان • يقول الله تعالى فى كتـــابه العزيز :

« وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » ••

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذبا » •

من هذا كله نرى أن الخطابى قد نجح فى تطبيق نظريته فى البلاغة على اعجاز القرآن الكريم فطابق الخبر الخبر وكانت بلاغة القرآن ـــ على هذا ـــ آية اعجازه البيانى الذى كان له أثر السحر فى الأفئدة والنفوس •• وقد يجرنا الى الحديث عن هذا الأمر أن نعرض له بالتفصيل لدى أبى سليمان •

أثر البيان القرآنى فى النفوس :

لقد استطعنا أن نستخلص مما سبق أن أهم ما فى الاعجاز القرآنى لدى الخطابى انمـــا يرجع الى حسن تأليفه والتئام كلمه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب ، فرسان الكلام وأساطين البلاغة •• وكذلك يرجع الى نظمه العجيب وأسلوبه البديع المخالف لأساليب كلام العرب شعرهم ونثرهم • ولكن الخطابى لم يقف باعجاز القرآن عند بيان ألفاظه وصحة معانيه ونظمه بل تخطى ذاك بحدود وأبعاد ، فبين أثر هذا البيـــان

القرآنى فى النفوس وفى القلوب • فقال[1] : « قلت فى اعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم ، وذلك : صنيعه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع غير القرآن منظوما ولا منثورا قرع السمع الا خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة فى حالة ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه اليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو الرسول — صلى الله عليه وسلم — من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا الى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم ايمانا •

وهاهو ذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — خرج يريد قتل[2] رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسار الى دار أخته فاطمة بنت الخطاب ، وزوجها سعيد بن زيد — أحد العشرة المبشرين بالجنة — فوجدها تقرأ سورة « طه » فلما وقع القرآن فى سمعه ، ووصل الى قلبه آمن وصدق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما يقرر كتاب « دلائل النبوة » •

وهاهى ذى قصة عتبة بن ربيعة مع القرآن وأثره فيه حينما أرسلته قريش الى محمد — صلى الله عليه وسلم — ليتفاوض معه على

---

(١) ص ٢٣ من ثلاث رسائل فى الاعجاز •
(٢) لم يثبت من طريق صحيح أنه كان يريد قتل رسول الله وانما المعروف أو المؤكد أنه كان يريد قتل أخته وزوجها حينما عير باسلامهما •

أمور عينوها له ، فقرأ عليه المصطفى — صلى الله عليه وسلم — آيات من سورة « السجدة » فتأثر أيما تأثر وهرع الى قومه يقدم رجلا ويؤخر أخرى حتى قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ، ولا بالكهانة يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : أسحرك يا أبا الوليد بلسانه ؟

قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدالكم .

مثال آخر : ويتضح من صنيع القرآن وأثره فى جبير بن مطعم حينما سمع الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقرأ قوله تعالى فى صلا ةالمغرب من سورة « الطور » : « **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون** » . قال جبير : كاد قلبى يطير ... وأسلم على يديه .

وان قصة فتح المدينة كما يذكرها كتاب (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) [1] لعبرة أى عبرة ودليل أيما دليل على صدق ما يقال . فالرسول — صلى الله عليه وسلم — لما قرأ القرآن فى الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا الى المدينة فاظهروا

---

(١) جـ ١ : ٨٠ .

الدين ، ولم يبق بالمدينة بيت من بيوتها الا ودخله القرآن ، حتى روى — فى هذا الكتاب وغيره — أن الأمصار فتحت بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن • ويستطرد الخطابى فى بيان التأثير النفسى الآتى من جراء الاعجاز البيانى للقرآن الكريم فبين أنه لم يقف تأثيره على الناس فحسب بل تعداهم الى الجن • فقد روى عن ابن عباس أنه قال :

« انطلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجفت الشياطين ، فقالوا : ما بالكم؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت الينا الشهب • قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء الا الذى حدث فاضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنخلة وهو عامد سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه الفجر فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، وهناك رجعوا الى قومهم « **فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا • يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** » •

ومصداق ما وصفنا من أمر القرآن يتضح من قوله تعالى : « **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله** » ومن قوله : « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله** » ومن قوله : « **واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** » •

وهكذا وجدنا الخطابى يضع يده على ناحية عظمى من اعجاز القرآن اذ يوضح لنا كيف نقرت كلمات الله حبات القلوب ، وهزت جوانب الوجدان ، وامتزجت بأدق الأحاسيس واختلطت بأرق المشاعر، حتى جعلت من السامع عقلا يذعن ، وقلبا يخشع ، وخواطر تطمئن

عمود البلاغة لدى الخطابى :

ويرى الخطابى أن عمود البلاغة فى الكلام هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره جاء منه اما تبـدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة . ذلك أن فى الكلام ألفاظا متقاربة فى المعانى يحسبه أكثر الناس أنها متساوية فى افادة بيان مراد الخطابى ، والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيه ، وان كانا قد يشتركان فى بعضها ، وسنكتفى بسياق بعض مما وقع فيه التشابه وفرق بينه الخطابى .

فأنت تقول : عرفت الشيء وعلمته ، اذا أردت الاثبات الذى يرتفع معه الجهل ، الا أن قولك : عرفت يقتضى مفعولا واحدا كقولك عرفت زيدا ، وعلمت يقتضى مفعولين كقولك : علمت محمدا عاقلا ، ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصا فى توحيد الله تعالى ، واثبات ذاته فتقول : عرفت الله ولا تقول : علمت الله ، الا اذا أضيفت اليه صفة من الصفات فتقول : علمت الله عدلا ، وعلمته قادرا » وقد ذكـر الاسنوى فى شرح المنهاج فرقا آخر ... وحاصله أن المعرفة تستدعى سبق الجهل بخلاف العلم ، ولهذا يوصف الله بالعلم ، ولا يوصف بالمعرفة لأن وصفه بها يقتضى أنه لم يكن عارفا ثم عرف ، ولا كذلك وصفه بالعلم ، فانه لا يقتضى سبق بالجهل ، وقد يستدل بحديث

اختصام الملأ الأعلى ، فقد جاء فيه من قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رأيت ربى فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد • قلت لبيك ربى وسعديك • قال : أتدرى فيما يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردهما فى نحرى فتجلى لى كل شىء، وعرفت » وحقيقة البيان فى أن هذا العلم ضده الجهل ، والمعرفة ضدها النكرة •

وكذلك كلمتا الحمد والشكر ، فقد يشتركان أيضا : الحمد لله على نعمه أى الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر عن الحمد فى أشـياء فيكون الحمد ابتداء بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر الا على الجزاء ، تقول حمدت هذا اذا أثنيت عليه فى أخلاقه ونواهيه ، وان لم يكن سبق اليك منه معروف ، وشكرت زيدا اذا أردت جزاءه على معروف ابتدأه اليك ثم قد يكون الشكر قولا كالحمد ويكون فعلا كقوله جل وعز : **« اعملوا آل داود شكرا »** •

واذا أردت أن تبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه ولا يكون الشكر الا على محبوب [(١)] وحاصل الفرق بين الحمد والشكر أن بينهما عموما وخصوصا وجهيا ، وبيان ذلك أن الحمد لا يكون الا قولا باللسان ، فهو من هذه الجهة خاص لكنه عام من جهة أنه لا يتعين أن يكون جزاء على معروف بل يصح أن يكون ابتداء •

والشكر بالعكس أى أنه عام من جهة أنه يكون قولا باللسان وعملا بالجوارح ، وخاص من جهة أنه لا يكون الا جزاء على معروف،

---

(١) ص ٣٤ من بيان اعجاز القرآن •

ولهذا كان ضد الكفران المقتضى كفران النعمة وجحودها • قال تعالى « **واشكروا لى ولا تكفرون** » •• بخلاف الذم الذى هو ضد الحمد فانه لا يقتضى ذلك • ومن أجل هذا التشابه تهيب كثير من الصحابة والتابعين تفسير القرآن حذرا وتحفظا ، ومن هؤلاء : أبو بكر ، وعمر — رضى الله عنهما — وجندب بن عبد الله وسعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير والقاسم بن محمد ، ونافع مولى ابن عمر ، وعبيدة السلمانى مع علمهم باللغة والدين • وهاهو ذا الأصمعى — مع امامته فى اللغة — لا يفسر شيئا من غريب القرآن •

وقد حكى عنه أنه سئل عن قول الله تعالى : « **قد شغفها حبا** » فسكت وقال : هذا فى القرآن ، ثم ذكر قولا لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبعوها وهى لكم شغاف ، ولم يزد على ذلك [1] • والشغاف بفتح الغين غلاف القلب ، وهى جلدة دونه كالحجاب وشغفه الحب : بلغ شغافه ، وقرأ بعضهم وهو ضعيف •• قد شعفها بالعين المهملة •

هذا وقد رد الخطابى على من يعيب القرآن لقلة غريبه فيه ، فكان بين الحين والحين يسوق أمثلة وشواهد لما قالوه ، ثم يتبعها بالتفنيد والبرهان مديرا رحى بحثه حول نظريته فى عمود البلاغة واعجاز القرآن •

قال الخطابى : « وأما ما ذكره من قلة الغريب فى ألفاظ القرآن بالاضافة الى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه فى حدود البلاغة •• وانما المختار من النمط الأقصد الذى جاء به القرآن وهو الذى جمع البلاغة والفخامة الى العذوبة والسهولة » •

---

(١) بيان اعجاز القرآن ٤٣

وها نحن أولا ، نحب أن نبسط القول فى بعض هذه النقاط ثم نعقب على كل منها بما قاله الخطابى فيها ، فمنهم من عاب بعض ألفاظ من القرآن مثل قوله تعالى فى سورة يوسف : « **ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير** » قالوا : وما اليسر والعسر من الكيل والأكيال ؟ ••• انك لا تسمع فصيحا يقول : كلت يريد يسيرا الا أنه يعنى يسير العدد والكمية • هكذا يهرفون •

فيأتى الخطابى ويدحض ما قالوه مبينا خفاء وجه الحق عنهم لقصورهم وعدم ادراكهم ، واستمع اليه يقول : « ان معنى الكيل مقرون بذكر البعير المكيل والمصادر توضع موضع الأسماء كقولهم : هذا درهم ضرب الأمير وهذا ثوب نسج اليمن ، أى مضروب الأمير ونسيج اليمن • والمعنى أننا نزداد من الميرة المكيلة اذا صحبنا أخونا حمل بعير ، فانه كان لكل رأس منهم حمل واحـــد لا يزيد على ذلك •• و « ذلك كيل يسير » • أى يتيسر لنا اذا تسببنا فى ذلك باستصحاب أخينا ، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور كالعسير فيما يتعذر منه ولذلك قيل يسر الرجل اذا نتجت مواشيه ، وكثرت أولادها ، ومنه قول أبى اسيدة الوبيرى :

ان لنـــا شـــيخين لا ينفعاننـــا
غنيين لا يجـــدى علينا غناهمـــا

هما ســـيدانا يزعمـــان واننا
يســـودا ننا ان يسرت غنماهمـــا

وقد يراد بقوله « كيل يسير » أى سريع لا حبس ، وذلك أن القوم كانوا يحبسون على الأبواب وكان يوسف يقدمهم على غيرهم • وقد قيل ان معنى الكيل هنا السعر يقال : كيف الكيل عندكم ؟ أى كيف السعر ؟ وقد أنشد عمر بن عمرو الشيبانى عن أبيه :

ان تك فى كيـــل اليمـــامة عسرة

فمـــا كيـــل ميـــا فارقين بأعسر

وقال بعضهم فى قوله تعالى« **وانطلق الملأ منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتكم** » أن المشى فيـــه ليس بأبلغ الكلام • ولو قيل بدل ذلك امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن •

وهم فى هذا كما ترى يريدون استبدال كلمة بأخرى أى أن العيب ناشىء من قبل الألفاظ كسابقه •

وهنا نرى الخطابى يشمر عن ســـاعده ، فيرفض دعواهم من أساسها فيقول :

« ان المشى فى هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه انما قصد به الاستمرار على العادة الخارجة،ولزوم السجية المعهودة فى غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به فى قوله « **واصبروا على آلهتكم** » والمعنى كأنهم قالوا : امشوا على هيئتكم ، والى مهوى أموركم ولا تعرجوا على قوله ولا تبالوا به •

وفى قوله امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس فى قوله : امشوا والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه ، وقيل : بل المشى ها هنا معناه التوفر فى العدد والاجتماع للنصرة دون المشى الذى هو نقل الاقدام من قول العرب : مشى الرجل اذا كثر ولده وأنشدوا :

*** والشاة لا تمشى على الهملع ***

أى لايكثر نتاجها ، ــ والهملع : الذئب ــ وكذلك اعترضوا على اللفظ فى قوله تعالى : « **هلك عنى سلطانية** » لأنه انما يستعمل لفظ الهلاك فى الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فأما

الأمور التى هى معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكاد يستعملون فيها ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقيما غير مستحسن • ولم يترك الخطابى هـذا وأمثاله دون القطع برأى فاصل فيه معللا لحسنه ومدللا على بلاغته • تلك الاعتراضات كانت موجهة لألفاظ القرآن ، وهناك اعتراضات أخرى وجهت لتأليفه وقد عدها المعترضون من سوء التأليف ومن ضعف نسق الكلام • وذلك كقوله تعالى فى سورة الأنفال « **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون** » عقب قوله « **أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** » وقوله تعالى فى سورة الحجر « **وقل انى أنا النذير المبين • كما أنزلنا على المقتسمين • الذين جعلوا القرآن عضين** » •

وقوله تعالى فى سورة البقرة « **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم** » ويمثـل اعتراضهم الذى دفع اليه قصر النظر استعمال التشبيه فى كلمة « كما » بدون تقديم ما يشبه به فى كل الآيات السابقة •

وقد رد الخطابى على هذا كله بما لا يدع مجالا للشك ممهدا له بذكر آراء المفسرين وأهل التأويل • ففى قوله سبحانه : « **كما أخرجك ربك** » الآية •• قال بعضهم : ان الله سبحانه أمر رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يمضى لأمره فى الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره فى خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون • وذلك أنهم فى يوم بدر اختلفوا فى الأنفال وحاجوا النبى ــ صلى الله عليـه وسلم ــ وجادلوه فكره كثير منهم ما كان من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأنزل الله تعالى الآية وأنفذ أمره فيهم وأمرهم أن يتقوا الله وأن يطيعوه ولا يعترضوا على ما يفعله من شىء فيما بعد ان كانوا مؤمنين • ووصف المؤمنين ثم قال : « **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا**

من المؤمنين لكارهون » يريد أن كراهتهم لما فعلته فى الغنائم ككرهاتهم فى الخروج معك ، وقد جحدوا عاقبته ، فليصبروا فى هذا وليسلموا عاقبته كذلك ، وقيل معناه : أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق كقوله : **« فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون »** وقيل ان « كما » صفة لفعل مضمر وأن تأويله : افعل فى الغنائم كما فعلت فى الخروج الى بدر وان كره القوم ذلك .
ونظن بل نعتقد أن بايراد هذه الآراء للمفسرين وتخريجها على يد الخطابى ذلك التخريج الحسن قد وضح الأمر فى المسألة وبان وجه الصواب . وأما قوله : **« كما أنزلنا على المقتسمين »** فان فيه محذوفا يدل ظاهر الكلام عليه ، كأنه قال : أنا النذير المبين ، عقوبة أو عذابا كما أنزلنا أى مثل ما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين .
من هذا كله نرى أن الخطابى لم يترك المعترضين الناقدين من غير أن يضع الحق فى نصابه ، ومن أن يصيب شواكل المفصل ويطبق مفاصل السداد . ولا غرو فهو الذى نصب نفسه مدافعا عن ألفاظ القرآن ومعانيه ونظمه ،التى هى فى نظره وفى الواقع كذلك أسس الاعجاز البيانى لكتاب الله القويم حقا : **« انه لقول فصل . وما هو بالهزل » . وهكذا** نحس أن الصورة التى عنينا بالتقاطها لهذا الرجل أوشكت فى نظرنا على الأقل — أن تتحدد سماتها وأن تتبين قسماتها وحسب الرجل أنه — وهو بصدد اثبات الاعجاز البيانى للقرآن الكريم — لم يكتف بالحديث عن ألفاظه وخلوها من الغرابة والتعقيد ومخالفة القياس بل وعن معانيه التى فاقت كل كلام ، ثم عن نظمه الذى خلا من كل ما يشوبه من نقص أو افتعال ، فأضاف الى ذلك كله رده على المعارضين والناقدين ، وقد رأينا من ذلك نتفا يسيرة بينت لنا كيف كان الرجل واعيا لما يقول فاهما لما يحدث وعمن يحدث .

ولولا ضيق المكان لذكرنا بقية ما ذكره الخطابى من أمر معارضة مسيلمة الكذاب للقرآن الكريم ورده عليه ولبينا كما بين : أى حكمة فى كلام مسيلمة حتى يتوهم أن فيه معارضة للقرآن أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟ لقد صدق الله العظيم حين قال : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » .

— ٨ —

مازلنا فى القرن الرابع ، وأن كنا قد انتقلنا الى آخره فوجدنا أن أفكاره التى سيطرت عليه من أوله الى منتهاه ظلت سائدة هى هى لم تتبلور أو تتحول ، اللهم الا فى القليل النادر عندما يتخصص عالم فى دراسة فكرة الاعجاز دراسة خاصة ، أو يتعرض لها أديب بليغ متخذا من دراسته الأدبية والبلاغية وسيلة غايتها الوصول الى اعجاز القرآن .

ومن بين هؤلاء : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ امام وأديب لغوى طبقت شهرته الآفاق ، نصب نفسه لدراسة البلاغة والبيان ... وهو — وان لم يفرد كتابا خاصا لدراسة اعجاز القرآن — الا أنه يرى فى مقدمة كتاب « الصناعتين » أن القرآن بليغ واعجازه ببيانه ، وأوجب دراسة البلاغةمادامت هى الطريقالذى يوصل الى معرفة السرفىاعجاز القرآن، وذلك حيث يقول [1] : « اعلم علمك الله الخير أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه — علم البــلاغة ومعرفة الفصاحة الذى يعرف به اعجاز كتاب الله ... وقد علمنا أن الانسان اذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب وما به من

---

(١) مقدمة الصناعتين .

الايجاز البديع والاختصار اللطيف وبما عظمه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه ، وعذوبتها وسلاستها الى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها » .

والعسكرى فى هذا النص يرى أن بلاغة القرآن انما هى فى النظم وحسن التأليف والتركيب مع سهولة الألفاظ وجزالتها وعذوبة المعانى وسلاستها . ويتقـــدم خطوة فى بحثه بما يجعله متفقا مع الخطابى ، ومتلاقيا معه ، وذلك حين لا ينسى الأثر النفسى له ، واحداثه تلك الحلاوة والطلاوة للقلوب مع الاشتمال على الايجاز البديع والاختصار اللطيف . وقد دلل على ما ذهب اليه وذلك بايراده عدة ألوان بلاغية بين فيها مدى توفرها فى القرآن الكريم » [1] .

— ٩ —

فاذا آن لنا بعد هذا أن نطوى الحـــركة الفكرية التى ازدهرت ونمت فى أواخر القرن الرابع ، وأن نفتح صفحة التاريخ عند البشائر الاولى للقرن الخامس ، وهو القرن الذى بدأ ببدئه أثر جديد فى ميدان الترجمة والفلسفة والأدب وغيرها ... أقول اذا آن لنا هذا كله أمكننا أن نؤرخ — فى هذا العصر الذهبى — لداعى الدعاة أبى النصر هبة الله الشيرازى الملقب بالمؤيد فى الدين . هذا الرجل الذى جند نفسه للرد على ابن الراوندى فى زعمه الذى خيل اليه فيه أن عجز العرب حين تحداهم القرآن ليس دليلا على البذة ، وأن الفصاحة اذا لزمت العرب لا تلزم العجم ، هكذا قال ابن الراوندى زورا وبهتانا . ومن هنا قد انبرى له هبة الله الشيرازى ورد عليه ردا مفحما ذكره الاستاذ «كراوس» فى مجلة « الأديب » [2] « ان الكلام ألفاظ مقدرة على معان ملائمة لها ، والكلام

---

(١) الصناعتين ٣١٦ — ٤٣٠ .
(٢) العدد ٢ ، ٣ : ١٩٤٣ م .

كالجسد والمعنى فيه روحه ومعلوم أن الأجساد من حيث كونها أجسادا لا تتفاوت كثيرا فانها وان رجح بعضها على بعض من حيث استقامة النظم ، وحسن الهندام فهو أمر قريب وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس التى هى المعانى ، فان نفسا واحدة ترجح الخلق كلهم من حيث افتقار النفوس اليها والحاجة الى امتيار « الامتداد » منها والقرآن كلام هو بمثابة الجسد ومعناه روحه التى كنى الله عنه بالحكمة ، فلم يذكره فى موضع من الكتاب الا قرنه بالحكمة ، وقد قاربت أيها الخصم « يقصد ابن الراوندى الملحد » الاقرار بكونه معجزا — من حيث لفظه — للعرب الذين هم أهل اللسان ثم أردفته بقولك : فما الحجة على العجم الذين ليسوا من اللسان العربى فى شىء ؟ ! ثم يرد على هـذا الجزء الاخير الذى يقوله ابن الراوندى بأن معناه المكنى عنه بالحكمة ما تقوم به الحجة على كل من تفتق لسانه بالكلام على جميع اللغـات وسائر العبادات ، والحجة فيه أن ما كان ظاهره الذى هو بمنزلة الجسـد لا يتفاوت بعضه عن بعض كثير التفاوت بهذه المثابة من الاعجاز فما يقال فى معناه الذى هو بمنزلة نفس شريفة تفتقر النفوس اليها كلها فأين موقعها من الاعجاز » ؟

ومن هذا النص نرى أن داعى الدعاة يجعل اعجاز القرآن فى بيانه وبلاغته ، وان كان يتحدث عن البلاغة فيجعلها من اللفظ والمعنى على السواء ، وان كانت المعانى عنده تحتل مكانا مرموقا فى صفة الاعجاز ، وكما نرى أن الهدف دينى قصد الرجل من ورائه الى اثبات الاعجاز للعرب وغيرهم،لأنه اذا كان قد أعجز العرب ببلاغته وفصاحته،وأصبح من هذه النقطة حجة على كثرتهم أجمعين ، فهو حجة على غير العرب بما تضمنه من حكم بالغة ، وتشريعات عادلة صالحة لكل زمان ومكان ، أو نقول : اذا كان حجة على العرب ، وهم من هم فى الفصاحة والبيان فانه حجة على غيرهم من الأعاجم اذ لو فرض أن الأعجمى تعلم العربية

ما برع فيها الى الحد الذى بلغ منتهاه العرب الخلص الذين أعجزهم بدورهم كتاب الله المبين •

وان كان من شىء يؤخذ على داعى الدعاة فهو انه لم يتطرق فى بحثه الى الجمال فى الألفاظ والتركيب ، كمـا لم يتطرق الى الفنية فى المعانى وطريقة تأديتها •

وقد يهون من شأن هذا المأخذ أن الرجـل اعتقد اعتقادا جازما ــ كما يتضح من أقواله ــ ان أهل الامصار عربا وعجما يتفق عجزهم وعجز من كانوا فى العصر الاول عن هذه المعجزة السامية التى صدق الله العظيم فى اخباره ، وأنه فوق أن ينال بالمعارضة ، اذ هو فوق طاقة البشرية جمعاء : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » •

ــ ١٠ ــ

وها نحن أولاء شددنا الرحال الى أواخر القرن الرابع ، وأوائل القرن الخامس الهجريين فتبدت لنا معلمة من المعالم الخالدة فى شخص شيخ السنة ولسان الأمة ، الامام الباقلانى •

وان شئت أن تعرف عن هذا الرجل شيئا فلن يبخل علينا وعليك التاريخ • فهو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلانى • أظلته سـماء البصرة ، ونشأته أرضها التى كانت عامرة بأعلام البيان وفحول الاسلام ، وحسبك أن تعلم من هؤلاء فرائد عصرهم ، ووحدان دهرهم : ابن مجاهد الطائى ، وأبا عبد الله محمد بن أحمـد البصرى ، والصالح أبا الحسن الباهلى ، وأبا بكر محمـد بن عبد الله بن صالح الأبهرى ، وأبا أحمد الحسين بن على النيسابورى ــ هؤلاء وغيرهم كان لهم الأثر البارز والمدى البعيد فى ثقافة العصر وذوقه •• وان شئت فقل كان لهم التأثير البالغ فى ثقافة قاضينا على

وجه الخصوص • ولا يعنى هذا أن الرجل كان عالة على علم هؤلاء ، أو ما تلقاه عنهم من ثقافة فحسب •• لا •• انه كان منذ صغره نجيبا نابغا ضرب به المثل فى النبوغ ، ويكفى أن يشهد له الصاحب بن عباد فيقول : « ان الباقلانى بحر مغرق » وحسبه أن يقول عنه الحافظ بن عساكر : « كان القاضى أبو بكر — رضى الله عنه — فارس هذا العلم مباركا على هذه الأمة ، وكان يلقب بشيخ السنة ولسان الأمة ، وكان فاضلا متورعا ممن لم تحفظ له زلة قط ، ولا انتسبت اليه نقيصة ، وكان حصنا من حصون المسلمين كما كان أحسن أهل زمانه خاطرا ، وأجودهم لسانا وأوضحهم بيانا ، وأصحهم عبارة ، وقد كان محط رحال طلاب العلم ورواده ، اليه يغدون ، وعلى بابه يزدحمون ، وقد كان له بجامع المنصور ببغـــداد حلقة عظيمة يجلس فيها مجلسا عاما يحضره علماء المذاهب ، ورجال الدولة ، ودعاة النحل المختلفة ، فيسمعون من معارفه ، ولم يقف أمره عند ذلك بل كان يؤلف كل يوم خمسة وثلاثين ورقة » •• هذا الى أن الرجل كان مؤمنا متعبدا وزاهدا ورعا ، ومما يدل على نقائه وتقاه ما تناقلته الأئمة فيه فى زمانه ، وبعد زمانه حتى سجل له الحافظ ابن عساكر أنه « كان يضمر من الورع والديانة والزهد والصيانة أضعاف ما كان يظهره ، وقيل له فى ذلك فقال : انما أظهر ما أظهره غيظا للمخالفين لئلا يستحقروا علماء الحق » ••

وقد كان له مذهبان : أحدهما فقهى وهو المـــالكى •• وثانيهما كلامى أشعرى ، ولشدة تمسكه بمذهب الأشـــعرى ونصرته له تحير الناس فخلطوا بينهما ، ونجم عن هذا الخلط ما قيل من أن أبا الحسن الأشعرى مالكى المذهب •• ولم يقف أمر الباقلانى على سيرته وعلو همته وتدينه وورعه ، بل وكثرة تآليفه بقدر ما بذ به أقرانه ، وضرب بسهم وافر فى العبقرية والذكاء •

ذكاء خارق وفطنة نادرة ، وشرف عواطف ورقة شعور ولطف احساس ، وسعة خيال ، وبيان رائق صاف شف عن جوهر نفسه شفوف الغدير الساكن عن لآلئه وجواهره .

لمحات ذكية وشمائل مرضية ضمتها جميعا نفس أبية لا تعرف الخنوع ولا الخضوع ..

لقد أرسل سنة ٣٧١ هـ سفيرا الى ملك الروم وكان من مراسيم المثول بين يدى هذا الملك أن يطأطىء الماثل رأسه ، ويحنى عنقه ويقبل الأرض أمامه .. ولكن ما سمعه ملك الروم عن الباقلانى وأنفته وعزته جعله يعتقد أنه لن يفعل أصول هاتيك المراسيم ، فأمر بوضع سريره أمام باب منخفض لا يمكن الدخول منه الا بعد انحناء ..

وفطن الباقلانى للخدعة المبيتة فبدلا من أن يدخل بوجهه دخل بظهره حتى لا ينحنى للملك ، وبذا فوت عليه الفرصة التى كان يرجوها ، والمكيدة التى كان قد أحكمها .. فلله در الباقلانى من رجل عزيز .. أدخلوه مرة ـ وهو فى عاصمة بلاد الروم على بعض المطارنة ، فقال الباقلانى لكبيرهم ـ على سبيل التحية ـ كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فغضب المطران الرومى ، وقال له : عيب على من سماك فى كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ، ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد : فأجاب القاضى أبو بكر : رأيناكم لا تنزهون الله ـ سبحانه ـ عن الأهل والأولاد ، فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه ؟ ومرة أخرى أراد كبير الروم أن يحط من قيمة الباقلانى ودينه فقال له :

« أخبرنى عن قصة عائشة زوجة نبيكم ، وما قيل فيها .. فأجابه : هما اثنتان قيل فيهما ما قيل .. زوجة نبينا ، ومريم أم المسيح

•• فأما زوجة نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وقد برأهما الله مما رمينا به •• فأفحم الرومى ولم يحر جوابا • وظل الباقلانى على هذا التدين وذلك الورع ، وتلك الكرامة الى أن توفى فى نهاية يوم السبت لست بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ وخرج القوم عن بكرة أبيهم يودعون شيخهم الراحل الذى ظل حياته ينفث فيهم من علمه ويسدى لهم من آدابه ، ويجلو لهم من عرفانه صفحات طيبة طاهرة من كتاب الله المبين ، وذكره الحكيم • ودفن جثمانه يوم الاحد لخمس بقين من ذى القعدة بعد أن صلى عليه ابنه الحسن ، ويقال انه دفن أولا فى داره بنهر طابق ، ثم نقلت رفاته بعد ذلك الى مقبرة باب حرب حيث اطمأنت روحه هناك قرب قبر الامام أحمد بن حنبل حيث تنزل عليهما رحمات الله الغوادى الرائحات •• وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :

أنظر الى جبل تمشى الرجال به
وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف

وانظر الى صارم الاسلام منغمدا
وانظر الى درة الاسلام فى الصدف

أى والله فلقد كان صارما ، وكان درة فى آن واحد ، قد ارتضع ثدى المجد ، وافترش حجر الفضل فغدا بطينا من العقل ، خميصا من الجهل •• فاستحق بهذا كله أن تتمثل حياله بقول القائل :

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

ولماذا نذهب بعيدا فى تقدير الرجل وعرفان مكانته ، وهذا هو أبو الفضل التميمى يأمر مناديا يصيح يوم رحيله الى دار الجزاء بقوله : « هذا ناصر السنة والدين ، هذا امام المسلمين ، هذا الذى

كان يذب عن الشريعة ألسنة المخالفين ، هذا الذى صنف سبعين ألف ورقة ردا على الملحدين » • وبعد •• فكفانا تلك اللمحة الطارئة •• والالمـــاعة الخاطفة التى لاحظناها على الباقلانى حين عشنا معه الى مكتبنا لحظات ما أسعدنا بها ، بل ما أسعدنا به فيها •

وآن لنا أن ننتقل الى أثره الخالد : الى كتابه « اعجاز القرآن » لنرى موقفه من اعجاز القرآن البيانى ، وهو قطب الرحى فى بحثنا فلنتقـــدم •

ابتدأ الباقلانى كتابه هذا بفصل بين فيه أن نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — قد بنيت على معجزة القرآن ، وان كان ثمة معجزات أخرى تروى بالتواتر أو عن طريق الجمع الصحيح الا أنهـــا خاصة ببعض الأحوال وبعض الأوقات • وأما دلالة القرآن فعن معجـــزة عمت الثقلين ، ودارت مع الملوين ، وما دام العرب الأوائل — أساطين الفصاحة وفرسان البلاغة — قد عجزوا عن معارضته والاتيان بمثله ، فان عجز أبناء زماننا أكثر وبجمعهم أحرى وأجدر • ومن هنا فان اعجاز القـــرآن قاطع بلزوم حجته منـــذ نزلت آياته الأولى حتى يرث الله الأرض ومن عليها •

ثم أخذ البـــاقلانى نفسه بالتـــدليل بآيات من القرآن تثبت حجيته ، وأنه معجزة النبى الكريم — صلى الله عليه وسلم — وذلك مثل قوله تعالى : « **ألر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد** » حيث أخبر — سبحانه — أنه أنزل القرآن ليقع الاهتـــداء به ، ولا يكون به ذلك الا وهو حجة ولا يكون حجة ان لم يكن معجزة • وهذه آية أخرى تقول : « **الذين يحملون العـــرش ومن حوله يسبحون بحمـــد ربهم ويؤمنـــون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين**

تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » •• فلولا أنه برهان قاهر لمـــا ذم الكفار على العدول عنه ، ولمـــا حمد المؤمنين على المصـــير اليه • ثم يعقب الباقلانى على هذا كله بفصل آخر دلل فيه على أن القرآن معجز ، مؤكد هذا بالتواتر والنقل الذىيقع عنده العلم الضرورى به والتحـــدى الذى تكرر فى أكثر من آية ، بل واعترف بلغاء العـــرب بعجزهم عن مثل بلاغة القرآن ، انمـــا يدل على عجز غيرهم بطريق أولى ، لأن المتناهى فى الفصاحة والعـــلم بالأساليب التى يقع فيها التفاصح متى سمع القرآن عرف أنه معجزة ، لأنه يعرف من حال نفسه، أنه لا يقدر عليه ، ويعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه ، وبذا يتأكد من أن عجز غيره كعجزه هو لا محالة •

وهكذا يستمـــر الباقلانى فى بحثه فيعرض الموضـــوع فى جدية لا تعرف التهاون ، وفى قوة لا تعرف الفتور ، وهو من آن لآخر لايسوق الحديث جزافا ، كما أنه لا يلقى الكلام على عواهنه وانما كان يدعم ما يقوله بالأدلة المفحمة والبراهين المؤكدة يسود هذا وذاك جو شخصية فريدة عرفت كيف توجه قلمها فى نزاهة العالم المخلص وحرارة المؤمن الغيور •• فهو يعـــدد — بعد ذلك — ثلاثة وجوه من اعجاز القرآن الكريم لا نرى بأسا فى أن نذكرها ولو على سبيل الاجمال :

أحدها : تضمنه الاخبار بالمغيبات وهى مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم اليه •

ثانيها : — أمية الرسول — صلى الله عليـــه وسلم — فمن أين لرجل لا يقرأ ولا يكتب معرفة ما وقع من عظائم الأمور ومهمات السير من حين خلق آدم حتى حينه مع أنه لا يعرف شيئا فى كتب المتقدمين ؟ أنى له بهذا كله ؟ لقد صـــدق الله العظيم : **« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون »** •

ثالثها : وهو الذى يتعلق ببحثنا ويتصل به اتصلالا وثيقا — أن القرآن الكريم بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى حد كبير فوق مستوى البشر أجمعين .

هــذا : وقد تخيل الباقلانى أن العلماء قصروا فى بيــان ذلك والافاضة فيه ، وأنهم وقفوا عند قولهم باعجاز القرآن لبلاغته ونظمه العجيب من غير توضيح لهذا العجب ولا ذاك النظم ولا تلك البلاغة المتناهية . ومن هنا فان العلماء السابقين — فى نظره وحتى عصره — لم يسيروا بدراساتهــم الى حيث كان يريدها الباقلانى ، فهل هــذا صحيح ؟ ... والى أى حد تصل نظرته الى الصواب ؟ اننا لكى نجعل ما لقيصر لقيصر وما لله لله لحرى بنا أن نستحضر بين أيدينا نظرته الى الاعجاز ، وما تخيله فيها من المعانى العشر — كما رآها هو — ولعلها أقسام تتعلق بألفاظ القرآن ومعانيه ونظمه وسبكه وتأليفه وحروفه وجمله الى غير ذلك .. وسوف نسير معه فى هذه المعانى : واحدا واحدا لنرى هل أتى بجديد أم ســبق بما قاله ؟ فان كانت الأولى أكبرناه لأجلها بتنبيهنا عليه ، وان كانت الثانية فالانصاف جدير بحسم الخلاف بيننا وبينه .

ولن يضيرنا شىء ما دام هدفنا هو ايضــاح منهج الباقلانى فى اعجاز القرآن . فنقول وبالله حسن السداد : ان الذى يشتمل عليه بديع نظم القرآن المتضمن لاعجازه — فى نظر الباقلانى — وجوه منها : ما يرجع الى الجملة وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك ان الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظم ترجع الى الكلام المنظوم المقفى أو المنظوم غير المقفى ، ثم الى الكلام

المعدل المسجع أو غير المسجع ، ثم المرسل ارسالا [1] • وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق فلا هو بالشعر ولا هو من السجع •• وهذا الوجه قد سبق اليه الباقلانى ممن تقدمه كالرمانى وابن قتيبة ، ولا فرق بينه وبينهما ، الا من حيث نظرته اليه جملة وأنه معجز بمجموعة •

ومن بين الوجوه التى عددها كذلك : « اشتماله على الفصاحة والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة ، على هذا الطول ، وعلى هذا القدر **« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »** •

ويتضح ذلك من أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما ينصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها من قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام واعذار وانذار ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، فى الوقت الذى ترى فيه اختلاف كلام الخطيب المصقع والشاعر المفلق ، على حسب اختلاف هذه الأمور ••• ولماذا نذهب بعيدا ، أو ليس كلام الناس يتفاوت عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا يصعب معه القول بالموافقة والائتلاف ؟ بخلاف القرآن الذى وجدناه لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، بل هو أربى على النهاية البلاغة وغاية البراعة وبذلك كان كلامه مما لا يقدر عليه البشر ما دام هذا الذى يقدرون عليه يقع فيه التفاوت الكثير عند التكرار ، وعند تباين الوجوه ، بل ويتفاوت كذلك فى الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد عكس القرآن الذى يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب على حد تعبير الباقلانى •

وهذا الوجه قد تحدث ابن قتيبة عنه كثيرا فى مشكل القرآن وقد بيناه سابقا •

---

(١) اعجاز القرآن ص ٣٨ •

كذلك فان من الأدلة التى يوردها البـــاقلانى على اعجـــاز القرآن البيانى : نظمه البديع الذى وقع موقعات فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن والانس معا •• فالجن يعجزون عن الاتيـان بمثله كعجز الانس ، ويقصرون دون بلاغته كقصور الانس • تماما بتمام ، وقد صدق الله العظيم فى قوله سـبحانه : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » •

ويكاد يتضح هذا من قوله تعالى : « **واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لمـا بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم • يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** »(1) الى آخر ما حكى عنهم فى هذا المجال •• وهذا أيضا قد سبق اليه بمن تتقدمه من علماء أفذاذ ••

وأيضـا فان من الأدلة على اعجاز القرآن البيـانى كما يقرره الباقلانى : أن وجوه الكلام التى تنقسم الى البسط والاقتصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، وغير ذلك من الطرق الى توجد فى كلامهم ، انما توجد فى القرآن الكريم ، فاذا كان كل ذلك حدود كلامهم المعتاد بينهم فى الفصاحة والبلاغة والابداع ، فان طريق الاعجاز ــ والحالة هذه ــ بينة واضحة لا تحتاج الى دليل أو برهان •

كما أن هنـاك من الأدلة : المعانى فى القرآن الكريم : تلك التى تتضمن ــ فى أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات فى أصـل الدين والرد على الملحدين ــ تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها فى اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر أجمعين • وشتان ما بين تخير

(1) سورة الاحقاب ٢٩ ــ ٣١ •

الألفـــاظ وانتقائها لمعـــان مألوفة متداولة واختيارها لمعـــان مبتكرة ومستحدثة ، لأن براعة اللفظ فى المعنى البارع انما هو ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البـــارع فى المعنى المتكرر المتداول . على أنه اذا وجدت الألفاظ وفق المعنى ، والمعانى وفقها فانه فى هذه الحال لا يفضل أحدهما على الآخر ، لأن البراعة آنئذ أظهر وأكمل ، والفصاحة أتم وأجمل . وأيضا فان من الوجوه المعجزة فى القرآن الكريم ، أن اللفظة من ألفـــاظه اذا اقتبست بدقة وعناية ووضعت فى كلام آخـــر كانت كالدرة التى تتلألأ فى سلك منخرز أو قل كاليا قوتة فىواسطة العقد[1] . هذا وقد جعل الباقلانى من وجوه الاعجاز أيضا الحروف التى تتألف منها كلمات القرآن وفواتحه المعربة والمعجمة تسعا وعشرين حرفا ، وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة .

والذى يلفت النظر فى هذه المسألة بالذات أن جملة ما ذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم انما هى نصف الجملة تماما وعدده أربعة عشر حرفا ، وربما كان هذا ليدل المذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بها كلامهم . ولأن الباقلانى كان على صلة وثيقة بثقافة عصره ، بل وما قبل عصره نجده يطبع دراسته فى هذه النقطة بالذات بطابع صوتى بحت ، وذلك حين يقســـم تلك الحروف الى مهموسة ومجهورة ، وجعل المهموسة عشرة هى : الحاء والهاء والخاء والكاف والسين والثاء والفاء والتاء والصاد والسين .. أما المجهورة فهى عنده ماسوى ذلك .. ثم نراه يقسمهـــا الى حروف حلق وغيرها ، والى حروف شـــديدة ورخوة ، وما شاكل هذا ، وبعد ذلك يتبع كل هاتيك التقسيمات التى يشترك فى أوصافها القرآن مع غيره من كلام العرب ليرتب على هذا سر الاعجاز استمع اليه يقول : « وانما كان ذلك من الله تعالى ليبين أنه انما أتاهم

---

(١) ص ٤٦ من اعجاز القرآن وما بعدها .

بكلام منظوم بما يتعـــارفون من الحـــروف التى تتردد على ألسنتهم ويعرفونهـــا » •

ننتقل مع الباقلانى ، أو قل ان شئت ننتقل الى موضع آخر من كتابه « اعجاز القرآن » حيث نرى وجها غير ماذكر لهذا الاعجاز : هذا الوجه انما نجده فى سهولة ألفاظه ووضوح معـــانيه ، فهو خارج عن المستكره والوحشى من الألفاظ ، وبعيد عن المستغلق المتكلف من المعانى ، وانما كان ذلك ليكون قريبا الى الأفهام يبادر معناه لفظه الى القلب ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس •• ومع هـــذا نجده « ممتنع المطلب عسير التنـــاول ، غير مطمع مع قربه فى نفسه ، ولا موهم مع دنوه فى موقع يقدر عليه أو يظفر به » • وبعد أن عرضنا وجوه الاعجاز البيـــانى عرضا أمينا كما رآها الباقلانى نحب أن نسجل هنا ظاهرة جديرة بالملاحظة ، وانما كانت هذه الظاهرة خليقة بالملاحظة لأنها ستعين لنا مكان الباقلانى ومقامه فى صف العلماء الذين ارتادوا هذا المجال •

الحقيقية أن الوجوه التى أتى بهـــا عموما ما لم تكن جديرة فى موضعها أو فكرتها ، فكثير منها قاله علماء سابقون شرعوا أقلامهم ، ووجهوا جهودهم نحو هذا الميـــدان فجاءت كتاباتهم متسمة بالجدية والعمق علىنحو ما أسلفنا • فاذا جاء الباقلانىبعد هؤلاء وعرض السابق عرضا جديدا وصوره تصويرا جميلا ، فلن يكون آتيا بجديد فى الوقت الذى يحسب له براعة العرض وجمال التصوير ، وتلك هى الميزة الوحيدة والعظيمة فى الآن نفسه لكتابه « اعجاز القرآن » ••وماذا تنتظر أن تعمل تلك العبقرية الفذة التى كانت بمثابة معلمة من المعالم الخالدة ، فغدت محلقة لا تعرف الحدود ولا القيود ترتشف العـــلم ، وتتذوق الأدب وبهما — على حقيقتهما — يتضح سر الاعجاز •• فلا عجب أن كان الباقلانى جميلا فى تصويره •• بديعا فىعرضه ، عميقا فى فكره حين تعرض لايضاح اعجاز القرآن من ناحيته البيانية فها هو ذا لا يقف

بأمر الاعجاز البيانى عند حد ما سلف ، بل تجاوز ذلك الى اثباته ودعمه ومن هنا يأتى نفيه للشعر والسجع عن القرآن الكريم[1] ، ويستطرد بعد هذا كله فيعقد فصلا عن البـــديع فى الكلام بعامة ، وفى القرآن بخاصة[2] • وتخيل الباقلانى أن سائلا يسأله : هل يمكن أن يعرف اعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟ فيفيض فى الاجابة ويجيد فى آن ، فهو يتكلم فى هذا الفصل عن أشهر الألوان البديعية التى عرفت لدى علماء البـــلاغة فى عصره وقبل عصره ، ويستشهد لها بشواهد شعرية ونثرية ، ثم يعقب على هذا فيبين مدى وجود هذا اللون البديعى فى القرآن مقارنا بين الصورة اللفظية والفكرة التى يتضمنها الأسلوب فى الكلام شعره ونثره ، وفى القرآن الكريم • وبعد ذلك يختم الفصل بالاجابة عن السؤال الذى تخيله من أنه لا ســـبيل الى معرفة اعجاز القرآن من البديع الذى أدعوه فى الشـــعر ووصفوا فيه ، وذلك لأن البديع العربى ليس فيه ما يخرق العـــادة ، أو يخرج على الأعراف اذ هو يستدرك بالتعلم والتدرب به والتصنع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والخدمة فى البلاغة وله طريق يسلك ووجه يقصد ، وسلم يرتقى فيه اليه •• فهو اذن لا يعد ذلك وجها مستقلا لوجوه الاعجاز •• لـــاذا ؟ لأنه يمكن التوصـــل الى تعليمه بالتثقيف والتأديب : « •• فرب انسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعرا ، أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعا أو صنعة متصلة لا يسقط من كلامه حرف ، وقد يتأتى له لـــا قد تعوده ••

وهذا طريق لا يتعذر وباب لا يمتنع ، وكل يأخذ فيه مأخذا ، ويقف فيه موقفا على قدر ما معه من المعرفة ، وبحسب ما يمـــده من الطبع » ••

---

(١) ٥٤ من اعجاز القرآن •
(٢) ٦٩ من اعجاز القرآن •

فأما نظم القرآن فليس له مثال يحتذى اليه ولا امام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا كما يتفق للشاعر البيت النـادر والكلمة الشاردة والمعنى الفذ الغريب .

والبديع ــ على هذا كله فى نظره ــ باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة ، وأنه لا ينفك القـرآن عن فن من فنون بلاغتهم ولا وجه من وجوه فصاحاتهم ، واذا أورد هـذا المورد ، ووضـع هذا الوضـع كان جديرا ، وانما لم يطلق القول اطلاقا لأنا نجعـل الاعجـاز متعلقا بهـذه الوجوه الخاصـة ، ووقفا عليها ، ومضافا اليها ، وان صـح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة أخـذت بحظها من الحسن والبهجة حتى وقعت فى الكلام على غيره وجه التكلف المستبشع ، والتعمل المستشنع [1] . والباقلانى فى هذا يخالف أبا عبيدة وابن قتيبة والرمانى ، الذين جعلوا طرق الكلام التى منها الصـور البديعة وجها من وجوه الاعجاز . ونحن اذا انتهينا مما قالوه بالانتصار له ، فانما نختلف مع الباقلانى فى هذا الرأى الأخير .. ذلك لأن عد الصور البديعة من الاعجاز أمر لا ينكره العقل ولا يستكرهه الذوق بحال . اذ أن وجودها دليل على براعة تأدية الفكرة ووضوحها ، بل وتحسين الصورة وتجميلها .. وكون المعاندين يطلب منهم الاتيان بمثله بما فيه من صور بديعية ، مع قدرتهم على نسج كلامهم بمادتها انما هو ركيزة التحدى وأساس الاعجاز .. لأن الصورة البديعية التى فى مقدورهم واستطاعتهم لو قيست وقورنت بمثيلاتها فى القرآن لكان الفرق الشاسع ، والبون الواسع بين كلام عبد وقرآن رب .. وأما أن يقول البـاقلانى أن عدم وجود الصـورة البديعية فى آية لا يجعلها معجزة ، فهذا هو ما نحب أن نجيب عنه فنقول : انك جعلت الاخبار بالغيب وجها من وجوه الاعجاز ، فهل جميع آيات القرآن أخبار عن الغيب ، وما لا أخبار فيه فهو معجزة ؟ انك حينما تكلمت عن الصورة

(١) أنظر اعجاز القرآن ص ٩٧ ، ٩٨ .

البديعية فى كلام الشعراء والخطباء وقارنت بينها وبين ماورد فى القرآن من نظائر لها قد رجحت الصورة القرآنية ، أفليس فى ذلك اعجاز أى اعجـــاز ؟

دعنا من هذا ، ولننتقل الى موضع آخر ، لندع الباقلانى يرد على الباقلانى ، يكفى أنك عقدت فصلا فى كيفية الوقوف على اعجاز القرآن قلت فيه : انه لا يتهيـــأ لمن كان لسانه غير عربى من العجم والترك وغيرهم أن يعرفوا اعجاز القرآن ، الا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك فاذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم تحدوا على أن يأتوا به ، تبينوا أنهم عاجزون عنه ، واذا عجز أهل اللسان فهم عنه أعجز • بل انك رددت على هذا قائلا : حتى من كان عربى اللسان ولم يبلغ من الفصاحة الحد الذى يتنـــاهى الى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة ، فهو كالأعجمى فى أنه لا يمكنه أن يعرف اعجاز القرآن الا بمثل ما يعرفه الأعجمى • أما من قد تناهى فى معرفة اللسان العربى ووقف على طريقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذى ينتهى اليه وسع المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة ، فليس يخفى عليه اعجاز القرآن كما يميز بين جنس الخطب والشعر والرسائل ، وكما يميز بين الشعر الردىء والفصيح ، والبـــديع والنادر ، والبـــارع والغريب ، وبمقـــدار نقص العربى من آلات المعرفة يكون نقص فى ادراك الاعجاز البيانى •• ولا شك أن المقارنة والموازنة التى سيعرفها الباحث ويصل من ورائها الى غايته حين يقارن بين القرآن وغيره ، انما تكون فى الصـــورة والفكرة التى تضمنتها تلك الصورة ومقدار أثرها وأعمالها فى الخيال • والمفاصلة ستكون فى زيادة القـــرآن على غيره من حيث انتقاء ألفاظه وجزالتها ، ووضوح المعانى وعذوبتها • وتلك صور بديعية قد صاغها علماء البلاغة • ووضعوا لها المقاييس والتعريفات التى تكشف عن جمال الكلام الذى اشتمل عليها وبلاغته •

ولا شك أنه عن طريق تلك الموازنة والمقارنة تتجلى حقيقة الاعجاز فى هذه الناحية ، فهل لنا بعد هذا كله أن نقرر رأيه فى ايجاز ؟

نظن ، بل نعتقد ، أن ذلك يكون جماعا للفكرة فى الوقت الذى هو تمام لها وتكميل • فقد قرر الباقلانى أن القرآن الكريم معجز ببلاغته ونظمه ونص على وجوه بلاغته بما نجمله فيما يلى : فى عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، وتناهى بلاغته الى حد أعجز الخلق أجمعين وهذا وجه ينطوى على تفاصيل مردها ومرجعها أمور منها : خروجه عن مألوف العرب فى كلامهم وترتيب خطابهم ، فليس من الشعر ولا من النثر ، ومنها تناسب أجزائه وتشاكلها على طوله وتفننه فى كثير من الأغراض مع البراعة فى الانتقال من معنى الى معنى ، فيجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب مع تفاوت الفصحاء فى ذلك • كما تناول أغراضا مبتكرة وأسبابا مستحدثة من تشريع ووضع أحكام ، واحتجاج ورد على منكر مع سهولة وبعد عن الوحشى المستنكره ، وقرب من الأفهام حتى يسبق معنـــاه لفظه الى القلب ، ويبادر مغزاه عبارته الى النفس مع اشـــتمال على كل ما يكسب الكلام حسنا من بسط واختصـــار وجمع وتفريق واستعارة وتصريح وتحقيق ••

ويمضى البـــاقلانى مع ايمانه بكل ذلك فيرى أن الطرق الكلامية « البديع » ليس من الأسباب التى توصل الى الاعجاز لوجود ذلك فى كلام البشر ، شعرا ونثرا وقد تناولها بالبحث لأنهـــا تعين على ترداد النظر فى القرآن ، وتفهم معانيه ، والاطلاع على غيره من ضروب الكلام المختلفة والمقارنة بينهما حتى يصل الى معرفة أيها أبلغ ، هـــذا وقد وجه جل همته الى هذه المقارنات والموازنات التى عقدها فى كتابه بين القـــرآن وغيره من كلام النبى ــ صلى الله عليه وســـلم ــ وكلام الشعراء والكتاب : الأمر الذى استنفد جزءا كبيرا من الكتاب • والحق يقال : أن الذى أعانه على هذه الدراسة الخصبة ما سبقه من مؤلفات

وقع عليها ونظر فيها ، واستفاد منها ، على أنه لم يشر الى شيء من ذلك اللهم الا كتاب الجاحظ « نظم القرآن » الذى غض من قيمته ، وهون من شأنه ••• وعلى أية حال ، فان الباقلانى اذا كان قد دفعه الى هذا البحث الهادف المثمر حماس عقيدة ، وغيرة مسلم ، فهو لم ينس الناحية الفنية ولا الأدبية ألتى اشتملت الحديث عن جمال القول وسلامة النظم ، وفصاحة الألفاظ ، الى آخر ما ذكرناه ، وبذلك جعل القرآن ولغته من السهل الممتع ، اذ لا تتخلله تراكيب ملتوية ، أو عبارات معقدة ، ومع ذلك لا يمكن مجاراة أسلوبه والاتيـــان بمثله •• حرس الله القرآن ، ونفعنا به ، وبكل ما كتب حوله ••

— ١١ —

بعد أن طوفنا بفكرة الاعجاز البيانى للقرآن الكريم خلال القرون الأربعة الأولى من تاريخ الاسلام العام نحب أن نكمل ما بدأناه فننتقل الى القرن الخامس حيث يتاح لنا أن نميز فيه اتجاهين مختلفين يمثل ابن سنان الخفاجى أحدهما ، ويمثل ثانيهما عبد القاهر الجرجانى •

وما دمنا التزمنا منذ البداية مراعاة الترتيب التـــاريخى لرجال فكرة الاعجاز البيانى فلا مندوحة اذن من أن نبدأ كلامنا هنا بالحديث عن الأول وفق المنهج الذى ارتضيناه •

التقيت بأبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى فألفيته أديبا نابها ، وعالمـــا فاضـــلا بالاضافة الى الشاعرية المجيدة والامارة الطموحة •

وهو من بنى خفاجة الذين كانوا يتولون أعمال حلب ، وقد كان أبوه من أشرافها تلقى العلم على علمـــاء عصره وان بدا تأثره واضحا فى نهجه طريق أبى العلاء المعرى نلمح هذا مما قيل عنه من نزوع نفسه

الى الثورة والسخط والنقمة على أولى الأمر ويقال انه طمع فى ضيعة يتولاها وينفق من ريعها وكان ذلك سببا فى اثارة السخط عليه والغضب منه وتأليب الناس ضده . ولكنه مع هذا بل ورغم هذا كانت تبدو عليه الصراحة فى أعماله وأقواله فلم تلن قناته ، ولم يكل عوده رغم هذا الهبوب العاصف والزوابع الحمقاء . وكم كان يتمنى أن يصلح شيئا من مفاسد عصره ولكن هيهات . تلك المفاسد التى لخصها فى قوله :

استغفر الله لامال ولا شرف ... ولا وفاء و لادين ولا أنف
كأنما نحن فى ظلمات داجية ... فليس ترفع عن أبصارنا السجف

وأجملها فى قوله :

من مبلغ اللوام أن مطامعى ... صارت حديثا بينهم وقصائدا

ولكن القدر لم يمهل الخفاجى طويلا فمات مبكرا وقيل انه مات مسموما ولم يحقق شيئا من مطامعه وكان ذلك سنة ٤٦٦ هـ .

هذا وقد كان الوضوح الذى تخلق به الخفاجى ، والصراحة التى انطبع عليها أثر بالغ فى كتابته وآرائه .

وكتابه « سر الفصاحة » خير دليل على ذلك .

فأسلوبه أدبى علمى ممتاز لا يطغى فيه ذوق الاديب على ذوق العالم كعبد القاهر الجرجانى ولا ذوق العالم على ذوق الاديب كالسكاكى مثلا .

والخفاجى لم يؤلف كتابا فى اعجاز القرآن ولكن لمساته وتلميحاته فى كتابه « سر الفصاحة » تكاد توضح لنا رأيه فى هذا المجال .

لقد أقام كتابه على التفرقة بين الفصاحة والبلاغة فجعل الأولى مقصورة على وصف الألفاظ والثانية عليها مع المعانى ، فلا يقال فى كلمة واحدة ــ لا تدل على معنى يفضل عن مثلها ــ انها بليغة وان قيل فيها فصيحة فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا •

وفى أثناء هذه الدراسة نكاد نتحسس رأيه فى بلاغة القرآن التى يقصد بها : الوصول الى اعجازه فهو يحث الأديب على معرفة الفصاحة حتى يستطيع من وراء ذلك قول الكلام ونقده ، وليستطيع من وراء ذلك فهم النصوص الشرعية ومعرفة لماذا كان القرآن خارقا للعادة •

وعناصر العمل الأدبى فى نظر الخفاجى هى[1] : الموضوع • الصانع • الصورة • الآلة • الغرض •

والموضوع هو الكلام المؤلف من الأصوات • والصانع هو الذى يؤلف الكلام بعضه مع بعض •

والصورة : الفصل للكاتب والبيت للشاعر • والآلة : طبع الناظم والعلوم التى اكتسبها بعد ذلك •

والغرض : بحسب الكلام المؤلف فان كان مدحا كان الغرض به قولا ينبىء عن عظم حال الممدوح ، وان كان هجوا فالضد •

والموضوع أو اللفظ عند ابن سنان الخفاجى فى المرتبة الأولى ، أما التأليف والنظم فليس الا جمع هذه الألفاظ التى تحمل خصائص جمالية يطلق عليها : الفصاحة • فالفصاحة اذن وصف مقصور على الألفاظ • •

ويقسم الكلام الى قسمين : متلائما ومتنافرا وينكر على الرمانى جعله القرآن متلائما فى الطبقة العليا وغيره من كلام العرب فى الطبقة

---

(١) سر الفصاحة ١٠٢ •

الوسطى ، ويرى أنه لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار فى ناحية الفصاحة .

ويرى أن القرآن معجز بوجهين فقط : أحدهما : انه خرق العادة بفصاحته التى وقع التزايد فيها موقعا خرج عن مقدور البشر ، ويرى أن الفصاحة التى هى الوجه الأول متفاوتة فى القرآن الكريم فبعضه أفصح من بعض ، وذلك حيث يقول [1] : « أما زيادة بعض القرآن على بعض فى الفصاحة فالأمر فيه ظاهر لا يخفى على من علق بطرف من هذه الصناعة .. ومازال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها فى البلاغة وحسن التأليف كقوله تعالى : **« وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى .. »** الآية فلو كانوا يذهبون الى تساويه فى الفصاحة لم يكن لاقرارهم هذه المواضع المعينة المخصوصة دونغيرها معنى .. وليت شعرى أى فرق بين أن يخلق الله وجهين : أحدهما أحسن وأصح من الآخر وبين أن يحدث كلامين : أحدهما أبلغ وأفصح من الآخر وهل يفرق بينهما الا مقترح » ؟! .

وثانيهما : أنه معجز بالصرفة ، ولا علاقة لنا بها هنا وان كان هو يعتمده ويفضله متأثرا بالشريف المرتضى الذى يرى الاعجاز بالصرفة .

وما دام الوجه الأول هو الذى يعنينا فى هذا المجال فلنتمم ذلك ؛ فنورد رده على من ينكر كون القرآن بعضه أفصح من بعض وذلك حيث يقول : « هل تستطيع أن تمتنع من القطع على أن القرآن فى لغته أفصح من التوراة والانجيل فى لغتهما لان هذه الكتب لم تكن معجزة

---

(١) المصدر نفسه : ٢٦٣ .

لخرقها للعادة ، وان كان الجميع كلام الله تعالى ، فما المانع من أن تكون آية منه أفصح من آية والجميع كلام الله ؟ » ولا شك أن هذا الرأى لا أساس له من الصحة ولكنا نورده هنا لنبين رأى ابن سنان فى الفكرة بأكملها حتى نستطيع أن نضع هذا كله نصب أعيننا حين نقارن فى مجال فكرتنا بين شخص وشخص أو بتعبير أدق بين رأى وآخر •

وبالجملة نقول : ان هذا أحد الاتجاهين اللذين انجبهما القرن الخامس الهجرى • أما الاتجاه الثانى فهو كما قلنا ممثل فى شخصية عبد القاهر الجرجانى الذى نقف الآن على عتبة هيكله حيث نتأهب للارتياد •

— ١٢ —

عبد القاهر الجرجانى والاعجاز البيانى للقرآن الكريم

نحن الآن أمام شيخ البلاغة العربية وامامها الذى رفع قواعدها وأحكم بناءها : الامام عبد القاهر الجرجانى صاحب الاحساس الفنى الصادق ورجل الذوق الادبى الرفيع الذى شرع قلمه وأخلص جهده فى ميدان البلاغة والبيان فكشف ما غمض ، وأوضح ما استبهم بل وقوم ما انحرف ، فكان طرازا فريدا بين علماء العرب الأقدمين •

ورغم شهرة هذا العالم الجليل فى شتى المواطن ومختلف الميادين الا أن النفوس البشرية فى شوق الى تعرف أمثال هاتيك الشخصيات وتحسس أخبارها وتنخل أصواتها لماذا ؟ لا ندرى سوى أنه سحر العظمة وبريق العبقرية • واشباعا لهذه الرغبة نحب أن نجتزىء بذكر لقطات عن حياة هذا العالم الكبير •

لقد عاش عبد القاهر فى القرن الخامس الهجرى وهو الوقت الذى كانت فيه الحركة العلمية منذ بداية العصر العباسى الأول قد آتت ثمارها وبلغت كامل نضجها ونشاطها ٠

وعلى كثرة المراجع العربية ووفورها فان الدارس لا يكاد يظفر بترجمة وافية مفصلة لتاريخ حياة هذا النابغة العظيم ٠ وكل ما ذكره المؤرخون عنه لا يعدو أن يكون اشارات هنا ولمحات هناك لا تكاد تشفى العلة ، ولا تنقع الغلة ، اذ هى لا تعطينا صورة واضحة المعالم بينة القسمات لامام البلاغة العربية الشهير ٠ ونحن لا نلقى القول على عواهنه ٠ كما لا نقول ذلك جزافا فها هى ذى المراجع العربية لا تحدد العام الذى فيه ولد ٠٠ ولا تتحدث فى قليل أو كثير عن الأسرة التى انحدر منها ، ولا تذكر شيئا عن البيت الذى شب فيه وترعرع ٠

ولعل السبب فى ذلك يعود ــ كما رجح المرحوم الدكتور أحمد بدوى [1] ٠ الى رقة حال أسرته ، وضعف نصيبها من الجاه مما قعد به عن التنقل فى البلاد لارتشاف العلم من يد علمائه ، ونحن ندرك من هذا السبب أيضا الاجابة عن هذا التساؤل : لماذا لم يتلق العلم عن أهله وأربابه ، واكتفى بالقراءة وحده والدرس بمفرده فى كتب النحو والأدب ، على أن فرصة اللقاء بالعلماء لدى عبد القاهر لم تفته نهائيا فان من الثابت تاريخيا أنه أخذ النحو عن محمد بن الحسين الفارسى ابن أخت أبى على الفارسى النحوى المشهور ٠

وقد ذكر ياقوت الحموى فى ترجمة محمد بن الحسين هذا أنه استوطن جرجان وقرأ عليه أهلها ، ومنهم عبد القاهر الجرجانى ، وليس

---

(١) عبد القاهر الجرجانى ص ٥

له أستاذ سواه ، فى حين أنه يذكر فى ترجمة القاضى على بن عبـد العزيز الجرجانى أن عبد القاهر قد قرأ عليه وأغترف من بحره ، وهذا تناقض واضح لا شك فيه • ومن هنا فانى أنكر الرواية الأخيرقلياقوت لأن القاضى الجرجانى توفى سنة ٣٩٢ ه ، على ما ذكره هو نفسه ، وعبد القاهر توفى سنة ٤٧١ ، أو سنة ٤٧٤ ه على خلاف فى ذلك ، فالفارق الزمنى بينهما يبلغ نحو ثمانين عاما ، ولكى نثبت اللقاء والتلمذة المباشرة علينا أن نفترض أن عبد القاهر كان فى سن تبلغ الخامسة عشرة على الأقـل •

ومعنى هذا أنه عمر طويلا وفارق الحياة عن نحو قرن من الزمان، وهذا ما لم يثبته التاريخ أو يشر اليه •

وأيا ما كان الأمر ، فقد زاد عبد القاهر مناهل العلم على صفحات الكتب وامتاح مواردها من بطون الأسفار ، فقرأ وفهم ، ونظر ووعى حتى استوى عوده ، واستبان طريقه ، وقد يدهش المرء اذا هو علم أن الرجل قد قضى على نفسه بعيشة المقلين الذين رغبوا عن الدنيـا وزهدوا فيها الى أبعد الحدود حتى جر ذلك عليه الضيق والعسر ، ولكن تلك الدهشة قد تزول نهائيا اذا علمت أن الرجل كان عزيز النفس معتصما بالشرف والكرامة لا يداهن ولا ينافق ولا يمالىء من أجل طمع فى مغنم أو تأميل فى وفرة مال •

وعلى أية حال فان ما يهمنا من جوانب هذا الرجل هو الناحيـة العلمية والأدبية ليس غير ، فلنكمل تلك العجالة القصيرة بالاشارة اليها والتنويه بها قصدا للغاية ، وتمهيدا للموضوع الذى نحن بصدده •

آثاره العلميـــة :

لسنا هنا نهدف الى حصر لتلك الآثار بمقدار ما نهدف الى التعريف فى ايجاز بأشهرها ، وعلى رأسها نذكر كتابيه القيمين « دلائل الاعجاز » و « أسرار البـــلاغة » اللذين جلى فيهما عبد القاهر حقائق البيـــان بأسلوب يجمع بين القوة والوضوح ، والسهولة والعمق فى براعة بارعة وحجة صادعة ، وتصوير قوى أخاذ ، وهو يكثر من الأمثلة والشواهد على ما يقول معقبا عليها بشرح أدبى جميل ، وتحليل نقدى دقيق ، حتى صار الكتابان آية فى البلاغة وتطبيقا عمليا لمـــا يسوق كاتبهم من قضايا وأحكام ، والذى يهمنا هنـــا بصفة خاصة هو كتاب « دلائل الاعجاز » مضافا اليه « الرسالة الشافية » وهى له أيضا .

وانما يهمنا هذان الكتابان « دلائل الاعجاز » و « الرســـالة الشافية » لأن عبد القاهر قد وجه عنايته فيهما الى دراسة القرآن الكريم من حيث التحدى وفكرة الاعجاز البيانى ، وعجز العرب عنه وما الى ذلك .. الأمر الذى من أجله نكتب فى هذا الميدان .

تناول عبد القاهر فى الرسالة : تفضيل العرب على غيرهم من سائر أصحاب اللغات الأخرى .

فقال : « معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل وأن التفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضا، وأن ذلك علم يخص أهله وأن الأصل والقدوة فيه للعرب ومن عداهم تابع لهم وقاصر عنهم » ..

وقد سوى بين المتأخرين والمتقدمين أو المعاصرين لنزول القرآن فى عجزهم عن الاتيان بمثله وصدق ما قاله خالد بن صفوان فى المعاصرين

للنبى — صلى الله عليه وسلم — « كيف نجاريهم ، وانما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وانما نجرى على ما سبق الينا من أعرافهم » ..

هذا مع بيانه الحكيم فى أن العرب قد عجزوا وسلموا بالاعجاز صاغرين معترفين للقرآن بالفضل والسبق بالاضافة الى أن رسول البشرية قد قرعهم بأنه بشير ونذير وأن دينه ناسخ لكل الشرائع السابقة ، وأنه بذاته الشريفة خاتم النبيين والمرسلين .. وحجته فى ذلك هذا الكتاب العربى المبين الذى يعرفون ألفاظه ويفهمون معانيه ، ولكنهم لا يقدرون على الاتيان بمثله ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ولو جهدوا واجتهدوا واجتمع معهم الجن وجميع مخلوقات الله من الآدميين .

ثم أخذ يقيم الحجة البينة على التحدى وعدم المعارضة مستشهدا بأقوال أعداء القرآن أنفسهم الذين كانوا ينحون باللائمة على رسول البشرية فى مجيئه بهذا القرآن ، وهم هم أنفسهم الذين كانوا يتلاقون فى الليل وتحت جنح الظلام يتلاومون ويتعاتبون فى أن ما جاء به هو الحق ، ولكنهم مكابرون ، فهل تليق بهم المصارحة ؟ مغرورون فهل يعنفهم اللوم ؟ هذا هو المغيرة وعتبة والنضر وغيرهم كثير ، يعترفون بأن ما جاء به هو الحق ولكن أنى لهذا الاعتراف أن يظهر أو يكون له أثره الايجابى ؟

لقد بين عبد القاهر هذا كله فى جلاء ووضوح ، وبين أنهم مع هذا كله لم يعارضوا القرآن .

وما كان لهم أن يفعلوا — لأنهم لو عارضوا لا دعوا ذلك ، ولو ادعوه لذكر لهم ونقل عنهم ، وهذا لم يدونه التاريخ فيما دون . .

ثم ان من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة ، ويطيعـــه اللفظ فى صنف من المعـــانى ويمتنع عليـــه ذلك فى جنس آخر منها •• فمثلا قد يكون الرجل فى المديح أشعر منه فى الغزل أو العكس ، وقد يستطيع فى الأوصاف والتشبهات أن يفنن ويبدع عنه فى غيرها ــ أقول : اذا كانت هذه حال الواحد من الناس فكيف يجمع بين المحاسن كلها الا اله قدير وهو ما كان العرب فى حاجة الى تدبر أكثر كى يعترفوا بأن هذا الذى جاء به محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس قول بشر بل هو من لدن هذا الاله القدير •

لازلنا بفكرة الاعجاز البيانى مع عبد القاهر الجرجانى الذى يثبت تحدى الرسول للعرب بالقرآن ولم يعارضوه ــ وما كان لهم أن يفعلوا ــ لأنهم لو عارضوا لادعوا ذلك ولو ادعوه لذكر لهم ونقل عنهم ، وهذا لم يدونه التاريخ فيما دون ••

ذكر ذلك عبد القاهر على صورة اعتراضات ، وتوهم أن تلك أسئلة ، فبدأ يناقشها من أطرافها ، ويلم بها من جميع نواحيها ، ثم يأتى رده عليها وتعقيبه فى ثناياها مصورا بريشة أديب حاذق ومسلم غيور •

ثم عرض رأى أصحاب الصرفة والقول بأنها سر الاعجاز ، وأخذ يفنده من ألفه الى يائه ، حتى استقر أخيرا فى مواجهتهم يرفض رأيهم فى حرية الباحث ، ونزاهة العالم اللبيب • اسمعه يقول : « ولكن البلاء والداء العياء فى أن علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذى

لا تستطيع أن تفهمه من شئت ومتى شئت ، لأنك لا تملك من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبع اذا قدحته يرى ، وقلب اذا ارتد رأى فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه ولا يهتدى للذى تهديه ، فأنت كالنافخ فى الفحم من غير نار ، وكالملتمس الشم من أخشم •• وأما الذى يحس تأليفه فى نفسه ، ويعلم أنه قد عدم علما قد أوتيه من سواه فأنت منه فى راحة وهو رجل عاقل حماه عقله أن يعدو طوره ، وأن يتكلف ما ليس بأهل له » • وجماع القول فى هذا الموضوع أن عبد القاهر لا يعـــدو أن يكون قد درس فى كتابه هذا « الرسالة الشافية » ثلاثة أشياء لا رابع لها • اثبات التحدى • عدم المعارضة وابطال مذهب الصرفة •

ولكنا نلتقى بعبد القاهر فى مجال آخر يكمل بعضه هنـــاك بعضه هنـــا •

اننا نلتقى به فى كتابه « دلائل الاعجاز » حيث يكمل فيه ما بدأه هناك والأمل كبير فى أن نرى مدى تطور الفكرة على يد هذا العالم فى ذلك الكتاب بالاضافة الى ادراك وجه الاعجاز البيانى عنده •

فبهذا وحده تتبين الملامح وتتحدد السمات ، ونكون قد أرضينا أنفسنا بما ارتضيناه أن يكون فى هذا الميدان الرحب الفسيح •

ان عبد القاهر فى « دلائل الاعجاز » قد تمم فكرته بمنهج آخر بعيد الشبه بالمناهج الموروثة حتى عصره ، فلم يكن مقلدا لمن سبقه من رجال ، ولا جامعا لآرائهم بل كان مفكرا استفاد بما ذكروه ومبتكرا لما لم يعرفوه • وكان هدفه الأول هو صرف الاهتمام الى المعنى ونظمه بعد أن كرس ابن سنان كل جهده فى العناية بناحية الألفاظ ليـــس غير •

هل يجوز أن يكون تعالى تحد أمر نبيه — صلى الله عليه وسلم — بأن يتحدى العرب الى أن يعارضوا بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى جاءهم من قبله التحدى ؟

ولابد فى الجواب من « لا » لأنهم ان قالوا : « يجوز » أبطلوا التحدى من حيث أنه — كما لا يخفى — مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولاتصح المطالبة بالاتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمطالب • ويبطل ذلك دعوى الاعجاز أيضا ، وذلك أنه لا يتصور أن يقال : انه كان عجز حتى يثبت معجوز عنه معلوم ، فلا يجوز فى عقل عاقل أن يقول لخصم له : قد أعجزك أن تفعل مثل فعلى ، وهو لا يشير له الى وصف يعلمه فى فعله لا يراه قد وقع عليه ••

أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر : انى قد أحدثت فى خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها لم تتجه عليه حجة ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه الا من بعد أن يريه الخاتم ، ويشير له الى مازعم أنه أبدع فيه من الصنعة ، لأنه لا يصح وصف الانسان بأنه قد عجز عن شىء حتى يريه ذلك الشىء ويقصد اليه ثم لا يتأتى له وليس يتصور أن يقصد الى شىء لا يعلمه ، وأن تكون منه ارادة لامر لم يعلمه فى جملة ولا تفصيل ، ولابد أن يكون هذا الوصف قد تجدد بالقرآن وأن يكون أمرا لا يوجد فى غيره ، ولم يعرف قبل نزوله • ولكن : هل هذا الشىء الذى مهدنا له بما يتجاوز حدود التمهيد أو قل : هل هذا الوصف الذى تجدد وجد فى الألفاظ وحدها أم فى المعانى وحدها أم فى تركيب الحركات والسكنات أم فى المقاطع والفواصل ؟

ولنستطلع الرد لدى عبد القاهر الجرجانى لنرى كيف يكون الجواب• لقد أجاب عن الجزء الأول بأنه لا يجوز أن يكون فى الكلمة المفردة لأن

تقدير كونه فيها يؤدى الى المحال ، وهو أن تكون الألفاظ المفردة — التى هى أوضاع اللغة — قد حدث فى حذاقة حروفها وأوصاتها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت فى أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها اذا كانت متلوة فى القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن •

وأجاب عن الجزء الثانى : وهو هل الوصف تجدد بالقرآن فى المعانى فقال : ولا يجوز أن تكون فى معانى الكلمة المفردة التى هى لها بوضع اللغة لأنه يؤدى الى أن يكون قد تجدد فى معنى الحمد والرب ، ومعنى العالمين والملك واليوم والدين وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن وهذا محال بل أشنع من المحال •

وأجاب عن الجزء الثالث من الاعتراض بأنه لا يجوز أن يكون هذا الوصف فى تركيب الحركات والسكنات حتى كأنهم تحدوا الى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها فى زنة كلمات القرآن وحتى كان الذى بان به القرآن من الوصف فى سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض لأنه لا يخرج الى ما تعاطاه مسيلمة الكذاب من الحماقة فى قوله:
انا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر •• والطاحنات طحنا •

أما اجابة الجزء الرابع والأخير من الاعتراض الكبير من أن التحدى لا يمكن أن يكون بما فى القرآن من المقاطع والفواصل • فلأنها ليست بأصعب أو أكثر من الوزن والقوافى فى الشعر •

ولا يمكن أن يكون فيما وجد من صورة بديعة جميلةكالاستعارة والتشبيه وغيرهمالأن هذا سيؤدى الى أن الاعجاز فى آى معدودة فى

مواضع مخصوصة من السور [1] . نقول : اذا امتنع اعجاز لدى عبد القاهر بهذا كله فبماذا يكون لديه ياترى ؟

لقد كفانا مؤنة التساؤل وحيرة السؤال فقال : ان الاعجاز اذن ينحصر فى النظم والتأليف .

وقد عالج طريقة نظم الكلام وترتيب معانيه ، وما يعرض لها من تقديم وتأخير وذكر وحذف وفصل ووصل ، وقصر واختصاص وما الى ذلك . وليس النظم فىنظر العالم الكبير : عبد القاهر سوى توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلمة « وانا ان بقينا الدهــر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة مســلكا ينظمها وجامعا يجمع شملها ويؤلفها ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخى معانى النحو وأحكامه فيها — طلبنا ما كل محال دونه — وان كانت فكرة النظم وتفسيرها بهذا المعنى قد سبق عبد القاهر اليها القاضى عبد الجبار فى فكرة الاعجاز ، وكان فضل عبد القاهر فيها حسنالصياغة والترتيب وبراعة العرض[2] .

وقد سبق أن ألمعنا الى ما ذكرناه بالتفصيل من أن (ابن سنان) قد صرف جهده الى العناية بالألفاظ . ولكن الموقف مختلف تمــام الاختلاف بالنسبة لعبد القاهر الجرجانى فهو — كما نرى من نصه — كان يهدف الى صرف الاهتمام الى جانب صياغة المعنى ونظمه لأن الألفاظ — فى رأيه — لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلماتمفردة . وانما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، أو ما أشــبه ذلك مما لا يتعلــق بصريح اللفظ » [3] وليس النظم ضم الشىء الى الشىء — كما هو عند ابن

---

(1) انظر ص ٢٩٥ وما بعدها من دلائل الاعجاز .
(2) أنظر المغنى الجزء السادس عشر ص ١١٨ : والبلاغة تطور وتاريخ .
(3) انظر ص ٣٨ من دلائل الاعجاز .

سنان الخفاجي – بل هو نظم يراعى فيه اللفظ وفق تركيب المعانى فى النفس ، ولذا كان عنده نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح ، فالمعانى يعمل فيها الفكر فيتبعها اللفظ .

وها هو ذا عبد القاهر يقول فى الصفحة الرابعة والأربعين من كتابه هذا :

« انك اذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج الى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها ، ولاحقة بها . وأن العلم بمواقع المعانى علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق » ..

وعبد القاهر بذلك كله قد حول البلاغة القرآنية والجمال فى القرآن الى مرد آخر غير هذا الذى ألفه الناس ، وتحدث عنه علماؤهم انه قد أرجع هذا كله الى المعانى . نعم معانى النحو ولكن ليس المقصود بالنحو هنا معناه التقليدى الموروث ، وهو الاعراب بمعنى ضبط آواخر الكلمات وانما معناه عنده أعم من هذا وأشمل ، ولولا القول بذلك العموم وهذا الشمول لرمينا عبد القاهر باضطراب نظريته ، أما اذا وضعنا ذلك فى اعتبارنا فسوف نتغلب على كل تلك الصعوبات التى تواجهنا ، ونحن نستعرض نظريته فى النظم ، وسوف نتناول هـذا بالتفصيل فى مكان آخر ان شاء الله .

ولئن ثار بعض الناس على نظرية عبد القاهر ، ولم يرضهم ما قاله ولم يميلوا الى رأيه الجمالى فانه لا يتركهم وشأنهم ولا يقف منهم موقف العاجز المستكين بل يرد عليهم بقوله :

« ولسنا نستطيع فى كشف الشبة فى هذا عنهم ، وتصوير الذى هو الحق عنــدهم ما اســتطاعوا فى نظم النظم لأنا ملكنا فى ذلك أن نضطرهم الى أن يعلموا صحة مانقول ، وليس الأمر فى هــذا كذلك فليس الداء فيــه بالهين ، ولا هم بحيث اذا رمت العلا منه وجــدت الامكان فيه مع كل أحد مسعفا ، لأن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها ، وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها ، وتحدث له علما بها حتى يكون مهيئا لادراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما فى نفسه احساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة » .

هــذا وقد عقب عبد القاهر على هذا النص بذكر شواهد كثيرة من الشــعر ليضرب بذلك المثل للذين يستطيعون التفرقة بين موقع شىء من الكلام أو الشعر اذا تصفحه القارىء وشَىء آخر .

وانى بعد هذا أستطيع أن أستنتج أن عبد القاهر قد وجد دولة الألفاظ قد طغت وكثر زعماؤها فكان رد الفعل الطبيعى أن حاول نقل البيان القرآنى خاصة والبلاغة العربية عامة الى حيز المعانى وأخرج لنا نظريته فى النظم ، نظم المعانى لا نظم الألفاظ . كما أقرر أن الدافع لعبد القاهر على هذا قد انحصر فى الهدف الدينى الذى هو البحث عن اعجاز القرآن وبلاغته ، ومن هنا فقد عمل جاهدا على ابراز فكرة الاعجاز فى قالب علمى فريد ، وعرضها عرضا أمينا ومستفيضا فى الوقت نفسه حتى اعتبر بحق لدى الكثير من المنصفين أول من نظم الأفكار التى كانت موضوع بلاغة القرآن .

ويرى اســتاذنا الرافعى أن عبد القاهر فى دراســته القرآنية متأثر بأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى فى كتابه « اعجاز القرآن » الذى شرحه الجرجانى شرحين . المعتضد وهو الشرح الكبير ، ومختصر لهذا الشرح ولم يسمه ثم قال : ولا نظن الواسطى بنى دراسته الا على

ما ابتدأه الجاحظ — ولست أدرى كيف أطلق الرافعى هذا الحكم وكيف يقبله دون مناقشة من غير أن يكون بين يديه كتاب الواسطى ولا شرحه المعتضد ؟

وهبه خبرا تناثر فى ثنايا الكتب فهل نقبل مثل هذه الأخبار دون الاستناد الى دليل أننا نرفض تأثر الرجل بالواسطى لا لأنه لم يثبت فحسب • بل لأن نظرية عبد القاهر واضحة التأثر بما كتبه القاضى عبد الجبار كما سبق أن أشرنا •

على أية حال فاننى أخلص من هذا كله باقرار ما قرره زميلنا الاستاذ مصطفى الصاوى من أن منهج عبد القاهر قائم على التربية الفنية • تربية الذوق والاحساس والشعور بممارسة النصوص الأدبية ونقدها والتعرف الى مواطن القبح والجمال فيها ، فاذا ما ألف الذوق النقد مارس النص القرآنى باحثا عن الجمال فيه • ففى نظمه يكون سر اعجازه [1] •

والحقيقة أن عبد القاهر بنظريته فى بلاغة القرآن وان كان يعوزه تطبيقها فى القرآن الا أنه يعتبر قدوة لكل من جاء بعده من علماء البلاغة •

ولا غرو فهو مفكر مرن التفكير واسع العقل رحب الأفق ، ولا أدل على ذلك من جعله اعجاز القرآن وبلاغته شيئين غير محسوسين يختلف فى تذوقهما وادراك جمالهما والاحساس بهما كل الناس •

رحمه الله وأجزل مثوبته رجاء غرسه الطيب وزرعه اليانع فى حقل الدراسات الدينية البيانية على وجه العموم •

---

(١) انظر منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان اعجازه ص ٢١٤ .

ها نحن أولاء ــ نقف على عتبة القرن السادس وقد ثنينا عطفنا قليلا صوب ما سبق حيث نرى عبد القاهر رأى العين وهو يقيم فكرة الاعجاز تحت ابطه : الأمر الذى يوقفنا على تقديره لها وتمسكه بها •

ولكن عبد القاهر لم يستطع ــ رغم هذا الحرص ــ أن يرد الواردين على دراسته والناهلين منها اذ جل من أتى بعده قد أخذ عنه ، وتأثر به ، وان حاول كل فريق أن يصبغ ما أخذه بصبغته الخاصة التى طبع عليها أو سوغها له اتجاهه •

فنرى على وجه التقريب ثلاث طوائف • كل منهن لها طريقتها الخاصة فى التأليف فطائفة لخصت فكرة الاعجاز كما استقر عليها رأى عبد القاهر وعلى رأسها نذكر : فخر الدين الرازى •

وطائفة صاغت الفكرة ألوانا وصورا بلاغية ، وعملت جاهدة على الاستشهاد لها من القرآن الكريم لتثبيت الاعجاز عن ذلك الطريق ومن هؤلاء : ابن أبى الاصبع المصرى ، وهناك فريق ثالث اكتفى بسرد آراء السابقين ومنهم • السكاكى ، وعلى بن أبى على الآمدى والقرطاجنى •

وسوف التقى بهؤلاء الجهابذة الأعلام : واحدا واحدا ، وسوف أتصل بهم اتصالا مباشرا حتى يتسنى لنا فى النهاية فهمهم عن قرب ودراستهم عن كثب لنكون على بينة من أمرهم حيال فكرة الاعجاز البيانى لأعظم كتاب مقدس وهو « القرآن الكريم » •

الرازى وفكرة الاعجاز :

هو الامام عبد الله محمد بن عمر بن الحسين البكرى الطبرستانى الرازى المولد الشافعى المذهب ولد سنة ٥٤٣ أو ٥٤٤ على خلاف فى ذلك وهو الملقب بفخر الدين المعروف بابن خطيب الرى .

تلقى العلم أول ما تلقى على والده ضياء الدين بن عمر فى الرى ثم رحل الى خوارزم واتصل بالشاه هناك فتقرب منه ونال عنده درجة سامية وأخذ يتجول هنا وهناك وهو بين الحل والترحال الى أن استوطن مدينة هراة ومكث بها زمنا طويلا فطارت شهرته بين أبنائها وعلا صيته حتى لقب بشيخ الاسلام فأكرمته دولته اكراما عظيما ونال بها مكانا مرموقا ، ولكنه لم يمكث على تلك الحال اذ قلب له الحظ ظهر المجن فحقدت عليه طائفة الكرامية ، ونفسوا عليه جاهه ومنصبه فعكروا صفوه وخوفوه بعد أمن ، ولم يزل بينه وبينهم السيف الأحمر كما يقال حتى دسوا له السم فى الطعام فمات من فوره وكان ذلك يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦ بعد أن خلف تاريخا حافلا فى تأليف المصنفات العديدة وتثقيف الكثيرين من العلماء على يديه[١] .

هذا وقد ترك الرازى كثيرا من الآثار الجليلة الفائدة ، الكثير النفع ، نكتفى بسرد بعضها حتى اذا انتهينا الى أثره الذى جلا فيه فكرة الاعجاز أسرفنا فى الكلام وأطلنا الحديث . فمن هذه المؤلفات القيمة .

١ — تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » قال عنه ابن خلكان[٢] انه جمع فيه كل غريب وهو كبير جدا . ومات قبل أن يتمه وحاول اتمامه شهاب الدين بن خليل المتوفى سنة ٦٣٩ ، ونجم الدين احمد بن محمد بن على . القمولى الذى توفى سنة ٧٣٧ هـ .

---

(١) عيون الاخبار ٣ : ٢٣

(٢) وفيات الاعيان ١ : ٦٠٠ .

٢ ــ مناقب الامام الشافعى •

٣ ــ أساس التقديس وهو عبارة عن رسالة بسط فيها الكلام على تأويل المتشابهات من الآيات والأحاديث •

٤ ــ شرح قسم الالهيات من اشارات ابن سيناء •

٥ ــ لباب الاشارات هذب فيه كتاب الاشارات لابن سينا •

٦ ــ اللوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات •

٧ ــ محصــل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين •

٨ ــ المسائل الخمسون فى أصول الكلام •

٩ ــ معالم أصول الدين : مشتمل على خمسة أنواع من العلــوم المهمة ، علم أصول الدين ، علم أصول الفقه ، علم الفقه ، أصول معتبرة فى الخلاف ، أصول فى آداب النظر والجدل •

١٠ ــ نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز •

هذه هى أهم مصنفات الرازى وتواليفه عرجنا عليها سراعا موقنين أن ذلك لا يخلو من فائدة وان كان يهمنا من هذه الكتب كلها آخر كتاب سردناه وهو « نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز » •

الذى يعتبر تلخيصا لكتابى عبد القاهر : أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، ولكن مع شىء من التنظيم والتبويب ، والذى يتصل بالبحث من هذا الكتاب هو الفصل الأول الذى ساق فيه الدليل على اعجاز القرآن بقوله[١] •

---

(١) نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز : ص ٥

« ان العرب تحدوا الى معارضته ولم يأتوا بها ولولا عجزهم لكان محالا أن يتركوها ويتعرضوا لطعن الأسنة ويقتحموا موارد الموت »
ثم يذكر أربعة أوجه من وجوه الاعجاز ولكنه لا يتخذ موقف الناقل بقدر ما يتمثل موقف العالم الناقد .

الوجه الأول : مذهب الصرفة ، ويشرح الرازى هذا المذهب ولكنه لا يرتضيه لأن عجز العرب عن معارضته لو كان لأن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن بل كان يجب أن يكون تعجبهم عن تعذر ذلك عليهم بعد أن كان مقدورا عليه لهم .. كما أنه لو كان كلامهم متاربا فى الفصاحة قبل التحدى لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك ، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدى وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم قبل التحدى وكلامهم قبله وبين القرآن ، ولكن لم يكن كذلك فقد بطل ذلك .. كما أنه من المعلوم والمقطوع به أن نسيان الصيغ المعلومة فى مدة يسيرة يدل على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب مازالت عقولهم بعد التحدى ولهذا بطل مذهب الصرفة .

الوجه الثانى : الذى أشار اليه الرازى هو أن أسلوب القـرآن مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل لاسيما فى مقاطع الآيات مثل: ((**يعلمون ويؤمنون**)) .

وهذا الوجه لم يعجب الرازى أيضا فانبرى لابطاله ، وقد حصر ذلك فى خمسة أسباب :

أولا : لو كان الابتداء بالأسلوب معجزا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا كذلك .

ثانيا : أن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الاتيان بمثله .

ثالثا : ان الذى تعاطاه مسيلمة من الحماقة فى « **انا أعطيناك الجماهر فصـــل لربك وجاهر** » وكذلك « **والطاحنات طحنا** » فى أعلى مراتب الفصـــاحة .

رابعا : انه لما فاضلنا بين قوله تعالى « **ولكم فى القصاص حياة** » وبين قولهم « **القتل أنفى للقتل** » لم تكن المفاضلة بسبب الوزن، والاعجاز انما يتعلق بما ظهرت به الفضيلة .

خامسا : ان وصف بعض العرب القرآن بأن له لحلاوة وان عليه لطلاوة لا يليق باالأسلوب .

الوجه الثالث : انه ليس فيه اختلاف وتناقض ويبطله بقوله :

« ان التحدى كما وقع بالقرآن كله فقد وقع بالسورة وقد يوجد فى خطبهم ما مقداره مقدار سورة الكوثر ولا يكون فيه اختلاف وتناقض » . وهذا لا يؤدى الى الاعجاز .

الوجه الرابع : اشتمال القرآن على علم الغيب وأبطله بقوله : « ان التحدى قد وقع بكل سورة والاخبـــار عن الغيوب لم يوجد فى كل سورة » .

وبعد أن انتهى الرازى من سرد هذه الوجوه الاربعة وبين فيها وجه الخطأ من الصواب عقب عليها جميعها بقوله [1] .

« ولما بطلت هذه المذاهب ، ولابد من أمر معقول حتى يصح التحدى

---

(١) نهاية الايجاز : ص ٧

به ، ويعجز الغير عنه ولم يبق وجه معقول فى الاعجاز سوى الفصاحة علمنا أن الوجه فى كون القرآن معجزا هو الفصاحة » .

من هذا نعلم أن الفصاحة لدى الرازى هى المناط الذى علق به الاعجاز ، أو قل انها قطب الرحى التى دار حولها الاعجاز ، ولما كان ذلك كذلك فانه أخذ على عاتقه بيان شرف الفصاحة التى جعلها دليل اعجاز القرآن ، واستمع اليه يقول :

« لما ثبت أن عجز العرب انما كان عن المزايا التى ظهرت لهم فى نظم القرآن ، والبدائع التى راعتهم من مبادىء الآيات ومقاطعها ، وفى مضرب كل مثل . ومساق كل خبر وصورة كل عظة ، وتنبيه وتذكير ، وجب على العاقل أن يبحث عن تلك المزايا والبدائع ما هى ؟ وكم هى ؟ وكيف هى ؟ ولا يمكن ذلك الا بالبحث عن حقيقة المجاز والحقيقة والاستعارة والتشبيه والتمثيل ، وحقيقة النظم والتقديم والتأخير والايجاز والحذف والوصل والفصل ، وسائر وجوه المحاسن المعتبرة فى النظم والنثر .

واذا ثبت ذلك كان العلم الباحث عن حقيقة الفصاحة والكاشف عن ماهيتها والمتفحص عن أقسامها ، والمستخرج لشرائطها وأحكامها ، والمقرر لمعاقدها وفصولها والملخص المحرر لفروعها وأصولها باحثا عن أشرف المطالب الدينية وأرفع المباحث اليقينية ، وهو البحث عن جهة دلالة القرآن على صدق النبى محمد صلى الله عليه وسلم بالتفصيل والتحصيل » .

هذا وقد أسهب الرازى فى تبيان الفصاحة اذ أخذ يتكلم على الفائدة منها على المفردات والراجعة الى الجمل ورتب كل ذلك فى فصول،

فكان بذلك العمل كل ما ذكره الرازى فى كتابه « نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز » •

فاذا نحن انتقلنا الى أثر آخر من آثار الرازى الكثيرة وجدناه فى تفسيره « مفاتيح الغيب » يعلق على آية التحدى فى تفسير سورة البقرة **« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا »** بقوله « ان ذكر هذه الآية فى القرآن هو البرهان على صحة النبوة » ثم ذكر فى هذا التفسير طريقين من طرق الاعجاز التى سبق ذكرها فى نهاية الايجاز يهمنا منها طريق واحد وهو زيادة القرآن على سائر كلام الفصحاء بقدر ينقض العادة مع الاستدلال على ذلك بعجز العرب عن معارضته بعد أن تحداهم مع توفر الدواعى •

وأقول : يهمنا ذلك الطريق أكثر من أخيه اذ أنه فيه هنا زاد على ما أتى به هنـــاك وذلك اذ يقول : انه اجتمع فى القـــرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته وهو مع ذلك فى النهاية مع الفصاحة فمن هذه الوجـــوه :

١ ــ ان فصاحة العرب فيما تقع عليه مشاهدهم وأحاسيسهم من بعير وجمل ، ولم يتكلم القرآن فى شىء منها فكان يجب ألا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التى اتفق العرب عليها فى كلامهم •

٢ ــ ان القرآن تجنب الكذب ومع ذلك فهو فصيح ، والشعر أعذبه أكذبه ، ولهذا نزلت قيمة الشعر عند حسان ولبيد بعد الاسلام لتحريهما الصـــدق •

٣ ــ لا تقع الفصاحة فى كلام الشاعر أو الخطيب والقرآن كله فصـــيح •

٤ ــ كل فصيح اذا كرر فى موضوع واحد لم يحافظ على فصاحته الأولى ، والقرآن فصيح فى تكراراته الكثيرة •

٥ — انه يتكلم فى العبـادات وأحكام الدين والآخرة ، والكلام فيها يوجب نقص الفصاحة وهو مع ذلك فصيح •

٦ — كل شاعر ينبغ ويحسن شعره فى فن ، والقرآن كان فصيحا فى كل ما يتكلم فيه •

٧ — القرآن أصل العلوم كلها ولكنه حين عددها عد منهـا علم الكلام والفقه والأصول واللغة والزهد وأخبار الآخرة ومكارم الأخلاق •

ونلاحظ على الرازى عند كلامه على هذا الطريق من طرق الاعجاز أنه يتكرر مع نفسه كما نلاحظ عليه أيضا أنه فى الوجوه الستة الأولى يلتقى مع الباقلانى فى برهانه وفى السابع منها جديد يلتقى معه الغزالى فى حديثه عن الاعجاز العلمى •

وتتمة لما ذكر نثبت هنا المذهب الثانى الذى ذكره فى التفسير وهو مذهب الصرفة ، والرازى وان تكلم عن هذا المذهب فى نهاية الايجاز ولم نفهم منه مبلغ رضائه عنه الا أنه فى التفسير ناقض نفسه وارتضاه وجعله أقرب الى الصواب فى نظره ، ثم تكلم عن المعارضة وتدرجها ، والتحدى وتطوره ورأى أن شدة التحدى فى قوله تعـالى : « **فان لم تفعلوا ولن تفعلوا** » دليل على صدق النبى — صلى الله عليه وسلم — وثقته بنفسه وعلمه بعجز الناس عن معارضة القرآن ثم يزيد كلامه وبيانه بقوله : « انه لم يستطع أحد معارضته من أيام النبى الى الآن » وهذا يؤيد قوله الذى سبق • والذى لا حظته على الرازى أنه تأثر بمن سبقه من العلماء وبخاصة عبد القاهر والباقلانى ، ويتضح هذا التأثر فى كثير من مناحى مؤلفاته كما أنه فى كثير من الاحيـان كان يجمع الآراء العديدة ويوجزها فى تلخيص وجيز فتبدو كما لو كانت المـاما للفكرة من جديد ، والواقع أنها كل له أجزاؤه العديدة فى كتب السالفين وخاصة من نبهنا عليهم فى هذا المجال • كما لا حظنا أيضا أن الرازى ينظر الى

الاعجاز من ناحية واحدة ويبطل ماعداها وبذلك وقع فيما وقع غيره من السابقين حين قدموا وجها ارتضوه ، وأبطلوا غيره من عدة وجوه .

ونسى هؤلاء ، أو نسى هو مع هؤلاء وجوب النظر الى القرآن نظرة كلية عامة ليعلم أنه معجز لعدة أمور كثيرة تراصت بعضها بجوار بعض فكان من ذلك كله نسيج محكم وكتاب مقدس من لدن عزيز حكيم .

— ١٤ —

لازلت بفكرة اعجاز القرآن البيانى فى نهاية القــرن الخامس . والنصف الأول من القرن السادس وان كنت قد شددت رحالى الى جوهرة العالم : الى البلاد الخضراء : الى الأندلس ، حيث التقيت فى بلدة سبتة بامام الحديث ، وأعرف الناس بعلومه ، النحوى العالم باللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، التقيت بأبى الفضل عياض بن موسى ابن عياض بن عمرون اليحصبى السبتى الميلاد الأندلسى الأصل [١] .

هذا الرجل كما صوره القاضى برهان الدين بن فرجون فى كتابه (الديباج المذهب) كان بصيرا بالأحكام عاقدا الشروط حافظا لمذهب مالك — رحمة الله عليه — كما كان شاعرا مجيــدا وخطيبا بليغا ، وهو الى جانب هــذا وذاك كان يتسم بالصبر والحلم والجود والسماحة جميل العشرة دؤوبا على العمل صلبا فى الحق .

وقد تتلمذ على جهابذة أعلام ، وشيوخ كرام : سمع منهم وأخذ عنهــم ، فكان له ما أراد من معــرفة جمة وعلم غزير ، ومن هؤلاء :

---

(١) (أنظر وفيات الاعيان لابن خلكان) والاحاطة فى أخبار غرناطة : ١٩١

القاضى أبو عبد الله محمد بن على بن حمدين وأبو الحسن بن سراج ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو على بن سكره ، وأبو بحـــر بن العاصى ، والقاضى أبى الوليد بن رشيد ، وأبى بكر بن العربى المعافرى ، وغيرهم كثير حتى قيل : ان شيوخه ومن سمع منهم ومن أجازه قد بلغ المائة على وجه التقريب •

كان طبيعيا لرجل مثل القاضى عياض بعد هــذا التفقه ، وذلك التلقى •• أن يؤلف الكتب الكثيرة ، وأن يصنف المؤلفات الوفيرة التى سار بها الركبان يشهرون بها اسمه ، ويذيعون صيته بل ويعلون قدره ، ومن هذه الكتب والمؤلفات نذكر :

« اكمال المعلم فى شرح صحيح مسلم » ، كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » الذى أبدع فيه كل الأبداع ، بل لم يؤلف مثله فى بابه ، وكتاب « مشـــارق الأنوار » صحح فيه غـريب ما فى الموطأ والصحيحين وفيه يقول بعض الشعراء :

مشـــــــارق أنوار تبدت بســــبتة

ومن عجب كون المشـــارق بالغـــرب

وكتاب « التنبيهات » فى مذهب الامام مالك ــ رضى الله عنه ــ « وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك » وهو فى طبقات المالكية وكتاب « العقيدة » و « جامع التاريخ » و « غنية الكاتب وبغية الطالب » وغير ذلك كثير •

شـــعره :

هذا وقد كان للرجل بجوار ثقافته العلمية الدينية التى كان من نتيجتها تلك المؤلفات العديدة ذوق أدبى ، وموهبة شعرية لا بأس بها •

وان كنت أرى أنه فى شعره أو فى أغلبه كان يهيم بالصور البديعية هياما ملك عليه نفسه وحسه وبالأخص الجناس ، ولزوم مالا يلزم • استمع اليه يقول :

يا من تحمل عنى غير مكترث
لكنه للضنا والسقم أوصى بى
تركتنى مستهام القلب ذا حرق
أخا جوى وتباريح وأوصاب

ويقول :

الله يعلم أنى منذ لم أركم — كطائر خانه ريش الجناحين
فلو قدرت ركبت الريح نحو كم — فان بعدكم عنى جنى حينى

كذلك لم يقف أمر القاضى عياض عند حد التأليف ، وقول الشعر ، بل كان له بجانب هذا جمع الحديث وتقييده وجلوسه للمناظرة والشورى •

ولقد لمح فيه أولو الأمر دراية ونجابة فعينوه قاضيا على بلده سبته وظل بهذا المنصب المهيب مدة طويلة ، ثم ترقى وتولى قضاء غرناطة ، ولكنه لم يلبث فيها طويلا بل عاد الى قضاء سبته مرة ثانية[١] وظل هذا حاله بين العلم والرياسة القضائية الى أن توفى فى شهر جمادى الآخرة وقيل فى شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وعلى أية حال فقد مات مسموما بيد يهودى آثم ودفن بمدينة مراكش وله فيها ضريح مشهور مازال الى وقتنا الحاضر يزار •

---

(١) « انظر الصلة لابن بشكوال » ١٣٤ .

كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » :

يهمنا هذا الكتاب هنـــا بصفة خاصة لأنه الكتاب الوحيـــد الذى يستطيع الباحث عن بلاغة القرآن واعجازه لدى القاضى عياض أن يجد فيه ما يفيده فى هذا الموضوع ، وان كان كلامه فيه عن اعجاز القرآن منثورا فى طيات الكتاب وفصوله ، ويحتاج فى جمع شتاته الى جهـــد كبير ، الا أنى لا أستطيع أن أنكر فضل الشيخ عبد الله الصديق محقق كتاب « بيان اعجاز القرآن » للخطابى فى جمعه النصوص التى تتعلق بالاعجاز فقد كفانا بهذا العمل مئونة ما كنا ننويه من جمع النصوص •

وانى سوف أضع هذه النصوص بين أيدينا وسأطرحها على بساط البحث لتكون نصب أعيننا ، حتى أستخلص منها رأى القاضى عياض فى اعجاز القرآن البيانى كى يتضح جهده فى هذا الميدان وأكشف رأيه أولا وأبين مدى ما قدمه لهذه الفكرة من الجديد ان كان له فيها جديد •

يرى القاضى عياض أن اعجاز القرآن انما يرجع الى وجوه أربعة نتحسسها من قوله [١] •

« اعلم وفقنا الله واياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الاعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه :

أولها : حسن تأليفه والتئام كلمه ، وفصـــاحته ووجوه ايجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب •

ثانيها : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب نظمها ونثرها الذى جاء عليه ووقعت مقاطع آيه ، وانتهت

---

(١) الشفا : ١٢٠

فواصل كلماته اليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت عقولهم فيه وتدلهت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا الى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم ، أو سجع أو رجز أو شـــعر •

ثالثها : ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبات ، مما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر به •

رابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة الا القليل من أخبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك •

وسوف أبين هذا فى حينه ان شاء الله •

ولكن الذى يجب التنبه له هنا أن القاضى يجعل ثمة أمور ثانوية لها دخل كبير فى ذلك الاعجاز •

وهذه الأمور الثانوية قد عد بعضها عند المتقدمين والمتأخرين وجها من وجوه الاعجاز مما يجعله مسبوقا بها مكررا لها فمن ذلك : ـــ

بعض آيات وردت فى القرآن بتعجيز قوم فى قضايا ، واعلامهم أنهم لا يفعلونها ولا يقدرون على ذلك كقوله لليهود : « **قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين** » •

قال أبو اسحاق السماح فى هذه الآية : أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة هذه الرسالة ، لأنه قال لهم « فتمنوا الموت » وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدا ، فلم يتمنه واحد منهم •

ومثل ذلك آية المباهلة وغيرهما ومنها : ما هو داخل فى باب البلاغة فى القرآن وصفاته وفضائله لا فى اعجازه مثل الروعة والتأثير النفسى اللذين يلحقان قلوب سامعيه حتى كانت تبكى من لا يفهم معـــانيه ولا يعلم تفسيره ، فقد روى عن نصرانى أنه مر بقارىء فوقف يبكى فقيل له : مم بكيت ؟ قال للشجا والنظم ٠

وهنا نقف وقفة لنقرر تأثر القاضى فى هذا بالخطابى الذى تكلم طويلا عن أثر القرآن النفسى ٠٠

ومنها كونه آية باقية ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه « **انا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون** » وهو كتاب « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** » وذلك بخـــلاف سائر المعجزات التى انقضت بانقضاء وقتها ، ولا شك أن القاضى فى هذا وأشباهه مسبوق بما قال ٠

ومنها أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه بل الدوام على تلاوته يزيده حلاوة وترديده يوجب له حجة لا يزال غضا طريا مع أن غيره من الكلام مهما بلغ فى الحسن والبلاغة فانه يكون مملولا مع الترديد ويعادى اذا أعيد ، وكتابنا يستلذ به فى الخلوات ، ويؤنس بتلاوته فى الأزمات ، وسواه من الكتب لا يوجد فيه ذلك ، ومن هنا كانت لها اللحون والطرق لاستجلاب النشاط على قراءتها وتشويق الناظر اليها ٠

ولهذا وصف رسولنا ــ صلى الله عليه وسلم ــ القـــرآن بأنه : لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عبره ولا تفنى عجائبه ، هو الفصل ليس بالهزل ، صدق رسول الله ٠

ومنها جمعه لعلوم ومعـــارف لم تعهد العـــرب عامة ولا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل رسالته خاصة معرفتها ولا القيام بها ، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم ، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم ٠٠ « **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء** » ٠

وقال صلى الله عليه وسلم — « ان الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا وسنة خالية ومثلا مضروبا فيه نبأكم وخبر من كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم لا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه، هو الحق ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب » .

وفى الحديث أيضا : قال الله لمحمد — صلى الله عليه وسلم — أنى منزل عليك توراة حديثة تفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا : فيها ينابيع العلم وفهم الحكمة وربيع القلوب ، وكفى فيه قوله تعالى : **« ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون »** فجمع فيه وجازة ألفاظه ، وجوامع كلمه أضعاف ما فى الكتب قبله والتى أربت ألفاظها على الضعف عنه مرات ومرات .

ومنها : أى من أوصافه التى عدها بعض العلماء وجها من وجوه الاعجاز : جمعه بين الدليل والمدلول ، وذلك أنه اجتمع بنظم القرآن : حسن وضعه ، وايجازه وبلاغته فى أمره ونهيه ووعده ووعيده ، بل وكل ما فيه ، ولذا فهو يجمع الحجة والتكليف فى آن واحد . وبعد : فلعلنا بذكر تلك الأوصاف والوجوه نكاد نلمح أن القاضى عياض فى أكثرها متأثر بمن تقدمه من العلماء وخاصة عبد القاهر الجرجانى .

وان كان له فضل يذكر فحسبه أنه زاد على تقدمه بصياغة تلك الوجوه صياغة فريدة وأثبتها صفات للقرآن لا تنفك عنه ، ولا تحيد منه بل تكشف عن اعجازه وتثبت خلوده .

وها أنذا بعد أن عرضت هذا كله أحب أن أتناول الأمرين اللذين يتعلقان ببيان القرآن واعجازه مما ورد ذكره مجملا عند الحديث عن الوجوه الأربعة الأصيلة لدى القاضى عياض • نعم •• أحب أن أتناولهما هنا بذكرهما تفصيلا ليتضح من ورائهما فكرة الرجل تمام الوضوح وهذان الوجهان هما :

أولا : حسن تأليفه والتئام كلمه وفصـــاحته ، ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب •

ثانيا : صورة نظمه العجيب •

أما فيما يختص بالوجه الأول فقد أفاض القاضى فى الحديث عنه ، وأجاد ذلك لأنه تكلم فيه عن اختيار ألفاظه ، وحسن تأليفها ، وفصاحة كلماته والتئامها الأمر الذى جاء القرآن من أجله متشاكل الأجــزاء مستقيم الأسلوب •

كما جاء فيه حسن التخلص من قصة الى أخرى ، والخروج من معنى الى غيره على اختلاف معانيه وتباين مراميه ، أضف الى ذلك ما نجده فيه من التئام السورة الواحدة الى أمر ونهى وخبر واستخبار ، وترغيب وترهيب الى غير ذلك من معـــانى الكلام دون خلل يتخلل فصـــوله •

والكلام الفصيح اذا اعتوره مثل هذا ضعفت قوته ،ولانت جزالته، وقل رونقه ، وتقلقلت ألفاظه فتأمل سورة « ص » وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم وتعريفهم باهلاك القرون من قبلهم ، وما ذكر من تكذيبهم لمحمد — صلى الله عليه وسلم — وتعجبهم بما أتى به ، والخبر عن اجتماع ملتهم على الكفر ، وما ظهر من الحقد فى كلامهم

وتعجيزهم وتوهينهم ووعيدهم بخزى الدنيا والآخرة ، وتكذيب الأمم قبلهم ، واهلاك الله لهم ، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم ، وتصبير النبى — صلى الله عليه وسلم — على أذاهم ، وتسليته بكل ما تقدم ذكره ثم ذكر قصة داود وقصص الأنبياء .. كل هذا فى أوجز كلام وأحسن نظـــام .

ثم يتحدث القاضى أيضا وهو بصدد بيان الوجه الأول لديه عن عجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن ، أو بأقصر سورة منه ، مع أنهم خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من دراية اللسان ما لم يؤت انسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، مع جعل ذلك فيهم طبعا وخلقة وغريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب .. فيدلون بديها فى المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوفون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ، ويذهبون الأحن ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجبان ، ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا — هكذا تصورهم ريشة القاضى عياض — منهم البدوى ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوهرى والنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصـــعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلمة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية .

كمـــا أن لهم من البلاغة الحجة البالغة والقوة والقـــدح الفالج لا يشـــكون ان الكلام طوع مرادهم والبـــلاغة ملك قيادهم قد حووا فنونها ، واستنبطوا عيونها ، ودخلوا من كل باب من أبوابها فقالوا فى الخطير والمهين ، وتساجلوا فى النظم والنثر ، فما راعهم الا رسول كريم

بكتاب عزيز « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » أحكمت آياته وفصلت كلماته وبهرت بلاغته العقول ، وتضافر ايجازه واعجازه ، وتبارت فى الحسن مطالعه ومقاطعه •

هذا وبعد أن يستمر القاضى فى حديثه مستطردا من حجة الى حجة ، ومن برهان الى مثيله نراه يتكلم عن تحدى النبى — صلى الله عليه وسلم — للعرب ومعارضة بعض الناس له ، ويذكر أحوالهم جميعا ويبين أن منهم من هداه الله وبهرته بلاغة القرآن فصدق وآمن ، ومنهم من أخذته العزة بالأثم فطغى وبغى وعصى واستكبر أن ينقاد لمحمد وقرآنه ، مع ايمانه بالعجز عن الاتيان بمثله أو شىء فى فصاحته الخارقة للعادة الساحرة للنفوس •

والذى لاحظته على القاضى عياض أنه لم يذكر فيما ذكر طرق تأدية المعنى ومدى وجودها فى القرآن كغيره من بعض من سبقوه كابن قتيبة والرمانى وعبد القاهر مثلا وان كان يعفيه من اللوم فى هذا المجال أنه لم ينس الاشارة الى أمثلة هذه الصور الكلامية ، والآيات التى يحتوى عليها فى القرآن •

فهو وان لم يذكر أسماء هذه الطرق وتلك الألوان البلاغية الا أنه أثر التطبيق والعمل بادىء ذى بدىء •• فضرب لذلك الأمثال دون أن يصدره بما كنا ننتظره منه من وضع مقاييسه أولا كما فعل غيره من سابقيه •

واستمع اليه يقول :

« وأنت اذا تأملت قوله تعالى :« **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل**

بعدا للقوم الظالمين »وأشباهها من الآى بل أكثر القرآن حققت ما بينته من ايجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلائم كلمها » .

هذا الكلام الذى يقوله القاضى ليس سوى تلك الألوان المتعلقة بالألفاظ والمعانى والتى صاغها غيره ألوانا بديعية لها رونقها وبهاؤها .

فالايجاز صـــورة بديعية ومثله التلائم ، وكذلك حسن الديباجة وحسن النسق وحسن التقسيم . فكل ما ورد فى عبارته ما هو الا أسماء لتلك الصور البديعية المتعددة والتى أفرد لها من سبقه مجالا بالنص عليها .

وكل ما يهمنا هنا ان الرجل قد تحدث ــ كما يفهم من كلامه ــ عن الألفاظ وأثرها فى النظم وتلائمه ، وهو بذلك يتفق مع ابن سنان الخفاجى فى رأيه القائل بأن الاعجاز فى الألفاظ وان زاد عليه أن تلاؤم الألفاظ وفصاحتها يؤديان الى جمال المعنى .

هـــذا كله أثبته القاضى تحت الوجه الأول من وجوه الأعجـــاز الأصيلة لديه

أما الوجه الثانى فهو يعتبره كامنا فى صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب الكلام .. كلام العرب .. ومنـــاهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ووقفت مقاطع آيه عنده ، وانتهت فواصل كلماته اليه .. ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شىء منه بل حارت فيه عقولهم وقصرت دونه هممهم .

ثم أخذ فى بيان أثر نظم القرآن فى نفوس سامعيه ، ولكنه لم يبين لنا كيفية النظم كما قال عبد الجبار فى المعنى ، ولا شروطه التى أدت الى

حدوث هذا الأثر كما لم يبين معنى النظم ، وهل هو توخى معانى النحو كما قال عبد القاهر أم شيء آخر ؟ ومما تجب الاشارة اليه هنا أنه جعل الاعجاز البلاغى وجها ، والاعجاز بالنظم وجها آخر وبذلك يكون قد جمع بين رأيى عبد القاهر وابن سنان اللذين تقدمت الاشارة اليهما •

والاعجاز بكل واحد من النوعين : الاعجاز وبلاغة الكلمات بذاتها ــ وهو رأى الخفاجي ــ والأسلوب الغريب ــ وهو رأى عبد القاهر الجرجانى ــ كل واحد منهما نوع اعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الأتيان بواحد منهما اذ كل واحد خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامهـــا •

والى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين ، وبعض المقتدى بهم فى ذلك وهو أن الاعجاز حاصل بمجموع البلاغة والأسلوب •

ومهما يكن من شيء فلم يفت القاضى عياض أثر الذوق والأحساس والدراية والأطلاع ، أى مجموع الصفات الدرسية بجانب الصفات الفطرية حيث يقول :

« ومن تفنن فى علوم البلاغة وأرهف خاطره ولسانه بأدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه » ولعله كان يرمى من وراء ذلك الى بيان أثر القرآن النفسى فى الناس أجمعين عامتهم وخاصتهم ، فالعامة تستولى عليهم آياته ، وتملك عليهم أقطار نفوسهم كلماته ، والخاصة الذين يدرسون ويفهمون يدركون من أول الطريق سحر الاعجاز من وراء فصاحته وبلاغته •

حقا انه كتاب مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد •

تركت القاضى عياض وطوفت بعده تطوافة واسعة النطاق حتى وقع بصرى على أبى يعقوب يوسف بن أبى بكر بن محمد بن على الخوارزمى السكاكى المولود سنة خمس وخمسين وخمسمائة من هجرة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — التقيت به وأخذت فى تعرفه وتفرسه فوجدته نعم الامام الذى اتسعت دائرة امامتــه وامتدت جذور معرفته حتى شملت نحوا وصرفا وبلاغة وشعرا وعروضا الى غير ذلك بالاضافة الى أنه كان فقيها مفتنا له فى الدين رأى وفى الشريعة اجتهاد • ولا غرو فهذا هو محمد بن فضل الله العمرى العالم الصــدوق يحدثنا عنه فى كتابه (المســالك والممالك) فيقول : انه ذو علوم سعى اليها فحصل طرائفها ، وحفر تحت طوابقها ، واهتز للمعانى اهتزاز الغصن البارح ، الى آخر ما يقول من صفات الجلال والكمال •

وقد توفى السكاكى سنة ست وعشرين وســتمائة بعد أن خلف وراءه ماضيا ألافا بالجهاد المتواصل فى ضروب المعرفة وكنوزا ذات قيمة جلية فى تاريخ البلاغة •

لم ينس الرجــل فى كتابه « مفتــاح العلوم » الادلاء برأيه فى اعجاز القرآن ، فهو يرى أن القرآن معجز بالنظم كما قال عبد القاهر ، والاعجاز فى نظره لا يدرك الا بالذوق ، وطول خدمة علم البلاغة ، وممارسة الكلام البليغ ، وذلك لأن شأن الاعجاز فى رأيه عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، ومدرك الاعجاز عنــده هو الذوق ليس الا ، وطريقة الذوق خــدمة البــلاغة •

ويتقدم السكاكى برأيه خطوات الى الامام فيورد أربعة وجوه

من وجوه الاعجاز : وهى الصرفة ، والأسلوب من حيث الابتداء به ، وسلامته من التناقض واشتماله على الغيوب ، ويبطلها جميعا ، وهو فى ذلك متفق مع الرازى فى نهاية الايجاز ثم يتبع الأربعة بوجه خامس ، ويرتضيه ،وهو كون الاعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، وهذا لا يتأتى الا بطول خدمة علميها • المعانى والبيان بعد فضل الهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى فى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لمــا خلق له [1] •

ولمــا كان الاعجاز قائما لديه على عمد الفصاحة والبلاغة ونظمه ، فقد أراد أن يدلل على هذه الناحية النظرية بشىء تطبيقى لتكمل فكرته ، ويتضح فى الأذهان ، فأورد الآية الكريمة : « **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سـماء أقلعى وغيض المـاء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين** » •

وابتدأ تعليقه عليها بقوله [2] ، « والنظر فى هذه الآية من أربع جهــات : من جهة علم البيان ، من جهة علم المعــانى ، وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ومن جهة الفصــاحة اللفظية » ثم ذكر ما فى الآية من وجوه البلاغة المتعلقة بالبيان كالاستعارة والكناية والتشبيه والمجاز ، وأشار كذلك الى جهة النظر اليها من حيث فصاحتها المعنوية قائلا : « فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق الى المرتاد ، بل اذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق أذنك الا ومعناها أسبق الى قلبك : وألفاظها على ما ترى عربية

---

(١) المفتاح : ٢٧٢ •
(٢) المصدر نفسه ٢٢١ •

مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة من التنافر بعيدة عن البشاعة كل منها كالمـــاء فى السلاسة وكالعسل فى الحلاوة وكالنسيم فى الرقة » •

والسكاكى — مع كل ذلك لا يكاد يترك المعترضين الذين يوجهون بعض الطعون للقـــرآن الكريم من ناحية ألفاظه واعرابه وفصـــاحته وبلاغته وسلاسة نظمه ، ويأتى بحجته حين يقولون انه قد ورد فيه ألفاظ غير عربية كقوله (مقاليد) والمقاليـــد جمع مقليد وهو معرب « كليد » ، « استبرق » وهو معرب « استطبر » •

وبعد أن يعرج على التعريف بهم ويذكر حجتهم ينبرى للدفاع عن ذلك الذى عابوه ، ويقف للرد عليـــه كله فيرى أن هـــذا من باب التغليب •

« فما أدخلتموه فى جملة كلم العـــرب منباب ادخال الأنثى فى الذكور وابليس فى الملائكة » •

كذلك فانه رد على الطاعنين على القرآن بما فيه من خطأ اعرابى فى قوله :

« ان هاذان لساحران » وقوله **« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون »** ظنا منهم أن الصواب « والصابئين » لعطفه على اسم « ان » قبل مضى الجملة ، وأيضا فقد رد على الذين طعنوا على القرآن بصرف مالا ينصرف كقوله : « قواريرا وسلاسلا » بالتنوين فطالبهم السكاكى بالتبحر فى علم النحو وادراك مكانه حتى يمكنهم الوقوف على سبب هذه المخالفة الاعرابية ، هذا كله بالاضافة الى رده على الذين طعنوا على القرآن نظمه فى اعادة المعنى فى مواضع كثيرة على تفاوت فى النظم بين حكاية وخطاب وغيبة وزيادة ونقصـــان وتبديل كلماته ، طعنوا وقالوا : ان كان النظم الأول حسنا لزم فى الثانى الذى يضاد

الأول بنوع من الزيادة والنقصان أو غير ذلك •• رد السكاكى على ذلك وغير ذلك فوضع الصواب موضعه ورد الحق الى نصابه •• وبين الطريق المستقيم أمام من سولت له نفســـه طعنا على القرآن والنيل منه فى قليل أو كثير [1] ••

وبهذا نســـتطيع أن نقول : « ان الســـكاكى قد قارب الحقيقة والطريقة المعقولة فى القدرة على فهم الاعجـــاز دون تعليله بقواعد جافة يناقض بعضها بعضا ويصنع جزؤها الجزء الآخر • ولئن قيل انه لم يوف الموضوع حقه أقول : له العذر على كل حال سيما وأن مقومات الجمال لم يكن قد فصل فيها القول بعد ، كمـــا هو الأمر فى عصرنا الحاضر •••

وبذا نسدل الستار على فكرة الاعجاز لدى الســـكاكى لنتفرغ لتتبعها لدى امام آخر يفصله عنه بعد فى الزمن ونأى فى المكان •

— ١٦ —

تركت خوارزم وعدت الى مصر •• بعد طول غياب • والتقيت بعلم من أعلامها الأمجاد •• ضرب بسهم وافر فى ميدان البلاغة والأدب وشعر البديع : التقيت بزكى الدين عبد العظيم ابن عبد الواحـــد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصرى المعروف بابن أبى الاصبع « المتوفى سنة ٦٥٤ هـ فألفيته غنى كغيره من البلاغيين بالقرآن فألف فى بلاغته « بديع القرآن » وفى فواتحه « الخواطر السوانح فى اسرار الفواتح » وفى مشكلاته « التأويل » لقوله تعالى **« تلك عشرة كاملة »** •

فكان بليغ مصر الأوحد الذى لايلحق شأوه ، ولم يشق غباره •

---

(١) المفتاح ٣٠٩ •

وهذا ما حدثنا به صاحب « مسالك الأبصـــار » عند كلامه على علماء مصر فى البلاغة ..

هذا ولم يقف أمره عند هذا اللحد بل كانت له جولات وصولات فى وضع الأسس الراسخة لصناعة الكلام ، اذ أن هذه الصناعة شعرا ونثرا قد شغلت كثيرا من نقاد العرب وأدبائهم على مر العصور ..

ويعنينا هذا أن نبين أثر ابن أبى الأصبع فى فكرة الاعجاز ، أو قل ان شئت نوضح الفكرة بتبيانها عنده ..

فهو فى كتابيه « تحرير التحبير » و « بديع القرآن » يؤمن باعجاز القرآن البيانى .

ويرى أن القرآن معجز بألفاظه وأســلوبه وتراكيبه وأثره فى النفوس البشرية ، ويخالف عبد القاهــر والباقلانى فى رأيهما اللذان يقولان فيه بأن وجود الأنواع البديعية فى القرآن غير دال على اعجازه ، ويؤيد ذلك بجمعه الأنواع البديعية التى عرفت الى عهده وجديده الذى اكتشفه مستشهدا لها بآيات القرآن مخرجا لتلك الآيات على الوجوه البلاغية مبينا فى دراسته لهذه الشواهد سلامة نظم القرآن ، وسلاسة أسلوبه ، وبلاغة معانيه ، وفصاحة ألفاظه ثم يقارن بين هذه الشواهد وأمثالها من النثر والشـــعر ليثبت بلاغة القـــرآن واعجاز البشر عن الاتيان بمثله — ولم أر غيره ممن سبقوه فى التأليف يعنى ببيان بلاغة القرآن وبديعه على الوجه الصحيح مثلما نرى مؤلفات زكى الدين وكان هدفه من وراء ذلك : سهولة استخراج اعجاز القرآن وتقريب طرق اطنابه وايجازه [(١)] ولذلك فقد كان ابن أبى الاصبع متفـــردا بهـــذه الدراسة ، وان سبقه غيره الى الاستشهاد ببعض الآيات على بعض الألوان البديعية كابن المعتز وأبى هلال والرمانى الا أن ذلك لم يكن على سبيل الحصر لهذه الأنواع كما هو الحال لديه .

---

(١) (انظر مقدمة بديع القرآن) .

تركت مصر وانتقلت الى اليمن حيث التقيت بأمير المؤمنين هناك : يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى الذى ولد سنة ٦٢٩ هجرية فزخرت حياته بالعمل الدائم والجهاد المتواصل الى أن قبض رحمه الله سنة ٧٢٩ هـ وقد يلفت نظر الباحث من مؤلفات هذا العلامة الكبيرعدة تصانيف أهمها :

« كتاب الانتصار على علماء الأمصار فى تقرير المختار من مذاهب الأئمة وأقاويل الأمة » • ويبدو من هذا العنوان الكبير لموضوع الكتاب أن الرجل جهد غاية الجهد • ولا غرو فقد صاغه فى ثمانية عشر مجلدا بالاضافة الى أن له كتابا آخر سماه : « الحاصر لفوائد مقـــدمة طاهر » وهو شرح مبسوط على مقدمة أبى الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ ابن داود المصرى النحوى •

أما ثالث الكتب ذات الأهمية من مصنفات اليمنى فهو كتاب : « الطراز » الذى ضمنه أسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز وهو الذى يهمنا أكثر من سابقيه فى ذلك المجال • ولما كان المؤلف فى علوم البلاغة ، والبلاغةفىنظر صاحبه وسيلة لمعرفة اعجاز القرآنرأيتأن أسير معهخطوة خطوة كى أتعرف مصادر « الطراز » والسبب الذى دعا صاحبه لتأليفه ومنهجه فيه ، وأشهر ميزاته ، حتى اذا انتهيت من هذا كله عرضت لمنزلة علم البيان بين العلوم الأدبية فى نظر المؤلف ومعناه لديه ، وموضوعه عنده ، وربما يسفر مثل هذا العرض عن جديد حيال تلك الأمور جميعها أو يتطرق الحديث الى خوض غيرها ، ولمسه من قريب أو بعيد • مع الوقوف أمام بعض الأراء وتفنيدها ومناقشتها ان كانت معالجتها تتطلب ذلك وتلح عليه •

فأما من ناحية مصادر كتاب « الطراز » فنجد المؤثرين فى اليمنى بتأليفهم أربعة علماء أجلاء ، وسوف نقدم أسماء هذه الكتب على أسماء أصحابها تمشيا مع خط التأثر لدى اليمنى ..

فأولها « المثل السائر » لأبى الفتح نصر بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير ، وثانيها : « التبيان فى اعجاز القرآن » لعبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصارى ، وثالثها « نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز » لفخر الدين بن الخطيب الرازى . أما رابعها فهو « المصباح » لابن سراج المالكى .

ومع اعتراف العلوى اليمنى بتأثره بمن سبق من أصحاب الكتب التى استمد منها كتابه فقد يقرر بأن أول من أسس هذا العلم ووضع قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجانى .

والذى أراه أن العلوى قد بالغ فى هذا ايما مبالغة ذلك لأن قواعد البلاغة ، وأصول علم البيان قد وضعت بذورها بل وأتت بعض الثمار قبل عبد القاهر بكثير ، ولا أدل على ذلك من تلك الجهود الجبارة التى تصادفنا فى كل ناحيةوكل طريق ! جهود الجاحظ ، وابن المعتز ، وقدامة ، وأبى هلال ، وابن رشيق ، وابن سنان الخفاجى ، كل واحد من هؤلاء لا شك قد سد ثغرات فى هذا الميدان الأمر الذى لم يجعل لعبد القاهر الا أنه رتب ونظم وبوب وصنف ، وان كانت له زيادات فقد تلمسها اذا عرفت أنه فلسف هذه المادة التى فصلته عن السابقين بذوق قوى وقريحة وقادة ، ففرض الشواهد على القواعد لكى يزيل جمودها ، ورد على المعترضين والمناوئين وبين عذرهم ولكنه برغم هذا كله لا يستطيع به اليمنى أن يرد اعترافاتنا للسابقين خاصة من كتب فى بيان القرآن من أمثال : أبى عبيدة وابن قتيبة والرمانى والجاحظ والخطابى والباقلانى

ولماذا نذهب بعيدا والدليل المادى حاضر بين أيدينا والشـاهد أمامنا شاهد عيان ؟

ان العلوى نفسه قد اعترف بأنه لم يطلع على مؤلفات عبد القاهر الجرجانى حيث يقول :[1] •

« وله من المصنفات فى البلاغة كتابان أحدهما لقبه بـ « دلائل الاعجاز » والآخر لقبه بـ « أسرار البلاغة » ، ولم أقف على شىء منهما مع شغفى بحبهما ، وشدة اعجابى بهمـا الا ما نقله العلماء فى تآليفهم منهما » هـذه عجالة يسيرة عن المصادر التى استقى العلوى مؤلفه ومدى الصحة أو الخطأ فى ذلك السبيل •

أما عن السبب الذى دعاه الى تأليفه « الطراز » فهو أن جماعة من خلصائه وصفوة صحبته أشاروا عليه بعد أن قرأوا تفسير الكشاف للزمخشرى بأن يملى فى اعجاز القرآن كتابا فأجابهم الى طلبتهم وحقق لهم رغبتهم ، ولننسحب من الميدان لندع العلوى يحدثنا عن القصة التى ارتبطت بهذا الهدف حيث يقول [2] :

« ان جماعة من الاخوان شرعوا فى قراءة « الكشاف » للزمخشرى الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمد بن عمر الزمخشرى » فتحقق لديهم أنه أسسه على قواعد هذا العلم ، فاتضح عند ذلك وجه الاعجاز من التنزيل ، وعرف من أجله التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل ، وتحققوا أنه لا سبيل الى الاطلاع على حقائق اعجاز القرآن الا بادراكه ، والوقوف على أسراره وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان يمتاز عن

---

(١) مقدمة الطراز .

(٢) المصدر نفسه ١ : ٥

سائر التفاسير لأنى لم أعلم تفسيرا مؤسسا على علمى : المعانى والبيان سواه ، فسألنى بعضهم أن أملى فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق، فالتهذيب يرجع الى الألفاظ والتحقيق يرجع الى المعانى اذ كان لا مندوحة لأحدهما عن الثانى » ولعمرى فهذه نظرة طيبة ولفتة مباركة تلك التى استجاب لها العلوى فجند لها نفسه وشحذ لها حسه فكان له أخيرا ما أراد واستطاع قلمه فى مدى سنين عدة أن يسود صفحات زاد بريقها يوما بعد يوم وآنا اثر آن حتى استقرت أخيرا وهى المصباح الوهاج الذى يشهد لصاحبه بطول الباع •

أما عن المنهج الذى اتبعه المؤلف فى هذا التأليف بالذات فيتلخص فى ثلاثة فنون :

الأول : المقدمات وتحدث فيها عن تفسير علم البيان ، وماهيته ، وموضوعة وبيان ماهية البلاغة والفصاحة ، والفرق بينهما ، ومعنى الحقيقة والمجاز وبيان أقسامهما •

الثانى : ذكر فيه المباحث المتعلقة بالمعانى وعلومها وأردفه بالمباحث المتعلقة بعلوم البيان وأقسامها ، وعقب على الاثنين بمباحث علم البديع بذكر خصائصه وألوانه وأحكامه اللائقة به •

ونلاحظ على عمل العلوى فى هذا الفن أنه احتذى طريقة الزمخشرى [1] والسكاكى والقزوينى فى تقسيم علوم البلاغة الى معانى ، وبيان ، وبديع •

ولاشك أنه بهذا التقسيم قد انحاز الى الاتجاه الكلامى فى دراسته •

الثالث : ذكر فيه ما يكون جاريا مجرى التتمة والتكملة لهذه العلوم الثلاثة فذكر فيه فصاحة القرآن الكريم وبين أنه قد وصل الغاية التى

---

(١) انظر مقدمة الكشاف .

لا غاية فوقها ، وان عظم دخوله فى البلاغة والفصاحة قد بلغ النهاية فلا يدانيه نص آخر ، ولا يماثله ، وذكر فيه كذلك عدم قدرة الخلق على الاتيان بمثله ، وبين وجه اعجازه ، وذكر أقوال العلماء السابقين وظاهر الوجه المختار عنده .

فالفن الثالث للثانى على وجه الأكمال والتتميم ، والفن الأول للثانى على جهة التمهيد والتوطئة كما يكون مودعا للفن الثانى وهو فن المقاصد . هذا بالاضافة الى أنه نعى على كثير من السابقين عدم تحديدهم البيان تحديدا جامعا مانعا كغيره من العلوم الأخرى كالنحو والفقه وعلم الأصـــول [1] .

وذلك هو السبب الذى دعاه الى وجوب معرفة ماهيته ومن الممكن حصر ذلك فى أمرين :

أولهما : أن الخوض فى تقاسيمه وخواصه وبيان أحكامه فرع على تصور ماهيته لأن من الجمال معرفة حكم الشىء قبل فهم حقيقته .

ثانيهما : أن الخوض فى علم البيان ومعرفة أسراره ودقائقه انما هو خوض فى المركبات ، ومعرفة ماهيته خوض فى المفردات ، ولا شك أن معرفة المفرد سابقة على معرفة المركب ، ولهذا وجب معرفة ماهيته كى تتحدد كل الخصائص ، وقبل أن نحدد ماهية علم البيان لدى العلوى كى نخلص منها الى منزلته لديه نحب أن نسطر ملاحظتنا على الميزات التى يتمتع بها كتابه الطراز عن غيره من كتب البيان العربى . ومن الممكن حصر هذه الميزات فى اثنتين :

١ ــ ترتيبه الذى يعرف الناظر فيه من أول وهلة على مقاصد هذا العلم ، ويفيده الاحتواء على أسراره .

---

(١) الطراز ١ : ٨ .

٢ ــ اشتماله أيضا على التسهيل والتيسير والايضاح والتقريب لأن مباحث علم البلاغة فى غاية الدقة وأسراره فى نهاية الغموض فهو أحوج العلوم الى الايضاح والبيان •

ولنعد الى ما كنا فيه فنقرر أن ماهية علم البيان عند اليمنى تتحدد بالاضـــافة اذ يقال فيه : علم المعانى ، أو علم البيان والمعانى فهذه التسميات كلها جرت على ألسنة العلماء ونقلت عنهم •

فقد نقل عنهم أن المراد بعلم المعانى ــ منفردا عن البيان ــ المقاصد المفهومة من جهة الألفاظ المركبة لا من جهة اعرابها ، والمفهوم من علم البيان هو الفصاحة ، وهى غير مقصورة على الكلمة المفردة دون المركبة فعلم المعانى والبيان يرجعان فى الحقيقة الى علم البلاغة والفصاحة • هذا على رأى من يفردهما أما اذا جمعا فانه يروى لهما ثلاثة تعريفات :

الأول : العلم بجواهر الكلم مفردة ومركبة ، ودلائل الألفاظ لا من جهة وضعها واعرابها ، (والعلم بجواهر الكلم) يشير الى البيان •

ودلائل الألفاظ المركبة يشير الى علم المعانى ، لأن المقصود منه هو البلاغة ، وهى لا توجد الا من جهة التركيب ، ولا شك أن القيــد الأخير وهو ــ لا من جهة وضعها واعرابها ــ يبعد البلاغة عن علم اللغة والنحو لأن الأول يقصد به احراز معانى الالفاظ المفردة والثانى يكون من جهة الاسناد والتركيب ، ودلالة الألفاظ على المعانى والبيان أمر وراء ذلك مع كونه متوقف عليهما •

الثانى : العلم بما يعرض للكلمة المفردة والمركبة من الفصاحة ، ويعرض للكلمة المركبة من البلاغة •

أما التعريف الثالث فهو : العلم الذى يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الاعجاز لأن الاجمـاع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل الى الاطلاع على معرفة حقائق الاعجاز وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة الا بادراك هذا العلم واحكام أساسه .

ولعلنا بعد تحديد ماهية هذا العلم ، وبيان أبعاده كما تراءى لليمنى نرى لزاما علينا أن نعرض أيضا لمنزلته بين العلوم الأدبية ، وسوف نترك ذلك للمؤلف نفسه ليقول عنه فى مقدمته :

« .. فان العلوم الأدبية وان عظم شأنها ، وعلا أوج الشمس قدرها ومكانها ، فان علم البيان هو أمير جنودها وواسطة عقودها ، وفلكها المحيط الدائر ، وقمرها الساحر الزاهر .. ولولاه لم تر لسانا يحوك الوشى من حلل الكلام ، وينفث السحر مفتر الأكمام وكيف لا وهو المطلع على أسرار الاعجاز ، والمستوى على حقائق علم المجاز ، فهو من العلوم بمنزلة الانسان من السواد ، والمهيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد » .

تلك هى منزلة علم البيان بين العلوم الأدبية فى نظر العلوى ، ومن أجل هذا ألف كتابه ليسير الى تلك المنزلة السامقة ، ولينبه على مقاصده ومناظمه ، وهو بين هذا وذاك لم ينس أن يشير الى تراجمه :

وقد كثر فيه خوض علماء الأدب ، وأتى فيه كل بمبلغ جده وجهده ومنتهى علمه ، ومقدار وجده حرصا منهم على بيانه ، وشغفا منهم بضبطه واتقانه ، وأتوا فيه بالغث والسمين ، والنازل والثمين وهم فيما أتوا به من ذلك فريقان :

١ — فريق بسط كلامه فيه نهاية البسط ، وخلط فيه ماليس منه فكان آفته الأملال .

٢ ــ وفريق أوجز كلامه غاية الايجاز ، وحذف منه بعض مقاصده فكان آفته الاخلال •

وهكذا سار العلوى فى بحثه،فعرض لكل هاتيك الأمور التى قدتطرأ على ذهن أى متسور لهذا الميدان الرحب للبيان ، وخلص من ذلك كله الى الحديث عن موضوع علم البيان فكان مما قال : « ان موضوع علم البيان هو علم الفصاحة والبلاغة ، ولهذا فان الماهر فيه يسأل عن أحوالهما وحقائقهما اللفظية والمعنوية ، فيحصل من النظر فى الألفاظ المفردة ادراك الفصاحة ، ويحصل من النظر فى المعانى المركبة أحوال البلاغة » •

وقد يقال : أن الأمر يلتبس مادام موضوع علم اللغة ، وعلم الاعراب ، وعلم البيان واحدا وهو الألفاظ •

ولكن اليمنى يدفع التباس هذا القيل بما لا يدع مجالا للشك ، أو مدخلا للطعن والوهم ، وذلك اذ يرى أن علم اللغة وعلم الفصاحة ، وان كان متعلقهما الألفاظ المفردة لكنهما يفترقان فى الدلالة : فان نظر اللغوى مقصور على معرفة ما يدل عليه اللفظ بالوضع ، وصاحب علم البيان ينظر فى الألفاظ المفردة من جهة جزالتها وسلامتها من التعقيد وبراءتها عن البشاعة مع ما يتعلق بها من الأنواع المجازية فانها مؤدية للمقصود بالطرق المختلفة •

وهكذا النحو وعلم المعانى : فانهما وان اشتركا فى تعلقهما بالألفاظ المركبة الا أن نظر أحدهما مخالف لنظر الآخر •

فالطريق الى البلاغة فى نظر اليمنى يتلخص فى : معرفة اللغة اذ أن من لم يعرف شيئا منها لا يمكن أن يخوض فى عارض من عوارضها فيعرف المتداول والمألوف ، والذى كثر استعماله ، ويستوعب معانى المفردات ونسبتها الى الفاظها المفردة حتى يكون على علم تام بالمترادف

والمتواطىء ، والمشترك والمتباين ، كما أنه لابد لطالب البلاغة من اتقان علم النحو وليس معنى ذلك أنه يختص بالبلاغة وحدها بل هو لازم لكل ناطق بالعربية كى يكون بعيدا عن زلل اللحن وسقطه ، وأيضا فلابد له من اتقان علم التصريف حتى يكون على بينة من أبنية الألفاظ المفردة ، ومعرفة صحيحها ومعتلها ، وزائدها ومجردها ، وهذه الأشياء الثلاثة أصول لابد منها . هذا بالاضافة الى وجود أشياء أخر ، ولكنها تعد ثانوية اذا قيست بما سبق بيانه لأن بها الكمال والتمام ليس غير ، وذلك كمعرفة أمثال العرب ، وحكمهم ، وآداب محافلهم ، وحفظ الكثير من أسفارهم الى غير تلك الأمور التى تشحذ (الملكة) وتنمى الموهبة .

والناظر الى اليمنى فى هذه النقطة بالذات يجده قد تأثر بابن الاثير وابن أبى الاصبع اللذين يريان أنه لابد من اضافة الصفات الدرسية الى الصفات الفطرية [1] .

ونحن وان ضربنا صفحا عن ذلك كله فان صنيعنا هذا لا يعدو الا أن يكون انتقالا من حسن الى أحسن ، وقد تدرك ذلك اذا علمت أن الهدف أو الثمرة التى تهدف اليها البلاغة على مقصدين اثنين لا ثالث لهمـا :

أولهما : دينى وهو هدف مهم يتلخص فى معرفة اعجاز القـرآن الذى هو معجزة الرسول الكريم ، ذلكم لأنه لا يمكن الوقوف عليه الا باحراز علم البلاغة التى بها وحدها افتخر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث يقول :

« أنا أفصح من نطق بالضاد » ويقول : « أوتيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى كان كل نبى يبعث الى قومه ، وبعثت الى كل أحمر وأسود ، وأحلت

(١) انظر مقـدمة الاستدراك لابن الاثير وكذا باب التهذيب والتأديب من تحرير التحبير لابن أبى الاصبع

لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأوتيت جوامع الكلم » (١) .

أما المقصد الثانى فيعتبره اليمنى مقصدا عاما لا يتعلق به غرض دينى ، وهو الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة فى غير القـــرآن الكريم .

وأنا أرى أن هذا المقصد العام يتضمن المقصد الأول تبعا ، اذ أن كل ادارك مفيد مقصود به اعمال الذهن ، واتمام النظر لا يرفضه القرآن أو الدين ان لم يكن يدعو له ويحض عليه .

وبعد : فنحن فى حل بعد ذلك كله من الانتقال الى نقطة أخرى جديرة بالبحث التقينا بها على نحو واسع فى كتاب الرجل ، ويقصد بها مسألة الألفاظ والمعانى أو قل مشكلتها وكلاهما صحيح فاذا كان الأمر فالى المعـــركة .

لا زلت بفكرة الاعجاز البيانى مع اليمنى فى كتابه الطراز ، وقد بينت فيما سبق الوسائل البلاغية التى يجب معرفتها حتى يصل الباحث ألى الاعجاز البيانى .

تحدث اليمنى فى المقدمة الثانية عن الألفاظ ودلالتها وأفاض فى حديثه هذا لدرجة بعيـــدة المدى ، اذ اتبع النهج المنطقى فى تقسيم الدلالة من حيث دلالة الألفاظ على معانيها فجاء ذلك على ثلاثة ضروب : دلالة مطابقة ودلالة تضمن ودلالة الالتزام .

كما أنه جعل حديثه فى المقدمة الثالثة مقصورا على الحقيقة والمجاز وبيان الأسرار التى تكمن وراء كل منهما .

---

(١) « ص ٣٣ : ١ من الطراز » .

فالنحو ينظر فى التركيب من أجل تحصيل الاعراب كى تحصل كمال الفائدة ، أما علم المعانى فانه ينظر فى الدلالات الخاصة وهى ما تحصل عند التركيب من بلاغة المعانى •

هذه هى التفرقة الواضحة لدى اليمنى فىهذه العلوم والناظر الى رأيه هنا يجده متأثرا بابن الأثير الى حد كبير ، والقارىء لمقدمة كتاب الاستدراك فى سرقات المتنبى من أبى تمام يعرف الى أى مدى قد تأثر يحيى العلوى بضياء الدين • هذا من ناحية •

ومن ناحية أخرى فانه يخالف عبد القاهر الجرجانى ، الذى يرى البلاغة أو البيان فى النظم الذى هو توخى معانى النحو •

هذا ولم يقتصر بحث اليمنى على هذه الناحية النظرية بل شفعها بدراسة تطبيقية بين فيها الفروق بين كل من هذه العلوم : علم اللغة وعلم البيان وعلم المعانى وعلم النحو وان كان موضوعها جميعها واحدا هو الألفاظ : مفردة أو مركبة •

وكانت وسيلته الى بيـــان ذلك كله سوقه مثالا قرآنيا هو قوله تعالى « **ولكم فى القصاص حياة** » • موضوعين لمعانيهما المفردة وغير ذلك من سائر الكلمات المفردة ، ونظر صاحب البيان من جهة سلامة هذه الألفاظ المفردة عن التعقيد وسلاستها وسهولتها على اللسان وهذا هو المقصود بالفصـــاحة فقد افترقت الدلالتان مع اشتراكهما فى التعلق بالألفاظ المفردة •

ونظر النحوى من جهة رفع المبتدأ وتقديم خبره عليه وتنكير المبتدأ أو توسيط الظرف الى غير ذلك •

ونظر صاحب المعانى من جهة بلاغتها وتأدية المعنى المقصود منها على أوفى ما يكون واعلاه وهذا هو المراد من البلاغة فقد افترقا مع اشتراكهما فى تعليقهما بالتركيب •

ومن أحاط علما بالفصاحة وتغلغل فكره فى احراز أسرارها عرف أن بين ما ورد فى التنزيل وبين ما أثر عن العرب « القتل انفى للقتل » بونا لاتدرك غايته وبعدا لا يحصر نفاوته •

ولاشك أن اليمنى بهذا كله واضح التأثر بالزمخشرى فى تفسيره ولا آدل على هذا من تفسير الزمخشرى لآية « **ولكم فى القصاص حياة** »

هذا هو موضوع علم البيان فى نظر هذا العلامة الكبير وذلك هو معناه وقد يسأل عن منزلة علم البلاغة بين العلوم الأدبية فأقول نقلا عن اليمنى :

ان علم البلاغة بين علوم العربية يقع عليها مكان الواسطة من عقدها وهو أجلها قدرا ومكانا واعلاها منزلة وأكبرها شأن لأنه علم يستولى على استخراج اسرار البلاغة من معادنها • وهذه توجد محاسن النكت المودعة فى أصدافها ومكامنها وهو الغاية التى ينتهى اليها فكر النظار ، والضالة التى يطلبها غاصة البحار وعليه التعويل فى الاطلاع على حقائق الاعجاز فى القرآن الكريم •

وهكذا يتبين لنا منزلة علم البيان أو البلاغة لدى اليمنى ومقدار شرفه ومدى رتبته ، وحسبه أنه العلم المعول عليه فى اكتناه اسرار الاعجاز لأطهر كتاب مقدس وهو القرآن الكريم •

بقى شىء آخر وهو الطريق الى تحصيل هذا العلم وتمشيا مع المنهج الذى اخترناه من أول السبيل نرى أن نضع نصوص الرجل بين أيدينا لتكون سندنا أولا وأخيرا على صحة ما نقول .

وقد عد هذا من أعظم قواعد علم البيان وسر جوهره اذ أن الثمرة المرجوة منه لا تظهر الا باستعمال المجازات الرشيقة والاغراق فى اللطائف الرائعة التى بها قوام هذا الفن .

ولم ينس اليمنى مشكلة الحقيقة والمجاز فى اللغة بل عرج عليهما فيها وأدلى بدلوه مع من ألقى الدلاء فناقش بما لا يدع مجالا للشك فى الأجابة على هذا السؤال : هل اللغة مجاز كلها أم هى كلها حقيقة ؟

وأبطل الرأيين ، ثم نقل عن كثير من العلماء معنى الحقيقة والمجاز وخص بالذكر كلا من : عبد الله البصرى وعبد القاهر الجرجانى وابن جنى وابن الأثير ضياء الدين وغيرهم .

أما عن المقدمة الرابعة من كتابه فقد فرق بين الفصاحة والبلاغة وجعل الفصاحة خلوص اللفظ من التعقيد فى تركيب الأحرف والألفاظ جميعا ، ولم ينس الأصوات ومخارجها فتكلم عنها متأثرا بابن سنان الخفاجى ، وجعل مرجع حسن التأليف فى اللفظة الذوق السليم والطبع المستقيم ، ورد على من نفى القبح فى الألفاظ مدعيا أنها كلها حسنة اذ الواضع قد راعاه وعمل حسابه فأبطل اليمنى رأى من يقول بذلك وطال نقاشه فى « طرازه » .

أما البلاغة فقد جعلها عبارة عن الوصول الى المعانى البديعية بالألفاظ الحسنة ، وهو بذلك قد جعل الفصاحة من عوارض الألفاظ ، والبلاغة من عوارض المعانى والألفاظ جميعا مع اختصاصها بالكلمة

المركبة ، وهو أيضا يفرق بين البلاغة والفصاحة تفرقة يخالف بها عبد القاهر الذى يراهما من الألفاظ المترادفة •

بعد هذا يجىء دور المقدمة الخامسة من كتاب الرجل لتحدثنا عن حصر مواقع الغلط فى اللفظ المفرد والمركب فبعلم اللغة يحترز عن الخطأ فى مفردات الألفاظ ، وبعلم التصريف تصحح ابنية الألفاظ المفردة وبعلم النحو يحترز عن الغلط فى المركبات ، وبعلم الفصاحة والبلاغة يأمن البليغ الخطأ فى نظم الكلام وجزالة لفظه وحسن بلاغته ويقف على معانى الكلام ونكاته النفسية •

فالعلمان الأولان : علم اللغة وعلم التصريف ـ انما يختصان بمفردات الألفاظ تصحيحا وبناء لا تركيبا ودلالة • والعلمان الأخيران : الاعراب ، والبلاغة والفصاحة ـ يختصان بمركبات الألفاظ وما يحصل عند التركيب من المعانى الدقيقة وان تفاوتا فى الأداء والفائدة •

فعلم النحو يؤدى مطلق المعنى لا غير وعلم البيان يؤدى فائدة أخرى فوق هذا وهى ما يحصل من بلاغة فى ذلك المعنى وحسن نظمه وتركيبه ، فهو كالكيفية العارضة •

وبهذه الالمـــامة نرى أن اليمنى فى هذا متأثر بعبد القاهر من حيث أن المقصود من المعنى فى نظره هو معنى المعنى •

ولاحظت أيضا أن اليمنى وجد فى عصر البديعيات والشروح فكان فريدا فى عصره لأنه لم يؤلف بديعية يشرحها هو أو غيره ، كما لم يصنع تلخيصا ولا ايضاحا للمفتاح بل نهج منهج المؤلفين الذين عرفوا بالاتجاه الأدبى •

ولاحظت عليه أيضا أنه ينهج منهج ابن الأثير فى النظم فى اختيار الكلم المفـــردة ، ونظم كل كلمة مع ما يشـــاكلها أو يماثلها ، ومطابقة

الغرض المقصود من الكلام ، والألفاظ عنده تابعة للمعانى وينكر على مخالفى هذا الرأى قولهم : « ان المعانى لا يرسخ معقولها فى الأفئدة الا بعد أن تخرق الألفاظ قراطيس أسماعهم ويبطل ذلك بما يأتى :

١ ــ هو أن معنى الفرس والأسد والانسان مفهوم عند العقلاء لا يتغير ، والعبارة عن كل واحد من هذه الحقائق تختلف عليه بحسب اختلاف اللغات من العربية والفارسية والتركية والرومية ، فلو كانت المعانى تابعة للألفاظ كما زعموا لوجب أن تكون مختلفة لاختلاف هذه الألفاظ ، فلما عرفنا خلاف ذلك دل على صحة ما قلناه من كون المعانى أصلا للالفاظ .

٢ ــ المعانى منها ما يكون معنى واحدا ثم توضع له ألفاظ كثيرة تدل عليه وتشعر به ، فلو كانت المعانى تابعة للالفاظ للزم اختلاف المعانى لاختلاف الألفاظ ، ولكن لما كانت المعانى واحدة والألفاظ متعددة بطل ما قالوه [١] .

٣ ــ لو كانت المعانى تابعة للألفاظ للزم أن يكون لكل معنى لفظ يدل عليه وهذا باطل لأن المعانى غير متناهية والألفاظ متناهية ، وما يكون بغير نهاية لا يتبع ما له نهاية .

ولكنه مع هذا يرى أن قوة الألفاظ تفيد قوة فى المعنى ، فاذا نقل اللفظ الى صيغة أكثر منها حروفا يقوى المعنى لزيادة اللفظ ، والا كانت الزيادة لغوا لا فائدة فيها ففى قوله تعالى : « **الحى القيوم** » كلمة القيوم أقوى من كلمة قائم وأبلغ وكذلك « **علام الغيوب** » .

---

(١) الطراز ٣ : ١٥١ .
(٢) االمصدر نفسه ٢ : ٢٣ .

وقوله « **ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** » فالغيوب والتوابين والمتطهرين أبلغ مما جاء منها على فاعل لتكرر التوبة ، وكثرة الطهارة فى صيغة القرآن ، وكذلك قول أبى نواس :

فعفوت عنى عفو مقتدر جلت له نقم فألقاها

فلم يقل قادر مبالغة فى الأمر وكقوله تعالى « **فكبكبوا فيها** » فانه مأخوذ من الكب وهو القلب فكرر الباء والكاف للمبالغة فيه . وكقوله تعالى « **لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت** » فانه سبحانه وتعالى جعل الثواب على أدنى ملابسه للطاعة ، فلهذا أتى فيه بالثلاثى ، وجعل العقاب على مزاولة عظيمة للفعل لهذا خصه ببناء المبالغة بالزيادة على الثلاثى .

ولا شك أن قولك سوف أفعل أبلغ من سأفعل لوسع زمان التعبير الأول وامتداد زمانه لامتداد حروفه .

ولا يخيل الينا مما سبق عندما قال : بأن الألفاظ تابعة للمعانى أنه يفضل المعانى على الألفاظ لا انه يريد أن يبين لنا منزلة اللفظ من المعنى فيقول : « ان منزلة اللفظ من المعنى هى منزلة الروح من الجسد فكل لفظ لا معنى له فهو بمنزلة جسد لا روح فيه » .

وبعد أن تكلم عن الألفاظ مفردة وبين منزلتها من المعانى أراد أن يبين رأيه فيها منظومة فقال : ما يستحقه من الأعراب واعمال العوامل وتوخى معانى النحو ومجاريه التى يستحقها ، وبيان ذلك هو أن وضع الكلمة المفردة بالاضافة الى واضع اللغة لا تغيير لها ، والتصرف لأهل البلاغة انما هو فى التأليف ، فقوله تعالى :« **الحمد لله رب العالمين** » مقولة على ألسنة الناس ، والاعجاز انما كان من أجل نظمها وتأليفها بحيث « الحمد » مبتدأ ، و « لله » متأخر عنه خبره و « رب العالمين » مضاف وأجزاؤه

صفة لما قبله فى الاعجاز من جهة النظم ، فاذن حال أنفس الكلم مع المؤلف كحال الأبريسم مع ناسج الديباج ، والذهب مع صانع التاج فحظه من ذلك انما هو تأليفها ونظمها لا غير .

واليمنى يحذو حذو عبد القاهر الجرجانى فى فكرة النظم ، ولا فرق بينهما الا فى أن اليمنى يقصر الجمال على النحو والاعراب فقط فى حين يرى الجرجانى بجوار ذلك ترتيب المعانى فى النفس الذى يراعى لأجله الترتيب النحوى ، كما أن معنى النحو عند عبد القاهر عام ، وعند اليمنى خاص ، ويتفقان فى الهدف من دراسة البلاغة .

وأحب أن اقرر هنا أن اليمنى أكثر من جمع أقوال السابقين وآرائهم فى البلاغة العربية وناقش أكثرها ونقد بعضها ، ووافق على البعض ، ورد البعض الآخر .

يرى اليمنى أن ادراك الاعجاز لا يتحقق الا بمقياسين :

الأول : أن يقاس ما فى القرآن على قواعد الفصاحة والبلاغة التى قررها وشرحها فى الطراز ، وأحب أن أناقشه هنا وأقول له : كيف تقيس ما فى القرآن على قواعد الفصاحة والبلاغة وهى مستمدة منه ؟

الثانى : أن يقاس ويقارن بأقوال البلغاء فيظهر فضله فى الحالين ، ولقد فعل هو كما فعل من قبله ابن أبى الأصبع المصرى فى بديع القرآن من المقارنة بين بلاغة القرآن وأسلوبه وبين شعر الشعراء ، ونثر الكتاب فجاء القرآن فى المرتبة العليا ، وفى ذلك تطبيق لمقاييسه .

وبعد أن بين معنى علم المعانى وما يتعلق به والبيان وما يختص به تكلم عن البديع مبتدئا بمعنى البديع وعرفه بقوله (١) : وأما فى مصطلح

---

(١) الطراز ٣ : ٢٠٦ .

علماء البلاغة ، فهو عبارة عن الكلام المؤلف على جهة الاسناد المجازى من حيث الاستعارة » [1] .

وبشرح هذا التعريف نلاحظ عليه أن البديع عند اليمنى خاص بالكلام دون الأفعال ، وبالكلام المؤلف دون المفرد على جهة الاسناد فلا علاقة بالبديع فى الكلام المركب لا على جهة الاسناد لأنه لا فائدة تحته ، والبديع انما يكون حيث تحصل الفائدة فأما مالا فائدة فيه فلاموقع لعلم البديع فيه ، كما لا يكون البديع الا اذا كان الأسلوب مجازيا فلا دخل له فى الأسلوب القائم على الحقيقة ، وليس كل مجاز يدخله البديع بل المجاز الاستعارى ، ولذلك كان المجاز أعم من البديع فى نظر اليمنى .

وبعد أن عدد أصنافه وصوره فى كتابه الطراز بأجزائه الثلاثة ، قسمه الى ما يرجع الى الفصاحة اللفظية ، وما يرجع الى الفصاحة المعنوية ، والضابط لديه أن كل ما كان متعلقا بالمعانى فهو من باب الفصاحة المعنوية ، وما كان متعلقا بالألفاظ فهو من باب الفصاحة اللفظية ، وهذا هو المراد من قوله : علم المعانى وعلم البيان ، وجعل من الصور البديعية ما يخرج عن الفصاحة اللفظية والمعنوية ولكنه ينزل منزلة التتمة والتكملة له ، ويكون تحسينا وتزيينا لمواقعهما وهذا نحو التكميل والايضاح وحسن البيان والتتميم والاستيعاب والتذييل الى غير ذلك من الصور التى لا تستقل بنفسها ، وانما يكون حصولها لتكميل الهيئة البلاغية .

---

(١) « الطراز ٣ : ٢٠٦ » .

ثم يبين فى ص ٣٤٧ من الجزء الثالث منزلة علم البديع من العلوم الأدبية اذ رتب العلوم الأدبية خمس مراتب كل واحدة منها أخص من الأخرى ، وجعل المرتبة الاولى لعلم اللغة والثانية لعلم التصريف والثالثة لعلم الاعراب ، والرابعة لعلم المعانى ، والخامسة لعلم البيان ، وجعله فى المرتبة السادسة لأنه الغاية التى تنتهى اليها كلها • اذ هو أخص من علم الاعراب لأن علم الاعراب تحصل فائدته بمجرد التركيب ، وعلم المعانى وان كان متعلقا بالتركيب الا أن له فائدة وراء ذلك ، وهى ما تتعلق بالأمور الخبرية من تعـريفها وتقديمها وتأخيرها وفصلها ووصـلها ، والأمور الانشائية الطلبية كالأوامر والنواهى والتمنى ، وجعل البيان فى المرتبة الخامسة ، وهو أخص من المعانى لانه حاصل دلالة التراكيب على معانيها اما حقيقتها بتشـبيه أو بغيره أو بمجازها واما بطـريق الاستعارة أو الكناية أو التمثيل •

وعلم البديع حاصله معرفة مقصود بلاغة الكلام وفصاحته ، وهذا لا يحصـل بتمامه وكماله الا باحراز ما سلف من العلوم الأدبية فهو خلاصتها ، وما أصدق اليمنى فى تشبيه العلوم الأدبية بعقد نفيس مؤلف من الدرر واللآلىء السليمة من الصدع تأليفا بديعا ، وتارة هذا العقد يجعل طوقا فى العنق ، وطورا اكليلا على الجبين ، وتارة يكون وشاحا على الخصر موضوعا على شكل يتلاءم وتأليفه • فالكلمات اللغوية بمنزلة الدرر واللآلىء ، وعلم التصريف بمنزلة السلامة من الصدع ، وتأليفها بمنزلة علم الاعراب ، وجعلها طوقا أو اكليلا أو وشاحا بمنزلة علم المعانى ، وجعله على الجبين أو فى العنق بمنزلة علم البيان ، واستواء العقد مطولا بطول الجبين أو مستديرا بتدوير العنق وجعله على المساحة اللائقة به بمنزلة البديع •

فعلوم البــلاغة من العلوم الأدبية ثلاثة : معان وبيان وبديع ، والأولان جزآن للثالث لا يوجدان الا اذ وجدا وهذا شأن الكلى أو الأعم •

والذى يهمنا من الطراز بحثه فكرة الاعجاز ، والاعجاز البيانى فى القرآن على الخصوص •

واليمنى بعد أن بين البلاغة بصورها الكلامية المتعددة التى ذكرها وسيلة للكشف عن اعجاز القرآن ، وليس هذا بجديد منه فقد قاله أغلب من ألف فى البلاغة من العلماء قبله — ويقول اليمنى [1] :

« ان الكلام فى الاعجاز أول المباحث الكلامية والأسرار الالهية ، لانه دليل النبوة » وهو وان أخر الكلام عن الاعجاز وقدم حديثه عن الاسرار لم يقصد من ذلك الا التدليل على أن البلاغة وسيلة ومقدمة لفهم الاعجاز البيانى لأنه فى الحقيقة هو الهدف المقصود والغرض المطلوب •

بدأ اليمنى حديثه عن الاعجاز بالكشف عن فصاحة القرآن ، وبين أنه بلغ الغاية القصوى ، ثم تحدث عن التحدى وعجز الخلق عن الاتيان بمثل أقصر سورة منه ، وتعرض لاقوال السابقين فى الاعجاز ثم حدد الرأى المختار عنده •

أما فصاحة القرآن فى نظره فهى أظهر من أن يكشفها كاشف ، كما لا خلاف بين العقلاء فى فصاحته وبلاغته ، وجعل الدليل على ذلك وجود الحقائق البلاغية المعنوية والفصاحة اللفظية ، وما يتعلق بهما فى القرآن ومادام الأمر كذلك فيجب القضاء بكونه فصيحا سواء كانت الفصاحة

---

(١) الطراز ٣ : ٣١٣ وما بعدها .

راجعة الى الألفاظ ، والبلاغة راجعة الى المعانى كما هو المختار عنده وهو فى هذا يخالف الباقلانى الذى يرى أن الصور البديعة ليست دليلا على الاعجاز •

كما جعل من الأدلة على بلاغة القرآن وفصاحته انك اذا وازنت بين ألفاظه ومعانيه ، وبين كلام البشر ـ وخاصة من عرف منهم بالفصاحة والبـــلاغة كالرسول صلى الله عليـــه وسلم وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ـ لوجدت تميز بلاغة القرآن بما لا يتمـــارى فيها منصف ، ولا يشتبه على من له أدنى ذوق فى معرفة بلاغة الكلم وفصاحته •

ولم يقف أمر اليمنى عند الموازنة النظرية بين القرآن وغيره من كلام البشر بل زاد المقارنة والموازنة وضوحا بالتطبيق حتى خرج من هذا بأن التمييز تارة يكون راجعا الى ألفاظه من فصاحة ابنيتها ، وعذوبة تركيب أحرفها ،وسلاسة صيغها ، وكونها مجانبة الوحشى الغريب ، وبعدها عن الركيك المسترذل •

ودليل ثالث ساقه للكشف عن بلاغة القرآن ، وهو شهادة أعداء القرآن ـ. والفضل ما شهدت به الاعداء ـ بأن أعلاه لمورق ، وأن أسفله لمغدق ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، فما تيسر منهم انسان ولا فاه لأحد منهم لسان الى مماثلة شىء من أساليبة ، ولا الى الاتيان بمثل أقصر سورة منه ، واستنتج من هذا الدليل أمرين •

الأول : اختصاصه بما لا يقدرون عليه ، ولهذا أظهروا الاعجاب من نفوسهم ، وخرجوا بالاستطراف من السنتهم •

الثانى : علمهم بالعجز واعترافهم بالقصور ، وهذا دليل على كونه بلغ أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة من جهة الاجمال •

كما أنه جعل من أدلة الاعجاز البيانى ما يرجع الى مفردات الحروف والى تأليف مفردات الكلم من هذه الحروف ، ومفردات الألفاظ تارة ومرة الى مركباتها ، فهذه وجوه أربعة لابد من اعتبارها فى كون اللفظ فصيحا ، وكلها حاصلة فى القرآن على أتم وجه[1] .

ولصولته الطويلة فى ميدان الفصاحة والبلاغة سبب وهو الدلالة على اشتمال القرآن على الوجوه البلاغية بحيث لاتتصورفىغيره الاوهى فيه أتم وأجدر ، ولا توجد فى غيره الا وهى فيه أقدم وأسبق ، وما ذاك الا لأنه لم تصفه أسلات الالسنة ولا أنضج بنار الفكرة ، وانما هو كلام سماوى ومعجز الهى [2] . وهو فى هذا يسير على نهج ابن أبى الاصبع الذى سبقه الى جمع الفنون البلاغية المعروفة حتى عصره ، واستخراج شواهد قرآنية لها ، ومقارنتها بشواهدها الشعرية ، والكشف عن تفوق القرآن فى ذلك .

واليمنى لم يترك السابقين من غير أن ينعى عليهم وقوفهم على مخارج الكلم وتقصيرهم فى كشف أسرار الاعجاز ، ولنسر معه حتى نقف على ما أتى به من جديد ان كان له فى الفكرة جديد .

واستدل اليمنى على التحدى : بتحدى النبى — صلى الله عليه وسلم — للعرب بأن يأتوا بمثله وعجزهم ، وأطال الحديث عن ذلك بما لا يخرج عما قاله السابقون ، ولم يزد فى هذا الموضوع عن أنه تخيل تسع أسئلة وجهها اليه موجه ملحد فأجاب عنها ليثبت جدارته الجدلية فى الرد والمناقشة ، فى حين أنها لا قيمة لها فى فكرة الاعجاز البيانى لأن من يتتبع الفكرة من نشأتها يســتطيع أن يجيب عنها لان أغلبها

---

(١) الطراز ٣ : ٣٣٠ .
(٢) الطراز ٣ : ٣٦٧ .

بديهيات كسؤال هل حصل التحدى أم لم يحصـــل ؟ وهل فهموا منه معنى المماثلة أم لا ؟

١ ــ لم ينس الاشارة الى مذهب الصرفة ونسبته الى النظام وتلاميذ النصيبى ، والشريف المرتضى ، ويقسم الصرفة الى ثلاثة أقسام والسبب الذى دفع أصـــحاب الصرفة الى التدين بها هو ما يرونه من الكلمات الرشيقة والبلاغات المستحسنة الجامعة لكل أساليب البلاغة فى كلام العرب الموافقة لمـــا فى القرآن ، فكل من قدر على ما ذكر من الأساليب البلاغية فى كلام العرب لا يقصر عن معارضته ، وكل ما قاله اليمنى عن الصرفة مسبوق اليه الا الثالث منها فلعله من تفسيره .

٢ ــ ثم ذكر الرأى القائل باعجاز القرآن لأسلوبه وأبطله مادام المراد به أى أسلوب ، والا كان أسلوب الشعر معجزا ، وان أراد أصحاب هذا المذهب أسلوبا خاصا متصفا بالفصاحة والبلاغة لم يكن الاعجاز من جهة الأسلوب ، وانما كان وجه الأعجاز الفصاحة والبلاغة ، وان أرادوا غير هذين التفسيرين فكان الواجب عليهم توضيح ما أرادوا حتى ينظر فيه فيقر بصلاحه أو فساده ، ولم يقف فى ابطاله لهذا الرأى عندما قاله . بل أكده بقوله : ان الأسلوب لا يمنع من الأتيان بأسلوب مثله لأن الأتيان بما يماثله سهل ويسير على كل واحد .

كما أبطله أيضا بأن الاعجاز لو كان بأسلوب القرآن لكان ما قاله مسيلمة فى معارضة القرآن معجزا ، ولمـــا وقع التفاوت بين آياته وكلام الفصحاء من العرب لاستوائهما فى الأسلوب ، وكان الأجدر باليمنى أن يوضح لنا ما يقصده بالأسلوب ، وهل المراد به صناعة الكلام أم يراد به تحريره وتهذيبه وأثره بعد ذلك فى نفوس سامعيه لمـــا يحتويه من العوامل المؤثرة ؟

---

(١) الطراز : ٣ : ٣٩٢ .

٣ ــ ذكر الوجه القائل باعجاز القرآن لخلوه من المناقضة ، وأبطله بأن التحدىوقع بكل واحدة من سور القرآن ، وقد يوجد فىالنثر والشعر ما يوازيه قدرا وهو خال من التناقض فيلزم تلك الخطبة وهذا الشعر أن يكون معجزا ، كما أن السلامة من التناقض ليس خارقا للعادة .

٤ ــ وذكر رأى القائل باعجاز القرآن لفصاحته ، وقصد بالفصاحة خلو الكلام عن التعقيد الموجود فى مثل قول القائل :

وقبر حــــرب بمكان قفــر وليس قرب قبر حــرب قبر

وأبطله بخلو كلام كثير من الناس من التعقيــد ، كما أن الأمر لو كان للفصاحة ، ولم يفترق الحال بين قوله تعالى : « **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ، ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** » .

وبين قول من قال : وأعظم العلامات الباهرة جرى السفن على المــاء فاما أن يريد هبوب الرياح فتجرى بها أو يريد سكون الريح فتركد على ظهره ، أو يريد اهلاكها بالاغراق بالمــاء لأن ما هذا حاله من المعارضة سالم من التعقيد .

٥ ــ ذكر مذهب من يقول : ان اعجاز القرآن فى اشتماله على الحقائق وتضــمنه للأسرار والدقائق التى لا تزال غضــة على وجه الدهر ، ما تنال لها غاية ، ولا يوقف لها على نهاية بخلاف غيره من الكلام والعلم أيضا .

٦ ــ تكلم على رأى من يقول : ان اعجاز القرآن ببلاغته ، وأراد بالبلاغة اشتماله على صور البلاغة « كالتشبيه والاستعارة والكناية وحسن التعليل والايجاز الى آخره » .

وهؤلاء ان أرادوا بما ذكروه أنه صار فصيحا بالاضافة الى ألفاظه، وبليغا بالاضافة الى معانيه ، ومختصا بالنظم الباهر ، فهذا جيد لا غبار عليه • وان أرادوا أنه بليغ بالاضافة الى معانيه دون ألفاظه فهو خطأ •• وهذا الرأى منسوب الى الرمانى[1] •

٧ ــ ذكر الوجه الذى يقول بأن الاعجاز قائم على النظم ، والمراد بالنظم عند أصحاب هذا الوجه هو نظمه وتأليفه الذى تميز به من سائر الكلام ــ ووجه اليمنى الى هؤلاء السؤال الآتى : ماذا تريدون باختصاصه بالنظم ؟ ان كنتم تعنون به أن نظمه هو المعجز من غير أن يكون بليغا فى معانيه ولا فصيحا فى ألفاظه فهو خطأ • فان الاعجاز شامل له بالاضافة الى كلا الأمرين جميعا • وان عنيتم أنه مختص بالبلاغة والفصاحة فلا ، ان اختصاصه بالنظم أعجب وأدخل فلهذا كان الوجه فى اعجازه فهذا خطأ ، فان مثل هذا لا يدرك بالفعل ، أعنى تمييزه بحسن النظم عن حسن البلاغة والفصاحة •

وأيضا فان ما ذكروه تحكم لا مستند له عقلا ولا نقلا ، ويرد عليهم بقوله أيضا : هل يكون النظم وجها فى الاعجاز مع ضم البلاغة والفصاحة اليه ، أو يكون وجها من دونهما ؟ فان قالوا بالأول فهو جيد ، ولكن لم قصروه على النظم وحده ولم يضموهما اليه ؟ وان قالوا انه يكون منفردا بالاعجاز من دونهما فهذا خطأ أيضا فان نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزا [1] • وهكذا أبطل اليمنى مذهب القائلين بأن الأعجاز للنظم لأنهم جعلوا فيه القسط الادنى فى الاعجاز للنظم من بين هذه العناصر الثلاثة ــ النظم والفصاحة والبلاغة • ويلاحظ أن اليمنى

---

(١) أنظر الكلام على الرمانى من هذا الكتاب ، ص ٦٩ وما بعدها من ثلاث رسائل فى الاعجاز •
(٢) الطراز ٣ : ٤٠٣ •

هنا يفصل بين هذه العناصر ، ويعطى للنظم مفهوما خاصا غير مفهوم عبد القاهر الجرجانى أو الباقلانى ، فالنظم عنـــدهما مرتبط بالمعانى والألفاظ لا ينفصل عنهما ولا سيما عند عبد القاهر .

فالنظم قائم فى حسن ترتيب المعانى فى النفس ، وحسن تأديتها بالألفاظ مع الاستعانة بقواعد النحو بمعناه الرائع .

ولا أدرى كيف يفصل اليمنى بين هذه الأمور الثلاثة التى تكون شيئا واحدا ؟ اللهم الا اذا قصد بالمعانى الأغراض العامة التى يقال فيها ، وقصد بالألفاظ مجرد قيمتها الموسيقية .

٨ ــ تكلم على رأى من يقول بأن اعجاز القرآن انما هو مجموع هذه الأمور كلها ، ثم عارضه بقوله : « وأبطلنا قول أهل الأسلوب وغيره من سائر الأقاويل فلا يجوز أن تكون معدودة فى وجوه الاعجاز لأن الأمور الباطلة لا يجوز ان تكون عللا للأحكام الصحيحة » .

٩ ــ وذكر وجها آخر فى الاعجاز ، وهو أن اعجاز القرآن انما هو بما تضمنه من المزايا الظاهرة والبدائع الرائعة فى الفواتح والمقاصـــد والخواتيم فى كل سورة ، وفى مبادىء الآيات وفواصلها .

وهذا الوجه لم يرفضه اليمنى وانما علق عليه بقوله : « وهذا الوجه هو السديد فى أوجه الاعجاز للقرآن ، كما سنوضح القول فيه بمعونة الله تعالى » . ثم قال بعد ذلك : « والذى نختاره فى ذلك ، ولم يعد فيه هذا الوجه ، بل ما عده معجزا هو الوجه الذى جمع الخواص الثلاثة الآتية :

الأولى : الفصاحة فى ألفاظه ، على معنى أنها بريئة عن التعقيد والثقل ، خفيفة على الألسنة ، تجرى عليها كأنها السلسال رقة وصفاء وعذوبة وحلاوة •

الثانية : البلاغة فى المعانى بالاضافة الى مضرب كل مثل ومساق كل قصة وخبر فى الأوامر والنواهى ومحاسن الوعظ وغير ذلك مما اشتملت عليه العلوم القرآنية ، فانها مسوقة على أبلغ سياق •

الثالثة : صورة النظم وحسن السياق فانك تراه فيما ذكرناه من هذه العلوم منظوما على أتم نظام وأحسنه وأكمله •

ولم يعد الوجه الآخر الذى وصفه بالسداد ، فهل يا ترى كان يجب على محقق الطراز أن يضع هذه العبارة فى أول الوجه المختار ، ولكنها وضعت خطأ فى آخر الوجه السابق ، أم أنه ارتضاه لدخوله فى ضمن الخواص الثلاثة التى اشترطها فيما ارتضاه ؟

وهذا الأخير هو الراجح عندى •

ويرجح ما ارتضاه بحجة أن آيات التحدى واردة على جهة الاطلاق ، اذ ليس فيها تحد بجهة دون جهة ، لأنه لم يذكر أنه تحداهم لا بالبلاغة ولا بالفصاحة ، ولا بجودة النظم والسياق •• وانما قال : بمثله ، وبعشر سور ، وبسورة على الأطلاق •

ثم ان العرب لم تستفهم عما يريد بتحديهم فى ذلك ، ولا قالوا ما هو المطلوب فى تحدينا ؟ بل سكتوا عن ذلك ، ولا وجه لسكوتهم عن ذلك الا ما قد علم من اطراد العادات المقررة بين أظهرهم ، من أنه لا يقع الا بما ذكرناه من البلاغة والفصاحة وجودة السياق والنظم ، اذ المعلوم من حال الشعراء والخطباء وأهل الرسائل والكلام الواقع

فى الأندية المشـــهورة والمحافل المجتمعة أنهم اذا تحدى بعضهـــم بعضا فى شعر أو خطبة أو رسالة فانه لا يتحداه الا بمجموع ما ذكرناه من الأمور الثلاثة .

١٠ ــ ثم يتخيل أســئلة توجه الى رأيه الذى رجحه وارتضاه فيعرضها ويجيب عنها .. أولها :

(أ) ترجع الفصاحة والبلاغة والنظم الى مفردات الألفـــاظ ، والعرب يعرفونها ، والى تراكيبها والعرب قادرون على أن يأتوا منها بالفصيح البليغ .

ويرد على ذلك بأن القرآن قد بلغ الغاية فى الجودة ، وأن المقدرة تتفاوت فى حسن النظم .

(ب) الفصاحة والبلاغة وحسن النظم لا تدل على صدق النبى ، ووجه الأعجاز فى القرآن للدلالة على صـــدقه وأنه من عند الله .. والبشر قادرون على الفصاحة والبلاغة وحسن النظم .

ويرد على ذلك بأنهم قادرون عليها ولكن الى حد ، وبأن البشر يتفاوتون فى أساليبهم والقرآن يبزهم ولا يلحقون بشأوه .

(جـ) لو كان القرآن معجزا بفصاحته وبلاغته وحسن نظمه لمـــا اضطروا حينمـــا جمعوه بعـــد وفاة النبى أن يقبلوا الآية ممن هم مشهورون بالعدالة ، وأن يطلبوا البينة ممن هم مشهورون بها ، لتميزه عن سائر الكلام وكان لا وجه للسؤال .

ورد عليه بأن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يمت الا بعد جمع القرآن على يد جبريل عليه الســـلام والخلاف الذى وقع كان فى كتب

القرآن وجمعه فى الدفاتر ، فأما جمعه فمما لم يقع فيه تردد أنه كان فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

(د) لو كانت الفصاحة وجه اعجازه لما اشتبه على ابن مسعود الفاتحة والمعوذتان ، ولم يعدهما من القرآن . وأجاب على ذلك بأن ابن مسعود لم ينكر كونها نزلت من اللوح المحفوظ ، وأن جبريل أتى بها من السماء ، فهن قرآن بهذه المعانى وانما أنكر ابن مسعود كتبها فى المصاحف ، وقال : هن واردات على جهة التبرك والاستعاذة فلهذا كن قرآنا بما ذكرناه من المعانى ، ولم يكن قرآنا لورودها لهذا المقصد الخاص . ثم هذا رأى لابن مسعود فلا يكون مقبولا لأنه قول آحاد فكأنه خالف دلالة قاطعة .

١١ — ووضع تنبيها جعله خاتمة لفكرة الاعجاز عنده ، ويقول فى هذه الخاتمة : انما كان القرآن معجزا لما بينته سابقا لا للدلالات الوضعية سواء أكانت باعتبار دلالتهم على معانيها الوضعية ، أو مجردة عنها وذلك فاسد لأمرين :

أولا : ان الكلمة الواحدة قد تكون فصيحة اذا وقعت فى محل وغير فصيحة اذا وقعت فى محل آخر ، فلو كان الأمر فى الفصاحة والبلاغة راجعا الى مجرد الألفاظ الوضعية لما اختلف ذلك بحسب اختلاف المواضع .

ثانيا : ان الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية من أعظم قواعد الفصاحة وأبلغها ، وانما كانت كذلك باعتبار دلالتها على المعانى لاباعتبار ألفظها ويتضح لنا من ذلك تأثره الشديد بعبد القاهر فى جعل الفضل فى النظم للمعانى لا للألفاظ ، كما نلاحظ أنه لم يأت بما يصح أن نعتبره فى الفكرة جديدا سوى التنظيم العلمى للبحث والدراسة للفكرة التى

تدل على روح العالم وروح الأديب وان كنت ألمح فى أسلوبه الجدلى العقم أحيانا .

- ١٨ -

دار الزمان دورته فسرت فى نفوس علماء القرن الثامن هزة سلفهم من تشـوق للبحث وانكباب على الدرس واسـتجلاء حقيقة الاعجاز البيانى للقرآن الكريم ، ولذا خرج الينا فى هذا القرن علماء أجلاء يذكرون ضمن الصف المنهجى الذى يتوفر على دراسة هذا الكتاب الكريم فأتى بما يروع ويدهش فى الآن نفسه . وهذا هو العلامة شمس الدين أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن الشافعى الأصبهانى المتوفى سنة ٧٤٩ مثال حى على ما نقول : فقد أفاض هذا الرجل فى ذلك الميدان وأجاد حيث تكلم فى تفسيره الكبير الذى جمع فيه بين الكشاف ومفاتيح الغيب . ذكر العلامة الأصبهانى أن اعجاز القرآن من وجهين[١] .

أحـدهما : اعجاز متعلق بنفس القـرآن ، وهو الذى يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه ، وقد وضح ذلك بقوله : « أما الاعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره الذى هو اللفظ والمعنى ، فان ألفاظه ألفاظهم قال تعالى : « **قرآنا عربيا** » ، « **بلسان عربى** » وكذلك لا يتعلق بمعانيه فكثير منها موجود فى الكتب المتقدمة عليه ، قال تعالى : « **وانه لفى زبر الأولين** » وما هو فى القرآن من المعارف الالهية وبيان المبدأ والمعاد والاخبار بالغيب . فاعجازه ليس براجع الى القرآن من حيث هو قرآن ، بل لكونها حاصلة من غير سبق تعليم ويكون الاخبار بالغيب سواء أكان بهذا النظم أو بغيره مؤدى بالعربية أو بلغة أخرى بعبارة أو باشارة .. راجعا الى هذا السبب عينه .

---

(١) انظر الاتقان للسيوطى ٣ : ١٩٨

فاذن النظم المخصوص صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره وباختلاف الصور يختلف حكم الشىء واسـمه لا بعنصره كالخاتم والقرط والسوار ، فانه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها لا بعنصرها الذى هو الذهب والفضة والحديد •

وهكذا نرى الأصبهانى يأبى الا أن يسوق كلامه معضدا بالدليل والمثال ، ومنه يتضح أنه يرى الاعجاز المختص بالقرآن متعلقا بنظمه مخالفا ما عداه •

ويستطرد بعد ذلك فيسوق نماذج من الشعر والنثر مقارنا بينها وبين القرآن مقررا فى النهاية أن القرآن جمع كل ما فى الشـعر من محاسن ، وان خالف نظمه نظمها وبدليل أنه لا يقال فى القرآن أنه رسالة أو خطبة أو شعر أو سجع ، ولكنه يقال له : كلام بليغ ، والبليغ اذا قرع سمعه به فصل بينه وبين ما عداه من النظم وصدق الله سبحانه وتعالى اذ يقول فيه : « **وانه لكتاب عزيز • لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » •

وتتمة الكلام نذكر القسم الثانى فى الاعجاز وهو الصرفة فى نظر الأصبهانى • ولما كان ذلك خارجا عن موضوعنا لأنه لا يقدم التعليل والأسباب ، لذا رأينا العودة الى الوجه الأول كى نوفيه بحثا •

وان جرنا ذكر القسم الثـانى الى استطراد فان ذلك مرده الى تعجبنا من موقف الأصبهانى هذا حيث يجمع بين رأيين فى الاعجاز هما : الصرفة والنظم •

المهم أن نبين الآن ماذا يقصد الأصبهانى بنظم القرآن ؟ النظم عنده صورة من القرآن التى تتألف من عنصرى اللفظ والمعنى وليس اللفظ

وحده سبب الاعجاز لأن ألفاظ القرآن هى ألفاظ العرب نفسها ، كما أنه لا يمكن أن تكون معانيه منفردة سببا لاعجازه اذ أن كثيرا من الكتب المتقدمة عليه تحوى كثيرا من معانيه : والدليل على ذلك قوله تعالى : « **وانه لفى زبر الأولين** » •

وبالجملة فالقرآن انما هو معجز بوصفه كتابا عربيا فاعجازه اذن فى نظمه ، وهنا يأتى دورنا لنقول كلمتنا فى هذا التأثير والتأثر •

فالأصبهانى لا شك متأثر بعبد القاهر فى مسألة النظم هذه ، ولا أدل على ذلك من أنه يستشهد بما قاله عبد القاهر نفسه فى دلائل الاعجاز من مثال الخاتم المصنوع من مواد مختلفة ، والحلى المتنوعة من مادة واحدة بل انه يستعمل ألفاظ عبد القاهر نفسها وان بقى له بعد ذلك مخالفته الهامة حيث جمع الأصبهانى بين الصرفة التى يرفضها عبد القاهر ويسفه آراء أصحابها والنظم الذى ارتضاه وركن اليه •

وفى تتمة هذا يبين لنا الأصبهانى أن الاعجاز يدركه الأديب البليغ بالذوق لا بتطبيق القواعد العلمية ، وتطبيق أساليب البلاغة تطبيقا جافا ، ويلاحظ عليه أخيرا أنه استعمل لفظى الظاهر والباطن فى قوله مثلا « عجزت فى الظاهر عن معارضة مصروفة فى الباطن عنها » ولعله فىذلك متأثر بفكرة الباطنية فى التفسير ، هؤلاء الذين زعموا أن لكل شىء ظاهرا وباطنا الأول يعرفه العامة وهو سطحى ضحل والثانى يدركونه هم وحدهم لأنهم خصوا بادراكه •

وبعد أن أتيت على مذهب هذا الرجل فى الاعجاز البيانى ولخصته فى دقة وأمانة أرى لزاما على أن انفذ السير الى علم آخر من هؤلاء الجهابذة الذين ضربوا بسهم وافر فى البحث والتنقيب •

بعد أن خطت سطورى السابقة رأى الأصبهانى فى الاعجاز تركته بعد أن حييته تحية الوداع لأخلص فى نهاية القرن الثامن وفى مصر بالذات الى الأمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشى •
وقبل أن أسجل ما دار بينى وبينه من حديث أحب أن أضع بين يدى القــارىء ترجمة موجزة عن حياته علهــا تعين على فهم ما تثبته من حديث[١] •

---

(١) ولد الذركشى سنة خمس واربعين وسبعمائة بمدينة القاهرة وبها نشأ وفى مدارسها العديدة تعلم وعلى علمائها — وما أكثرهم — تخرج ، وبمذهب الشافعية تفقه.فكانت كل هذه العوامل قوة مضيئة فى حياته دفعته الى الامام فى عزيمة لا تفتر وتصميم لا يلين .

أنكب الرجل بعد ذلك على العلم فحفظ كتاب « المنهاج » للامام النووى واليه نسب اذ كان يقال له « المنهاجى » .

وكفاه فخرا ، أو قل كفانا نحن ثقة به انه تتلمذ فى القاهرة على الشيخ جمال الدين الاسنوى رئيس الشافعية وامام أهل الحديث بالمدرسة الكاملية كما تلقى العلم فى القاهرة أيضا على الشيخ سراج الدين البلقينى والحافظ مغلكاى وغيرهم من شيوخ مصر .

ثم رحل الى حلب والتقى بالشيخ شهاب الدين الاذرعى فسكب هذا فى عقله شذرات ذكية من الفقه والاصول ، وبعد ذلك اتجه الى دمشــق والتقى بالحافظ ابن كثير فأخذ عنه الحديث وبعدها عاد الى القاهرة يحمل كنزا ما أنفسه وأغلاه ..

جمع فيه أشتات العلم واحاط بالفروع والاصول ، وحشد الغامض وأوضح ووعى الغريب والنادر واستقصى الشاذ .

وقد يقال وما فائدة جمع هذا وذاك ؟

أقول : لقد ضاعف من فائدة ذلك كله ان الرجل كان له ذكاء وفطنة وموهبة والمعية اعانته جميعها على استيعاب ماجمع والتدقيق فيه،فأهله كل ذلك — بجوار التوفر على الجمع والتصنيف — ان يتصدر للفتيا والتدريس .

قال ابن حجر فى الدرر الكامنة : « وكان منقطعا فى منزله لا يتردد الى احد الا الى سوق الكتب»وحكى عنه تلميذه شمس الدين الرماوى فى طبقات الشافعية للاسدى انه كان منقطعا الى الاشتغال بالعلم لا يشتغل عنه بشىء وله أقارب يكفونه أمر دنياه » .

كما أخبرنا عنه ابن العماد فى شذرات الذهب أنه كان يكتب مؤلفاته بخطه وخطه ردىء جدا قل من يحسن فك طلامسه ، ولهذا شاع فى الكتب المنقولة بخطه الغموض والابهام والتحريف والتصحيف لقى منها القراء والدارسون العناء الكثير .

وكان رحمه الله رضى الخلق محمود الخصال عذب الشمائل متواضعا رقيقا راضيا بقليل الزاد ، وقد تولى من المناصب خانقاه كريم الدين بالقرافه الصغرى ، وظل بها الى أن توفى بمصر ، مسقط رأسه ، فى رجب سنة أربع وتسعين وسبعمائة ودفن بها بالقرب من مقبرة بكتمر الساقى .

وقد اجتمع له من المؤلفات فى عمره القصير — ما لم يجتمع لغيره من أفذاذ الرجال ، وان كان هذا الفضل لم يعرفه الناس الا بعد وفاته وحين توارت شمس حياته عن الوجود .

اذ بلغت مؤلفاته ثلاثة وثلاثين مؤلفا فى الحديث والأصول والتفسير وعلوم القرآن ، يهمنا منها كتابه « البرهان فى علوم القرآن » لأنه هو الذى يتصل بفكرة الاعجاز التى نحن بصددها وحتى يكون عرضنا له وفاءا بما وعدنا به فى صدر هذا الكلام من حديث مع الرجل .

البرهان فى علوم القرآن :

وهو من الكتب العديدة التى جمعت عصارة أقوال المتقدمين وصفوة آراء المحققين حول كتاب الله الخالد : حول القرآن الكريم .

لقد ظل كتاب البرهان هذا مخطوطا ومطمورا فى خضم الزمن لا يقف عليه ولا يعرفه الدارسون وطلاب المعرفة اللهم الا قلة من المشغوفين بمعرفة نوادر المخطوطات ورواد المكتبات .

نعم ظل هكذا حتى قيض الله له الامام السيوطى فأظهره فى مقدمة كتابه « الاتقان فى علوم القرآن » ودل الناس عليه ونقل الكثير منه ولا أكون مغاليا اذا قلت ان الاتقان اختصار للبرهان ، وبنظرة فاحصة للكتابين تقف على صدق ما نذهب اليه.

المهم أن أمر البرهان قد ظل هكذا الى أن خف اليه الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم فى عصرنا الحديث والذى له الفضل الكبير فى تحقيق واخراج كثير من أمهات الكتب والموسوعات من آثار سلفنا الصالح — فجمع نسخه المخطوطة المتعددة فى الجمهورية العربية وخارجها والكثيرة التصحيف والتحريف ووحد بينها وقوم معوجها وصحح محرفها ومصحفها حتى تم له أخيرا تحقيق الكتاب تحقيقا علميا رد فيه نصوصه الى أصلها وشرح الغامض منها وكمل ناقصها بما يقربه من الصواب حتى أخرجه لنا فى النهاية مرجعا سليما مستوفى وموسوعة نحن فى حاجة اليها أيما حاجة فى دراستنا البلاغية بخاصة والقرآن بعامة .

من النص المحقق الموجود بين أيدينا نرى أن الزركشى جعل الكتاب فى سبعة وأربعين نوعا : كل نوع يدور حول موضوع خاص من علوم القرآن

بعد هذه المقدمة التى ذكرناها فى الهامش لم يكن لنا معدى عن ذكرها نخلص الى ذكر ما يهمنا من هذا الكتاب وهو ما قاله مؤلفه عن بيان القرآن واعجازه •

ويستطيع القارىء المتأمل أن يقف على رأى مؤلفه من مقدمته قبل أن يصل الى الفصل الذى عقده عن اعجاز القرآن • اذ فى هذه المقدمة جمع أغلب ما قيل عن اعجاز القرآن عند السابقين واليك بيانه بعد أن أشار على الباحثين بالفحص عن أسرار التنزيل ، والكشف عن حقائق التأويل الذى تقوم به المعالم وتثبت الدعائم وأثبت أن القرآن شفاء الصدور والحكم العدل عند متشابهات الأمور •• بعدها أبان أنه الكلام الجزل وهو الفصل الذى ليس بالهزل ، والشهاب الذى لا يخمد نوره وسناؤه ، والبحر الذى لا يدرك غوره ، بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر ايجازه واعجازه ، وتقارن فى الحسن مطالعه ومقاطعه •

فأنت تدرك لأول وهلة أن وجه اعجازه فى نظره هو بلاغته يؤيد ذلك قوله : قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه وقسم لفظه ومعناه •

وبعـــد ذلك أراد أن يبين وجه الاعجاز فى القرآن باشتماله على الصور البلاغية فقسمه الى ما ينشـــط السامع ويفرط المسامع من

ومباحثه . وفى الحقيقة يستأهل كل نوع منها جميعا أن يكون موضوعا مستقلا لمؤلف خاص .

ولقد حاول المؤلف أن يؤلف لكل موضوع درسه ويحصى الكتب التى ألفت فيه ويشير الى العلماء الذين تدارسوه فيمابينهم فأشبع الفصول وجمع بين أشتات المسائل وضم أقوال المفسرين والمحدثين الى مباحث الفقهاء والاصوليين وحشد قضايا المتكلمين وأصحاب الجدل بجانب مسائل العربية وآراء أرباب الفصاحة والبيان فجاء كما شاء الله كتابا فريدا فى فنه شريفا فى عرضه سديدا فى منهجه مع عذوبة المورد وغزارة المادة ، وبعد عن التعمية واللبس ، ونأى عن الحشو والفضول .

ولا أغالى اذ أقول : انه أول كتاب ألف فى علوم القرآن وجمع أنواعها فى مؤلف خاص .

تجنيس أنيس ، وتطبيق لبيق ، وتشبيه نبيه ، وتقسيم وسيم وتفصيل أصيل وتبليغ بليغ وتصدير بالحسن جدير وترديد ماله مزيد .. الخ .

وهو بهذا الوجه ينهج نهج الرمانى وابن قتيبة وابن أبى الأصبع .
بهر البشر تمكين فواصله وحسن ارتباط أوائله وأواخره ، وبديع اشاراته وعجيب انتقالاته ، فيه القصص الباهرة والمواعظ الزاجرة ، والأمثال السائرة ، والحكم الزاهرة وهو قائم فى هذا كله أو بجانبه للدلالة على التوحيـــد .

والزركشى اذ يذكر هذه الميزات كلها لم ينس الوجه القائل بنظم القرآن وأسلوبه فقال[1] : « ان كان سياق الكلام ترجية بسط ، وان كان تخويفا قبض ، وان كان وعدا أبهج ، وان كان وعيدا أزعج ، وان كان دعوة جذب ، وان كان زمجرة أرعب ، وان كان موعظة أقلق ، وان كان ترغيبا شوق .

هـــذا وكم فيـــه من مـــزايا وفى زواياه من خبـــــايا
ويطمع الحـــبر فى التقـــاضى فيكشف الخـــبر عن قضـــــايا

ثم أورد رأى من قال بأن وجه الاعجاز عدم احاطة الخلق علما بمعانيه لغرابة أسلوبه فقال[1] : « سبحان من سلكه ينابيع فى القلوب ، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب ، لا يستقصى معانيه فهم الخلق ولا يحيط بوصفه على الاطلاق ذو اللسان الطلق » .

كما أنه أشار الى أثر القرآن فى النفوس وتأثيره فيها كما قال بذلك الخطابى والقاضى عيـــاض اذ أنه يملأ القلوب بشرا ، ويبعث القرائح عبيرا يحيى القلوب بأوراده :

---

(1) البرهان ١ : ٤ .

أندى على الأكباد من قطر الندى   وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

ولهذا سماه الله روحا فقال : « **يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده** » فسماه روحا لأنه يؤدى الى حياة الأبد ولولا الروح لمـات الجسد •

كما أنه يرى أن القرآن يحوى جميع العـلوم ، وهو بهذا يؤمن بالاعجاز العلمى ويخالف أبا اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبى المتوفى سنة ٧٩٠ فى كتابه « الموافقات » الذى ينكر التفسير العلمى المدعى فيرى الزركشى أن القرآن يحوى كل العلوم بحيث لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها مما جعله المتأخرون من أهم أسباب الاعجاز على حين ليس هو صحيحا فى ذاته وليس منها فى ورد ولا صدر » •

ويستدل على ذلك بأقوال كثيرة وأدلة مأثورة وآيات من القرآن ، وأخيرا يقول[١] :

« وكل علم من العلوم منتزع من القرآن ، والا فليس له برهان • قال ابن مسعود : من أراد العلم فليتدبر القرآنينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره فان فيه علم الأولين والآخرين » ولعله أراد بهذا أصـول العلم • ونحن نوافق الشـاطبى على انكاره التفسير العلمى للقرآن الكريم ، فهـذا فى نظرنا لن يضير القرآن فى شىء فهو كتاب موعظة ودين ، وهدى واصلاح ، ونحن ننزه القرآن عن نظريات علمية تصدق بالأمس ليطاح بها اليوم • هذا ولم يقف أمر الزركشى عند هذا الحد بل عقد بابا فى الجزء الثـانى[٢] تحت اسم معرفة الاعجاز بين فيه اهتمام العلماء السابقين أمثال الباقلانى والخطابى والرمانى وغيرهم ،

---

(١) البرهان ١ : ٨ •
(٢) انظر ص ٩٠ •

وجعل اعجاز القرآن علما عظيم القدر لأن نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — قد دل على اعجازها القرآن ، وهو يوجب الاهتمام بمعرفة الاعجاز ، قال تعالى •

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » •

وقوله : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » •

فلولا أن سماعه اياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا تكون حجة الا وهى معجزة كما أن النبى — صلى الله عليه وسلم — تحدى العرب وهم أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء — تحداهم بالقرآن حين قالوا : **« افتراه وأعانه عليه قوم آخرون »** تحداهم أن يأتوا بمثله أو بأقل سورة منه فعجزوا ، فهذان دليلان على اعجاز القرآن •

ولكن : بم كان معجزا لدى الزركشى ؟

اعجازه عنده من وجهين[1] :

أحدهما متعلق بنفسه : ثانيهما : بصرف الناس عن معارضته وهذا ما ذكره الأصبهانى ، وقد وضحته سابقا ولا أدرى أهو ناقل عن الأصبهانى أم كان من توارد الافكار أم كانا ناقلين ؟

وقد قرر الزمخشرى أنه لا خلاف بين العقلاء فى أن القرآن معجز وانما الخلاف فى اعجازه • فقيل : ان التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات وأن العرب كلفت فى ذلك مالا تطيق ، وفيه وقع

---

(١) انظر البرهان ٢ : ٩٢ •

عجزها ، والجمهـور على أنه انمـا وقع بالدال على القـديم وهو « الألفاظ » واذا ثبت ذلك فاعلم أنه لا يصح التحدى بشىء مع جهل المخاطب بالجهة التى وقع بها التحدى ، ولا يتجه قول القائل لمثله : ان صنعت خاتما كنت قادرا على أن تصنع مثله الا بعد أن يمكنه من الجهة التى تدعى عجز المخاطب عنهـا .. ويرد الزركشى على ذلك بقولـه [1] .

« الاعجاز فى القرآن العظيم اما أن يعنى بالنسبة الى ذاته أو الى عوارضه من الحركات والتأليف ، أو الى مدلوله ، أو الى المجموع أو الى أمر خارج عن ذلك . لا جائز أن يكون الاعجاز حصل من جهة تواتر الكلمة المفردة فقط لان العرب قاطبة كانوا يأتون بها ولا جائز أن يكون الاعجاز وقع بالنسبة الى العوارض من الحركات والتأليف فقط لأنه يحوج الى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة ، ولو كان الاعجاز راجعا الى الاعراب والتأليف المجرد لم يعجز صغيرهم عن تأليف ألفاظ معربة فضلا عن كبيرهم ، ولا جائز أن يقع بالنسبة الى المعانى فقط لانها ليست من صنع البشر وليس لهم قدرة على اظهارها من غير ما يدل عليها ــ وهى الألفاظ ، ولا جائز أن ترجع الى المجموع لأنا قد بينا بطلانه بالنسبة الى كل واحد فيتعين أن يكون الاعجاز لأمر خارج غير ذلك » . ومما تقدم نرى أن الزركشى متأثر فيه بالعلوى فى الطراز .

ولنسر مع الزركشى لنرى الأمر الآخر . لقد ذكر بعد تلك الأقوال المختلفة فى وجوه الاعجاز .

١ ــ الصرفة ونسبها للنظام ، ولم يزد عما ذكره السابقون فيها ، وذكر قول الباقلانى فى ابطالها .

---

(١) البرهان ٢ : ٩٣ .

٢ ــ ما فيه من الأخبــار عن الغيوب المســتقبلة ورده بما رده الســابقون بما رد الزملكانى ، ولم يبين لنا رأيه حيال هذا لا رفضــا ولا قبولا .

٣ ــ ما تضمن من أخباره عن قصص الأولين ، وسائر المتقدمين ورفضه أيضا .

٤ ــ اخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله تعالى **« اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا »** وقوله **« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم »** وكاخباره عن اليهود أنهم لا يتمنون الموت أبدا ، ولم يعلق عليه برفض أو قبول .

٥ ــ ان التحــدى انما وقع بنظمه وصحة معانيــه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، ووجه اعجازه أن الله قد أحاط بكل شىء علما وأحاط بالكلام كله علما فاذا ترتبت اللفظة من القرآن علم باحاطة أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ويتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن الى آخــره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم بالضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك وبهذا جاء نظم القــرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا المنطق يبطل قول من قال : ان العرب كان فى مقدورها الاتيان بمثله ولكن صرفوا عن ذلك وعجزوا » ونسب هذا القول لابن عطية [1] .

٦ ــ الاعجاز بالفصاحة وغرابة الأسلوب ، ونسبه لفخر الدين الرازى فى نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز .

---

(١) انظر مقدمة تفسيره المطبوعة ٢٧٨ ــ ٢٨٠ .

٧ — ما فيــه من النظــم والتأليف والترصيف وانه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب • ونسبه للقاضى الباقلانى ولا أرى فرقا بين الوجه السابع هذا والسادس • ونقل عنه قول بعض الأئمة : ليس الاعجاز المتحدى به الا فى النظم لا فى المفهوم لأن المفهوم لا يمكن الاحاطة به ولا الوقوف على حقيقة المراد منه فكيف يتصور أن يتحدى بما لا يمكن الوقوف عليه ، اذ هو يسع كل شىء فأى شىء قوبل به ادعى أنه المراد ويتسلسل •

٨ — أن الاعجاز شىء لا يمكن التعبير عنــه ، يدرك ولا يمكن وصفه ، ونسبه للســكاكى فى المفتاح ، وقال أبو حيان التوحيــدى فى البصائر « لم أسمع كلاما ألصق بالقلب ، وأعلق بالنفس من فصل يتكلم به بندار الفارسى — وكان بحرا فى العلم — وقد سئل عن موضوع الاعجاز من القرآن فقال : « هذه مسألة فيها حيف على المفتى وذلك أنه شبيه بقولك : ما موضع الانسان من الانســان ؟ فليس للانسان موضع من الانسان بل متى أشرت الى جملته فقد حققته ، ودللت على ذاته ، كذلك القرآن لشرفه لا يشار الى شىء منه الا كان ذلك المعنى آية فى نفسه ومعجزة لمحاوله وهدى لقائله وليس فى طاقة البشر الاحاطة بأغراض الله فى كلامه ، وأسراره فى كتابه ، فلذلك حارت العقول ، وتاهت البصائر عنــده » •

٩ — ان الاعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها فى جميعه استمرار لا توجد له فترة ولا يقدر عليه أحد من البشر بعكس كلام البشر ، ونسبه الى الحسن حازم بن محمــد القرطاجنى فى كتابه « منهاج البلغاء » وهو قريب من رأى الزملكانى وابن عطية الى حد بعيد •

١٠ — ان القرآن صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن

نظوم التأليف متضمنا أصح المعانى ، وهذا منسوب الى الخطابى فى كتابه « بيان الاعجاز » وقد تكلمنا فيه فيما تقدم من البحث ومما يجب التنبيه اليه أن هذا الرأى له أثره فى عبد القاهر الجرجانى وبه أخذ وعليه اعتمد •

١١ ـ ان الاعجاز وقع بجميع ما تقدم من الأوجه لا بكل واحد على انفراده فانه جمع ذلك كله ، فلا معنى لنسبته الى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع وهو ما عليه التحقيق •

وهكذا تنقلت مع الزركشى من درب الى درب عساى أتعرف « وجه الاعجاز » عنده ثم عدت أخيرا لأصدر حكمى عليه فى النهاية •

الواقع أنى لم أجد له رأيا جديدا فيما يخص وجه الاعجاز ، وانما يرجع فضله الى جمع آراء السابقين ليس غير مستحسنا منها ما ارتضته نفسه ، رافضا ما لم يعجبه ، بقيت بعد ذلك أمور تتعلق بفكرة « الاعجاز البيانى » كان له فضل كبير فى جمعها واظهارها على وجه الخصوص ، وسأوردها فيما يلى مبينا فضله فيها وجديده ان كان ثمة جديد •

وأول هذه الامور متعلق بفكرة الاجابة على هذا التساؤل : ما هو المقدار المعجز من القرآن ؟

لقد روى الزركشى اجابة هذا السؤال عن القاضى الباقلانى ولم يكن له فيه جديد غير تبويبه وتوضيحه ، وجمع ما قيل فيه • وهذا ما قاله القاضى أبو بكر الباقلانى فى اعجازه [١] •

« ذهب عامة أصحابنا ـ وهو قول أبى الحسن الأشعرى ـ الى

[١] ص ٣٨٦ وما بعدها .

أن أقل ما يعجز عنده من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بمقدارها أى اذا كانت الآية بقدر حروف السورة ، وان كانت كسورة الكوثر فذلك معجز » •

وذهب المعتزلة الى أن كل سورة برأسها معجزة اذ هى أم وحدها • وحكى عن بعضهم أن الآية الكبيرة معجزة •

هذه هى الآراء التى جمعها الزركشى ثم تخيل اعتراضا على هذا وهو وما رأى هؤلاء جميعا وردهم عى قوله تعالى : **« فليأتوا بحديث مثله »** ؟ فأجاب بأن هذا لا يخالف ما سبق لأن الحديث تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة :

وبهذا ينتهى من الحديث عن الأمر الاول المتعلق بفكرة الاعجاز البيانى • أما الامر الثانى فملخصه : أن التحدى فى قوله تعالى **« قل لئن اجتمعت الانس والجن »** انما وقع للانس دون الجن لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه وانما ذكروا فيما سيق تعظيما لاعجازه لأن الهيئة الاجتماعية لها من القوة ما ليس للافراد ، فاذا فرض اجتماع جميع الانس والجن وظاهر بعضهم بعضا ، وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز •

والأمر الثالث : هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة ؟

أجاب عن هذا أبو الحسن الأشعرى الى أن ظهور ذلك على النبى — صلى الله عليه وسلم — يعلم ضرورة وكونه معجزا يعلم بالاستدلال •

والذى قاله الباقلانى فى اعجازه « أن الأعجمى لا يمكنه أن يعلم اعجازه الا استدلالا ، وكذلك من ليس ببليغ ، فأما البليغ الذى قد أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة ، فانه يعلم من نفسه ضرورة عجزه وعجز عن الاتيان بمثله » •

فاذا أضفت ما تاله الأشعرى الى ما قاله الباقلانى استطعت

أن تحصر علم الاعجاز بالضرورة فى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ والبليغ المحنك الذى لا تعوزه الأدلة عن ادراك هذا الاعجاز .

وأخيرا وضح لنا أن الزركشى لم يكن له رأى خاص فى الاعجاز ، ولكنى أستطيع أن أقرر أنه أحد المؤمنين باعجاز القرآن البيانى وأنه نصب نسفه ليدلل على هذا الايمان بدراسة الاساليب البلاغية والصور الكلامية فى القرآن الكريم .

وبعد فيهمنا بعد هذا كله أن نبين موقف الزركشى بين علماء البلاغة العربية ــ ما دامت البلاغة وسيلة لمعرفة الاعجاز ــ وأثره فيها ومنهجه حيالها خاصة اذا علمنا أنه وجد فى عصر يحسن أن نبين موقفه فيه من البلاغة ... ففى الحقيقة أن الزركشى لم يخصص لها مؤلفا خاصا كما لم يفرد بابا أو فصلا لدراســتها . ولكن الذى فعله هو أنه درس فى كتابه : البرهان علوم القرآن » وأتى عليها ، ولمــا كانت البلاغة من بين هذه العلوم كان طبيعيا أن يتناولها بالحديث ولا غرو فالقرآن مصدر البلاغة العربية وأس أسسها واليه يرجع فى تقرير قواعدها وله الأثر البين فى تطورها ، ومن أجل هذا لم ينس الزركشى ، ولم يفته التعرض لكثير من الصور البلاغية وتطبيقها فى القرآن .

والذى لا شــك فيه أن الوقوف على دراسة هــذه الصور لدى الزركشى يمكننا من الوقوف على أثره فى الدراسة البلاغية بخاصة وفى دراسة البلاغة القرآنية بعامة والزركشى عندما أراد أن يثبت اعجاز القرآنوبديعه نهجمنهج ابن أبى الاصبع ، والعلوى فى الدراسة : الأول فى « بديع القرآن » ، والثانى فى «الطراز» ولكنه اختلف عنهما فى دراسة الصور البلاغية تحت اسم الاساليب ، وهو فى هذه الطريقة متأثر بعبد القاهر الجرجانى اذ أن كلا منهما اتبع دراسة الاساليب القرآنية لبيان التراكيب وبيان القاعدة النحوية وهل طبقت أم لا ؟

وفيما يلى سأتناول عرض بعض الاساليب التى تناولها الزركشى لنرى مدى ما عمله فيها وأثره ومنهجه وطريقته التى سلكها وجديده ان كان له جديد حتى نستبين منزلته بين علماء البلاغة كما استبانت فى فكرة الاعجاز •

أولا : وجوه المخاطبات والخطاب [1] فى القرآن ، استخرج لذلك أربعين نوعا من القرآن الكريم لخطاب العام المراد به العموم ، وخطاب الخاص المراد به الخصوص ، وخطاب الخاص والمراد به العموم أو العكس •

وجديده فى هذا الاسلوب أنه جمع كل ما يتصل بأسلوب الخطاب والمخاطب تحت جنس واحد ، واستخرج له من القرآن شواهد عديدة خرج أكثرها وحلله فلم تكن أحكامه عامة ، ولم ينس فى سبيل ذلك الاستدلال بالشعر أحيانا لتوضيح الفكرة واظهارها ، كما كان ينقل كثيرا عن السابقين من اللغويين والمفسرين والبلغاء أمثال ابن فارس ، والراغب الأصفهانى ، والزمخشرى معقبا على ذلك برأيه الذى كان يؤيده دائما بالأحاديث النبوية الشريفة ، وبالجملة فلم يكن بصدد هذا ناقلا فحسب ، بل كان ناقلا وناقدا أحيانا •

ثانيا : تكلم عن أسلوب الحقيقة والمجاز فى القرآن [2] وأثبت بما لا يدع مجالا لوهم أنه لا خلاف فى أن كتاب الله يشتمل على الحقائق وعرف هذه الحقائق بأنها كل كلام بقى على موضوعه كالآيات التى لم يتجوز فيها ، وهى الآيات الناطقة ظواهرها بوجود الله تعالى وتوحيده وتنزيهه ، والداعية الى أسمائه وصفاته كقوله تعالى :

---

(١) انظر البرهان ٢ : ٢١٧ — ٢٥٣ •
(٢) انظر البرهان ٢ : ٢٥٦ — ٣٠٠ •

« **هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة** » وقوله « **أمن خلق السموات والأرض** » وقوله « **أمن جعل الأرض قرارا** » بهذا استدل الزركشى على أن كتاب الله مشتمل على الحقائق ، وعلى ذلك اتفق العلماء ولم يسمع عنهم خلاف ــ أما الخلاف بينهم ففى وجود المجاز فى القرآن • فجمهورهم على وجوده • وانكره جماعة منهم : أبو العباس أحمد بن أحمد الطبرى الشافعى المعروف بابن القاضى المتوفى ٣٣٥ ﻫ وابن خويز منذاذ المالكى تليمذ الأبهرى من أهل البصرة توفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى وأبو مسلم محمد بن بحر الاصبهانى المعتزلى المتوفى ٣٧٠ ﻫ وداود بن على بن خلف الاصبهانى المعروف بالظاهرى ورئيس فرقة الظاهرية المتوفى ٢٩٧ ﻫ •

وشبهة هؤلاء المنكرين لوجود المجاز فى القرآن أن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة الى المجاز الا اذا ضاقت به الحقيقة فيستعير وهو محال على الله سبحانه .ولا تعجب الزركشى تلك الحجة أو قل العلة الواهية فينبرى ليرد رد المفتن البليغ الذى يعرض جمال المجاز وبهاءه ، واستمع اليه بعد عرض رأيهم يقول « وهذا باطل ، ولو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوه من التوكيد والحذف وتثنية القصص وغير ذلك •• ولو سقط المجاز من القرآن لسقط شطر الحسن » •

وهنا يتدرج الى تبين سبب المجاز ، ونوعه الى نوعين :

١ ــ مجاز فى المركب ، ونوعه الى ثلاثة أقسام (١) •

٢ ــ مجاز فى المفرد ، وقرر أنه فى القرآن يعجز العد عن احصائه ، ونوعه الى ستة وسبعين نوعا لتكون ضوابط لتوضيح الآيات • الموجود فيها المجاز (٢) •

---

(١) البرهان ٢ : ٢٥٨ •
(٢) أنظر صفحات ٢٥٩ ــ ٢٩٩ من الصور البيانية •

ثالثا : أسلوب الكنايات والتعريض •

بين الزركشى منزلة هذا الاسلوب عند العرب ودلل على أنه من البلاغة والبراعة وهو عندهم أبلغ من التصريح ، وجعل أكثر الأمثال العربية من الاسلوب الكنائى • وعرف الكناية : بأنها الدلالة على الشيء من غير تصريح باسمه ، وشرحها عند أهل البيان بما لا يخرج عن كلام السابقين ، وقد أوضح الخلاف فى هذا الاسلوب هل هو من المجاز أم من الحقيقة ، وقل عن الطرطوسى فى كتابه « عمدة الحكام فيما لا ينفذ من الأحكام » أنه قد اختلف فى وجود الكناية فى القرآن ، وهو كالخلاف فى المجاز ، فمن أجاز وجوده فيه أجاز الكناية ، ومن أنكره أنكرها •

وقال الشيخ العز بن عبد السلام « الظاهر أنها ليست بمجاز لأنك استعملت اللفظ فيما وضع له ، وأردت به الدلالة على غيره ، ولم تخرجه عن أن يكون مستعملا فيما وضع له وهذا شبيه بدليل الخطاب فى قوله تعالى **« فلا تقل لهما أف »** •

وعقب الزركشى على ذلك بذكر أسباب اســتعمال هذا الاسلوب

هذا وقد نقل عن عبد القاهر الجرجانى اشتراط القرينة فى الكناية كما أنه أبطل دعوى من يقول : ان العرب لا تستعمل الكناية الا فيما يقبح ذكره • أبطل ذلك بقوله تعالى **« وثيابك فطهر »** كناية عن القلب •

وجعل التعريض من الاسلوب الكنائى ويسمى تعريضا لأن المعنى يفهم من عرض اللفظ أى من جانبه ، والدلالة على المعنى من طريق المفهوم ولذلك سموه التلويح أيضا لأن المتكلم يلوح بما يريده للسامع •

فقوله تعالى **« لئن أشركت ليحبطن عملك »** وقوله : **« ولئن اتبعت أهوائهم »** وقوله : **« فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات »** كل ذلك

تعريض اذ المخاطب فى الظاهر شخص هو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الآيتين الأولين وهو لم يشرك ولم يتبع الهوى ولكن المراد المشرك • وفى الآية الثالثة الخطاب للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب •

ومن الاسلوب الكنائى أيضا فى نظر الزركشى • التوجيه وهو ما احتمل معنيين ويعتمد فيه على فطنة المخاطب كقوله تعالى حكاية عن أخت موسى : **« هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون »** فان الضمير فى : له : يحتمل أن يكون لموسى ويحتمل أن يكون لفرعون وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم : انك عرفتيه فقالت : أردت بـ « ناصحون » للملك • وهذا يذكرنا بالسكاكى حيث جعل شكل القرآن من هذا اللون •

ثم جاز الزركشى الى النوع السادس والاربعين [1] فتكلم تحته عن أساليب القرآن وفنونه البليغة وجعلها المقصود الأعظم من هذا الكتاب أو هى كما قال : « بيت القصيد » وأول الجريدة وغرة الكتيبة وواسطة القلادة ، ودرة التاج ، وانسان الحدقة » •

وهو يقصد بأساليب القرآن وفنونه صوره البلاغية كما يتضح من عرضه لها وهنا نقف وقفة لنقول : ان الزركشى بهذا العنوان وبما ذكر تحته من الالوان يؤمن باعجاز القرآن لاشتماله على الصور البديعية ، وبهذا يتفق مع ابن أبى الاصبع المصرى ويلتقى به فى بديع القرآن وكذا العلوى اليمنى فى الطراز وأيضا • يخالف القاضى الباقلانى الذى ينفى اعجاز اقرآن لاشتماله على الصور البديعية ، والزركشى بهذا أيضا يوضح نا أنه يتكلم عن بلاغة القرآن ، ويرى أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان ، قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة

---

(١) انظر ٢ ــ ٣٨٢ •

تحميه ، ولا ذو بصيرة تستقصيه ، وهو أرق من الشعر ، وأهول من البحر ، وأعجب من السحر •••

ولا شك بعد هذا كله أنه يبين لنا منزلة البلاغة بعامة ، وبلاغة القرآن بخاصة ، وهو صادق فى رأيه هذا اذ وجد فى عصر اتجهت فيه العلماء الى اهمال البلاغة ، وضعف الأدب وهو حقلها الذى فيه تنمو وتترعرع وأصبح هم العلماء ــ وهم قليلون ــ صياغة قصائد متضمنة أسماء صور بديعية عرفت بالبديعيات يتولونها بالشرح أو يفيض غيرهم عليها بالتعليق •

وعلى الضفة المقابلة وقف جماعة آخرون اختلفت وجهات نظرهم فى تناولهم « المفتاح » فمنهم من شرحه ومنهم من اختصره وعلى هذا قام عماد ابحاثهم ونظرتهم للبلاغة •

فلا عجب أن يقف الزركشى بين الصفين يدون هو الآخر فى البلاغة ولكن على طراز آخر بذل فيه مجهودا بلا شك •

ومن هنا فقد أثر فى تطور البلاغة وتنميتها والعمل على ترقيق الذوق ، ورقى العاطفة ، ونمو الاحساس والادراك بدراسة هذه لأن علم البلاغة فى نظره هو[1] • « المطلع على أسرار القرآن ، الكافل بابراز اعجاز النظم المبين ما أودع من حسن التأليف وبراعة التركيب وما تضمنه فى الحلاوة وجعله فى رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها وهذا الحسن وتلك البلاغة لا فرق بين ما يرجع الحسن فيه الى اللفظ أو المعنى ، وحسبنا هذا العرض الأمين لآرائه تدليلا على

---

(١) انظر البرهان ٢ : ٣٨٢ •

جهوده المحمودة فى خدمة القرآن الكريم واعجازه البيانى ضمن اطار البلاغة العربية .

— ٢٠ —

انتقلت بفكرة الاعجاز البيانى فى القــرآن الى القرن التاســع الهجرى . وفيه صادفنى ثلاثة من العلماء الفضلاء فى مادتهم وشخصيتهم والذين لم يغفلوا الحديث عن اعجاز القرآن . وهم وان لم يؤلفوا كتبا خاصــة فى الاعجاز الا أنه ورد فى ثنايا كتبهم ما يكشف عن رأيهم فى الاعجاز ، وسأتكلم عن كل واحد منهم مستخرجا فكرته من مؤلفاته .. وأول هؤلاء : أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمــد بن خلدون التونسى اليمنى الحضرمى . ودائما كان يحــرص ابن خلدون على تسجيل نسبه الى اليمنى الحضرمى[1] الاشبيلى المــالكى وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما يثبت أن أسرة ابن خلدون عربية الأصل وان حرص أهل المغرب على الانتساب للعرب .

كان ابن خلدون مؤرخا مشهورا وعالمــا جليلا ذاع صيته فى أرجاء المعمورة ، وقد ولد فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ بتونس وبها نشأ وفى حجر والده تربى وعلى يديه حفظ القرآن وعلى استاذه عبد الله محمد ابن نزال الأنصارى ، قرأ كتبا كثيرة ، وتعلم العربية وحفظ كثيرا من شعر العرب ويقول هو عن نفسه « ولم أزل منذ نشأت مكبا على تحصيل العلم ، حريصا على اقتناء الفضائل ، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته الى أن كان الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ وذهب بكثير من الاعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك فيه أبواى رحمهما الله »[2] ولمــا نضج ووضحت شخصيته وانتشر أمره عمل فى خدمة أمير تونس ، لكن لم يطل به البقاء فى خدمته فرحل الى (بجاية) وفيها تقابل مع سلطانها وأنس فيه العلم

(١) مقدمة (١ — ٣٣) .
(٢) تاريخه « العبر » ٧ — ٣٩٨ .

والشــخصية فقلده أعمــال دولته ولكن لم يدم الأمر طويلا اذ هاجم (بجاية) صاحب قسطنطينية • واستولى عليها ثم رحل الى تلمسان واستقر به الحال أربع سنوات شرح فيها البردة شرحا وافيــا بديعا ولخص كثيرا من الكتب ، وألف فى علم الحساب ، وفى أصول الفقه وشرع فى كتابة تاريخه المشــهور « العبر • وديوان المبتــدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاهدهم من ذوى السلطان الاكبر » ثم رحل الى القاهرة سنة ٧٨٤ هـ وأقام بها مدة عينه السلطان (برقوق) قاضى قضاة المــالكية ، ولكنه لم يمكث فى هذا المنصب طويلا بسبب تعصب الأمراء ضده ، ولكنه انتفع كثيرا من اقامته فى مصر اذ عاصره علماء أجلاء وأدباء عظماء أمثال محمد بن الجزيرى • ومحمد بن الشحنة ، وابن مكانس ، وبدر الدين البشــتكى والقلقشندى صاحب (صبح الأعشى) وغيرهم ثم عزل عن القضــاء وسافر الى الشــام مع الملك الناصر ، وعند استيلاء تيمورلنك • على دمشق أسر مع من أسر ولكنه استطاع أن يستولى على لب تيمور حتى اتخذه سميرا له ، وأثناء جلوسه معه حدثه عن قصة تاريخه الكبير الذى تحدث فيه عن الوقائع بأسرها وطلب منه أن يأذن له بالذهاب الى مصر لاحضاره قبل أن يظفر به برقوق فأذن له ، وسافر للقاهرة ولكن الأجل لم يمهلهُ اذ وافاه أجله فجأة فى سنة ٨٠٨ هـ ودفن بمقابر الصوفية خارج قرافة باب النصر ، ولاهتمام الناس بتاريخ ابن خلدون قسم الى عدة كتب فكان منه ما هو فى أخبار دولة بنى الأغلب بأفريقيا وصقلية الى حين استيلاء الفرنج عليها ، وتاريخ الدولة الاسلامية ، والمقدمة وهى الجزء الاول من كتاب العبر ، وذهب باسم المقدمة حتى صــار علما عليها وقد طبعت عدة طبعات منها الطبعة التى اعتمدنا عليها وهى طبعة لجنة البيان العربى • بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى • وهذه المقدمة هى التى تهمنا لأنها هى التى تتصل بموضــوع البحث اذ عقد فيها بابا لعلم البيــان

وقال عنه : « انه حادث فى الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لأنه يتعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعانى ، ثم بين ما يشتمل عليه هذا العلم وجعله ثلاثة أصناف .

الصنف الأول : ما يبحث فيه عن الهيئات والأحوال التى تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة ، وان اشتهر بعلم المعانى حديثا .

الصنف الثانى : ما يبحث فيه عن لازم اللفظ وملزومه وهى الاستعارة والكناية ويسمى علم البيان .

الصنف الثالث ــ وهو ما يبحث فيه عن تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق اما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه ألفاظه . أو ترصيع يقطع أوزانه ، أو تورية عن المعنى بايهام معنى أخفى لاشتراك اللفظ بينهما وأطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين (علم البيان)[1] وهو اسم الصنف الثانى عند الاقدمين ، ثم تكلم عن بعض رجال هذا الفن أمثال جعفر بن يحيى ، والجاحظ ، وقدامة ، والسكاكى فى حين أنه أغفل من قبل السكاكى علماء أجلاء فى هذا الفن أمثال عبد القاهر الجرجانى وابن سنان الخفاجى وأبى هلال العسكرى . ثم جعل العناية بهذا الفن لأهل المشرق دون أهل المغرب معللا لذلك بأن عمران المشرق أوفر من عمران المغرب . أو أن الأعاجم وهم أغلب أهل المشرق كانوا أكثر عناية بهذا الفن من العرب فى العصور المتأخرة ونسب لأهل المغرب اهتمامهم بالبديع لولعهم بتزيين الألفاظ ، ولسهولة مآخذ البديع . ثم تكلم عن ثمرة علم البيان وقصرها على فهم اعجاز القرآن قائلا [2] واعلم أن ثمرة هذا الفن انما هى فى فهم الاعجاز من القرآن لأن اعجازه فى وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة ،

---

(١) انظر هامش ١٦٧٠ ــ ص ١٢٢٩ من الجزء الرابع من المقدمة) .
(٢) ٤ ــ ١٢٦٦ .

ومفهومة وهى أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ فى انتقائها . وجودة تركيبها ورصفها ، وهذا هو الاعجاز ــ فى نظره ــ الذى تقصر الافهام عن ادراكه وانما يدرك بعض الشىء منه من كان له ذوق راق وحس مرهف بمخالطة اللسان العربى ، وحصول ملكته فيدرك اعجازه على قدر ذوقه ، فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما فى ذلك ، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه ، وأحوج ما يكون الى هذا الفن المفسرون ، وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جار الله الزمخشرى ، ووضع كتابه (الكشاف) الذى تتبع فيه آى القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدى البعض من اعجازه ، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير ، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن وجوه البلاغة ، ولهذا يتحاشاه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة ، فمن أحكم عقائد أهل السنة ، وشارك فى هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر عن الرد عليه من جنس كلامه ، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر معتقده ، فانه يتعين النظر فى هذا الكتاب للظفر بشىء من الاعجاز مع السلامة من البدع والأهواء والله الهادى من يشاء الى سواء السبيل »[1] . والذى لا حظته على ابن خلدون بعد عرض هذا النص الذى أورده فى مقدمته عن اعجاز القرآن أنه يرى أن اعجاز القرآن قائم على بلاغته ــ ولذلك حث على الاطلاع على التفاسير التى تنهج النهج البلاغى (كالكشاف) ، وبلاغته تتضح فى انتقاء الألفاظ وجودة الرصف ، وحسن التركيب ، وبذلك تكون بلاغة القرآن قائمة على نظمه والنظم فى سبك الألفاظ وصياغتها ، كما ألاحظ عليه أن ادراك هذه البلاغة موقوف على الذوق ورقيه وذلك يتوقف على العربية ومخالطة اللسان العربى والحياة بين العرب ، والتلقى منهم والأخذ عنهم حتى تحصل الملكة القادرة ، وترتب على هذا الرأى اعتقاده

(١) المقدمة ٤ ــ ١٢٦٦ .

بأن نمو الذوق ، وبيان اللسان ، وبلاغة الكلام كلها متوقفة على البيئة فمن كان من العرب أو خالطهم فهو بليغ • ولذلك حكم بأن العرب أيام النبى — صلى الله عليه وسلم — والذين كانوا يعيشون فى البيئة العربية أفصح لسانا ، وأعظم بيانا ، وأغلى مقاما ممن أتوا بعدهم ، وأنا لا أسلم له بهذا مطلقا • حقا ان فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — وبيئته أناسا عاشوا فى ظل القرآن أثناء نزوله ووقت تفسيره على يد الخلفاء والتابعين ، ولكن مع هذا فان البيئة لم تعدم مغلق الفهم البعيد عن حسن البيان ، عريا عن الفصاحة وتلك قضية أثارها كثير من العلماء قبل ابن خلدون ، فبعضهم يرى أن الفضل للقدماء شعراء كانوا أو علماء لا يستشهد الا بشعرهم ولا يؤخذ الا برأيهم ، ولا يسار الا على منهجهم ، لأنهم لم يخالطوا لسانا غير اللسان العربى أو أنهم عاصروا النبى — صلى الله عليه وسلم — أو الطبقة الاولى من المسلمين ، ولذلك خلصت عقيدتهم • وصفت لغتهم ، وهناك طائفة أخرى عارضت هذا الرأى منهم ضياء الدين ابن الأثير الذى أعتبره أوضح من قال كلاما فى هذه القضية [1] حيث يقول « وقد كان العرب الذين أنشأوا قول الشعر وابتدأوه وهم أهل الفصاحة والبلاغة طبعا من غير تعلم يجيدون فى القليل من أشعارهم • هذا امرؤ القيس والنابغة الذبيانى ، والأعشى قد قيل أنهم أشعر العرب • ومع هذا فان الردىء من أشعارهم كثير • وليتهم خرجوا خفافا ، ومما أعجب منه فى هذا الموضع أنى وجدت الأئمة من علماء العربية يفتون مع تقدم الزمن فى تفضيل الشعراء ويتركون النظر فى فضيلة أشعارهم ، وهم فى هذا بين أمرين : اما انهم لم يحققوا معرفة علم البيان من الفصاحة والبلاغة ، ولا نقبوا عن أسرارهما اللفظية والمعنوية • واما أنهم رأوا أن الفضيلة فى الزمن دونها كل فضيلة ، ونسوا قول النبى — صلى الله عليه وسلم — (نحن الآخرون السابقون) أى نحن الآخرون زمانا السابقون فضلا ،

---

(١) انظر كتاب الاستدراك له ص ٢٤ •

وهذا الحكم يقع فى كل من تأخر زمانه وتقدم فضله . وكذلك أقول فى الشـعراء وكل من كان ذا صلة بالعربية وعلومها فان من المتـأخرين من فاق الأولين ، والذى أدانى اليه نظر الاجتهاد دون التقليد أن جريرا والفرزدق والأخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية وبينهم وبين أولئك فرق بعيد ، ثم يفضل أبا تمام والبحترى والمتنبى على الثلاثة السابقين ، ثم يفضل أبا تمام على البحترى والمتنبى وهو فى هذا يؤمن بسنة التطور ، ولا شك أن من تأخر زمانه اتسعت حضارته ، ورق احساسه ، واطلع على ما لم يطلع عليه المتقدمون زمانا فيجتهد ويغير ويشقق ويفرع ، وسنة التطور تدعوه الى عدم الوقوف والجمود لدى الموروث ، وقد تخيل أن هذا الكلام لا يجد قبولا من الناس فقال .. وكأنى بسامع قولى هذا وقد ربا غيظا ، ودارت عيناه وليس ذلك الا محض تقليد أو جهل بمعرفة أسرار الألفاظ والمعانى .. ثم قال .. لا كيف تشبه المتنبى بامرىء القيس ، أو من كان فى طبقته ، فأقول فى جوابه .. « لا شك أن أمرأ القيس أو من كان فى طبقته لم يكن لأحدهما رأسان أو لسانان ، كما لم يكن له أربعة أيدى أو أرجل ، ان كان النظر انما هو فى تقـدم الزمان فلا شك أن أولئك أفضل وان كان النظر انما هو فى الألفاظ والمعـانى فلو عاش امرؤ القيس ثم مات ، ثم عاش ، لمـا أداه فكره الى تدقيق النظر فى هذا المعنى الذى أورده المتنبى فى الرثاء ..

قد كان كل حجاب دون رؤيتها ... فما قنعت لها يا أرض بالحجب
ولا رأيت عيون الانس تدركها ... فهل حسدت عليها أعين الشهب

وغير ذلك من الشواهد الذى قارن فيها بين قول المتنبى ، ورأس شعراء الجاهلية ، ولم أطل فى شرح ذلك الا لأرد على ابن خلدون ومن نهج نهجه من قبل ومن بعد ممن يقصرون الفضل فى البلاغة والفصاحة فى الكلام والذوق وسلامته فى الشعر ورقة الاحساس وعذوبته على المتقدمين دون غيرهم ، جاعلين أهم مقياس لديهم فى ذلك هو تقدم

الزمن • وكان ردى عليه بعالم فذ ، وناقد حر ومتقدم عليه فى الزمن ، ولعلى بهـذا أكون قد كشفت عن رأى ابن خلدون فى اعجاز القرآن البيانى • الذى يراه فى بلاغة القرآن ومدار ادراك هذا الاعجاز على الذوق القائم على مخالطة اللسان العربى وحصول ملكته •

— ٢١ —

تركت ابن خلدون وتقدمت قليلا بالفكرة فالتقيت بأبى عبد الله محمد بن أبى زيد بن عبد الرحمن المراكشى والمعروف بالضرير المولود فى سنة ٧٣٩ هـ بمراكش والمتوفى سنة ٨٠٧ هـ فألفيته فقيها وحافظا ونحويا وبيانيـا وشـاعرا وفتشت فى آثاره العلميـة لأرى ما هى وما صلتها بفكرة اعجاز القرآن البيانى فوجدته ألف كتبا كثيرة لا بأس بها • منها كتاب له أثر كبير فى التاريخ بل يثبت فيه نظرية هامة فى نظره وهى الشرف الذى يصيب الانسان من جهة الأم ، واسمه « اسماع الصم فى اثبات الشرف من جهة الأم » ابتدأ فى املائه يوم الجمعة السادس من شهر ذى القعدة سنة ٨٠١ هـ وأوله •• الحمد لله الذى جعل لسيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — كل الكمال » رتبه على مقدمة وستة أبواب فى الاستدلال على الشرف من جهة الأم بالقرآن والسنة النبوية والاجماع والنظر العقلى •• وذكر أدلة المخـالفين والاستدراك عليها ، ثم ذكر مسائل من حقوق الشرفاء على الناس ، وحقوق الناس عليهم ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٩٨ مجاميع تاريخ[١] • وله كتاب آخر سماه « ترجيز المصباح فى اختصـار المفتاح » للسـكاكى ويغلب على ظنى أنه منظـوم فى المصطلحات البلاغية التى تضمنها كتاب المفتاح • وله كتاب آخر أسماه « ضوء الصباح على ترجيز المفتاح فى المعانى والبيان » • ولعله شرح لترجيز المفتاح وآثاره ، وان كانت هذه الآثار متصلة بالفكرة الا أن

(١) ١١ — أعلام المؤلفين لكحالة .

الاتصال غير مباشر ، لأن أكثرها فى البلاغة وهى وسيلة للوصول الى اعجاز القرآن ، والذى يهمنا منه أن المراكشى من علماء البـلاغة المتأخرين الذين ينهجون فى دراستهم منهج السكاكى فى الدراسة البلاغية ، أى المنهج المنطقى الكلامى الذى يعتمد على تقديم المقدمات واستنتاج النتائج والتلخيصات ، وفرض القواعد على الشواهد ، ومما لاشك فيه أن المراكشى كغيره من علماء البلاغة الذين درسوها ليصلوا من وراء تلك الدراسة الى الكشف عن اعجاز القرآن ويتضح لنـا من ذلك النص الذى نقله السيوطى عن شرح المصـباح[1] والذى يقول فيه « الجهة المعجزة فى القرآن تعرف بالتفكير فى علم البيان وهو كما اختاره جماعة فى تعـريف ما يحترز به عن الخطـأ فى تأدية المعنى ، عن تعقيـده ويعرف به وجوه تحسين الكلام بعـد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال •• أنظر معنى كلمة بيان فى كتابنا الصور البيانية وما قاله المراكشى فيما يعرف به الاعجاز والجهة التى يتوصل بها اليه هى علم البيان والبديع والمعانى • وهو بذلك يخالف الباقلانى كما سبق أن قلت — فى عرف المتأخرين من علماء البلاغة لأن جهة الاعجاز ليست مفردات ألفاظه والا لكانت قبل نزوله معجزة ، ولا مجرد تأليفها والا لكان كل تأليف معجزا ولا اعـرابها والا لكان كل كلام معرب معجزا ، ولا مجـرد أسلوبه والا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا — والأسلوب الطريق — والا لكان هذيان مسيلمة معجـزا ولأن الاعجاز يوجـد دونه أى الأسلوب فى نحو قوله تعالى : « **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا** » ، وقوله : « **فاصدع بما تؤمر** » •

ومما تقدم يتضح لنا رأى المراكشى اذ يرى أن الاعجاز البيانى للقرآن بمجموع ما تقدم أى بمفرداته وتأليفها وأسلوبه ومعانيه كما أننا نستشف من كلامه أن هناك دليلين على اعجازه •

---

(١) الاتقان ٢ : ١٣٨ •

١ ــ دليل اجمالى : وهو ان العــرب عجزت عنه وهو بلسانها فغيرها أحرى •

٢ ــ دليل تفصيلى : مقدمته التفكير فى خواص تركيبه •

ونتيجته العلم بذلك الاعتقاد بأنه تنزيل من المحيط بكل شىء علما •

وباعمان النظر فى رأى المراكشى يوقفنا على أنه يتفق مع اليمنى العلوى فى أن اعجاز القرآن ببيانه ، الا أنه يقيد المقصود بعلم البيان أكثر من اليمنى فهو يخرج فصاحة الألفاظ من حيز الاعجاز ، وهو فى ذلك يتفق مع عبد القاهر الجرجانى الذى يرى اللفظة المفردة لا قيمة لها ما لم تدخل فى تركيب • كما أن البيان فى نظر المراكشى التـأدية والوضوح ومراعاة مقتضى الحال وتحسين الكلام ، وان أشــار الى الصرفة الا أنه نفاها وخالف الأصفهانى الذى جمع بينها وبين البلاغة فى اعجاز القرآن ••

ــ ٢٢ ــ

عدت بفكرة الأعجاز البيانى بعد التطواف بالمغرب الى مصر وفيها التقيت بعلم من المصريين الذين أسهموا بنصيب وافر فى الدراسات القرآنية وهو « الجلال السيوطى أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر بن محمد ســابق الدين الحضرى السيوطى » ولعــل السيوطى لقب جد من أجداده لأن جلال الدين قاهرى المولد والوفاة اذ ولد فى القاهرة سنة ٨٤٩ هـ ، ونشأ بها يتيما ، وحفظ القرآن ، وسنه دون ثمانى سنوات ، ثم حفظ كتاب العمدة لابن رشــيق ، ومنهاج الفقه ، وبعض كتب الأصول ، وألفية ابن مالك فى النحو ، ثم استمر فى الاشتغال والحفظ الى أن ظهرت أول ثمرة من ثمار غرسه وهى شرح البسملة والاســتعاذة ، ومن الذين تأثر بهم السيوطى وأخذ عنهــم

البلقينى والمنـــاوى والتقى الشمنى ، وكان له بجانب أساتذته الفطنة والذكاء ، فبرع فى التفسير والحديث والفقه والنحو والبلاغة واللغة ، كما كان له بجانب تبحره فى هـــذه العلوم التطواف بالبلاد لينهل من هدى أصحابها فذهب الى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب ، والتقى بأنهار هذه البلاد العلمية وتزود من رجالها ما شاء من كل فن • وعاصره فى مصر « شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلانى المصرى » صاحب ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى ، والمذاهب اللدنية بالمنح المحمدية ، ولكن السيوطى لم يحمده بل كان يحقد عليه ، ويغض من مكانته مدعيا أنه ينقل عن كتبه ولا يعزو ما نقل عنه اليه[١] •

وكان عصر السيوطى عصر تأليف وتدوين فى مختلف العـــلوم وشتى الفنون ، فاستمر على التحصيل والتأليف والشرح والاختصار الى أن توفى بالقاهرة سنة ٩١١ هـ ودفن فى حوش قوصون خارج باب القـــرافة •

وبلغت مؤلفات السيوطى عددا كبيرا أشهر ما يتصل منها ببحثنا : « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » « مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن » ، « لباب النقول فى أسباب النزول » ، « والأكليل فى استنباط التنزيل » ، « وترجمان القرآن » ، « التحبير لعلم التفسير » ، « المقدمة فى الألفـــاظ المعربة فى القرآن » ، « تفسير الجلالين » ، « طبقـــات المفسرين » ، « متشابه القرآن » ، « الأتقـــان فى علوم القرآن » • وآخرها هو الذى يتصل ببحثنا اتصالا وثيقا وهو « الاتقان فى علوم القرآن » كما أنه هو الذى اعتمدنا عليه فى معرفة موقف السيوطى من اعجاز القرآن البيانى ، لأنه هو الذى اهتم فيه بالقرآن وعلومه ،

(١) انظر كشف الظنون •

وهو يقع فى جزأين طبع عدة طبعات واعتمدت منها طبعة مصر سنة ١٢٧٩ هـ وقسمه الى أنواع .

وفى الجزء الثانى منه عقد فصلا تحت عنوان « النوع الرابع والستين فى اعجاز القرآن » أطال فيه الكلام ، وذلك لجمعه آراء من سبقه من العلماء ، وضم بعضها الى بعض من غير تعليق ولا نقد . فأتى بالصرفة بجانب القول ببلاغة القرآن ، الى جانب القول بالأخبار عن المغيبات .. ولم يتضح لنا بعد سرد هذه الآراء الرأى الذى يميل اليه ، لأنه لم يبين لنا ذلك ، كما أنه لم يرجح أحد هذه الآراء حتى كدت أن أهمل كتابه فى تطور هذه الفكرة ــ مع قيمته العلمية ــ وخاصة بعد أن تكلمت عن البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، فوجدت الاتقان صورة منه فى هذه الفكرة ، ولكن عندما انتقلت الى فصل آخر فى نفس الجزء وهو الفصل الذى تكلم فيه عن العلوم المستنبطة من القرآن ألفيته يرى أن القــرآن معجز لكونه مصــدر جميع العلــوم : دينية ودنيوية : وهذا ليس بجديد منه اذ أخذ به من قبل الامام الغزالى فى « احياء علوم الدين » والزركشى فى « البرهان » وان أنكره عليهم الامام الشاطبى ، ولكن ما فعله السيوطى فى هذا الرأى أنه استدل عليه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار السلف ..

١ ــ **فدليله من القرآن** قوله تعالى : **« ما فرطنا فى الكتاب من شىء »** وقوله : **« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء »** .

٢ ــ **ودليله من الحديث** قوله صلى الله عليه وسلم : « ستكون فتن .. قيل وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله .. فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعــدكم وحكم ما بينكم » وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أراد العلم فعليه بالقرآن فان فيه خبر الأولين والآخرين » وقد فسره البيهقى بأنه يعنى أصول كتب أودع علومها أربعة منها : التوراة والانجيل والزبور والفرقان ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان .

٣ ـ **ودليله من آثار السلف** قول الامام الشافعى رضى الله عنه : « جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع السنة شرح للقرآن » وقوله : « جميع ما حكم به النبى صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن » قلت : ويؤيد هذا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « لا أحل الا ما أحل الله و لاأحرم الا ما حرم الله فى كتابه » .

فأخذ الأصوليون الأدلة العقلية والتخصص والأخبار والنص الظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والنسخ الى غير ذلك من الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء . ولمح المؤرخون قصص القرآن والأمم الخالية فدونوا آثارهم ووقائعهم وسموا ذلك بالتاريخ والقصص وتنبه آخرون لأمثاله ومواعظه .. ونظر الكتاب والشعراء الى ما فيه من جزالة اللفظ ، وبديع النظم والايجاز واستنبطوا المعانى والبيان والبديع .. الخ . ولقد صدق عليه قول الشاعر :

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدى الى عينيك نورا ثاقبا
كالشمس فى كبد السماء وضؤوها ... يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

ولم يقف أمر السيوطى عند هذا الفصل الذى عقده لبيان العلوم المستنبطة من القرآن الكريم ، بل ألف كتابا شرح فيه ذلك ، وأفاض وهو « كتاب الاكليل فى استنباط التنزيل » ذكر فيه كل ما استنبط منه من مسائل فقهية وأصولية واعتقادية ، وغير ذلك مما هو جم الفائدة عميم النفع يجرى مجرى الشرح لما أجمله فى هذا الفصل وأهم ما أشار اليه السيوطى فى آخر فصل الاعجاز هو جمال الألفاظ القرآنية فنراه يورد ألفاظا من القرآن خفيفة على اللسان ذات جرس موسيقى أخاذ فى السمع ثم يعقد مقارنة بينها وبين مرادفاتها فى اللغة لبيان حسن الانتقاء ، ودقة التخيير فى ألفاظ القرآن الكريم يقول [١] :

---

(١) (الاتقان ٢ : ١٤٥) ناقلا عن البازى فى أول كتابه « أنوار التحصيل فى أسرار التنزيل » .

« اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزئى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معانى الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أحسنها وأفصحها .

واستحضار هذا متعذر على البشر فى أكثر الأحوال ، وذلك عندئذ حاصل فى علم الله تعالى فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وان كان مشتملا على الفصيح والأفصح ،.والمليح والأملح ، وضرب على ذلك أمثلة منها قوله تعالى: « **وجنى الجنتين دان** » فانه لو قال مكانه « وثمر الجنة قريب » لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين ، ومن جهة أخرى وهى أن الثمر لا يشعر بمصيره الى حال يجنى فيها ، ومن جهة ثالثة المؤاخاة بين الفواصل .

ومنهـــا قوله تعالى : « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب** » فان تعبير القرآن أرقى وأحسن مما لو قلنا مكان « تتلو » « تقرأ » لأن تعبيرنا أثقلته الهمزة ! وقوله تعالى : « **لا ريب فيه** » أحسن من قولنا لا شـــك فيه . وقوله : « **ولا تهنوا** » أخف من قولك : ولا تضعفوا ولفظة « آمن » أخف من صدق ولذلك كثر ورودها فى القرآن « وآتى » أخف من : أعطى لائتلاف هذه الألفاظ مع ما قبلها وما بعدها وخفتها واختصارها أحيانا . و « تنكح » أخف من تتزوج لأن فعل أخف من تفعل ومن هنا كثر لفظ النكاح بدل الزواج .

وفى سبيل التخفيف ووصولا الى السهولة والاختصار استعمل لفظ « الرحمة والغضب والرضى والحب والمقت » فى أوصاف الله تعالى — مع أنه لا يوصف بها حقيقة لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام وامتـــد التعبير كأن يقال : يعامله معاملة المحب أو المـــاقت . فالمجاز فى مثل ذلك أفضل من الحقيقة لخفته واختصاره وابتنائه على التشبيه البليغ » .

وتلك ملاحظة موسيقية بحتة نثبتها له ، ونعترف له بمدى أهميتها فى دراسة القرآن الكريم من الناحية الصوتية ــ على وجه خاص ــ ومع ذلك فنحن نلفت النظر الى أن ابن الأثير قد أشار اليها فى كتابه[1] حينما تعرض لطرق القرآن فى تجميل الألفاظ وذلك بمقارنته بين لفظة « •• يؤذى واستعمالها فى شعر المتنبى ، وحسن استعمالها فى القرآن » •

كما أنه من الجدير بالملاحظة فى بحث هذا الموضوع فى كتاب « الاتقان » تلك التنبيهات التى نبه اليها وان كان أكثرها قد ذكر عرضا فى كتب السابقين وورد فى لمحات من هذه التنبيهات •

التنبيه الأول : القـــدر المعجز من القرآن • يرى بعض علمـاء المعتزلة أن الاعجاز متعلق بجميع القرآن ، ويرى البعض الآخر منهم أن كل سورة من سور القرآن معجزة برأسها ، والقـــاضى الباقلانى يرى أنه « يتعلق الاعجاز بسورة من سور القرآن قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها ــ وهذا منقول عن أبى الحسن الأشعرى[2] بحيث يتبين فيه تفاصيل فنون البلاغة » •

وقال قوم آخرون : « الاعجاز لا يحصل بآية بل يشترط الآيات الكثيرة » ، وهــذا التنبيه مســبوق اليه الســيوطى من الباقلانى ــ والزركشى[3] •

التنبيه الثانى : هل يعلم اعجاز القرآن ضرورة ؟
نقل السيوطى عن الأشورى[4] « أن ظهور ذلك على النبى صلى

---

(١) « المثل السائر » ١ : ١٢٥ .
(٢) اعجاز القرآن ١٩٨ .
(٣) أنظر ص ١٦٧ من هذا الكتاب .
(٤) اعجاز القرآن ٢٠١ .

الله عليه وسلم يعلم ضرورة وكونه معجزا يعلم باستدلال ولكن الباقلانى ـ وان نقل رأى الأشعرى ـ يرى أن الأعجمى لا يمكنه أن يعلم اعجازه الا استدلالا وكذلك من لم يكن بليغا ، فأما البليغ الذى قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فانه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الاتيان بمثله ، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه . وهذا ليس بجديد أيضا من السيوطى فقد سبقه اليه الباقلانى وأجاب عنه الأشعرى [1] .

التنبيه الثالث : هل القرآن متفاوت فى مراتب الفصاحة ؟

اتفق العلماء جميعا على أن القرآن فى أعلى مراتب البلاغة بحيث لا يوجد فى التراكيب ما هو أشد تناسبا ولا اعتدالا فى افادة ذلك المعنى منه . فرأى أبو النصر القشيرى التفاوت فى الفصاحة قائلا لا ندعى أن كل ما فى القرآن على أرفع الدرجات فى الفصاحة . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى القرآن الأفصح والفصيح ، ثم أورد سؤالا وهو أنه لم لم يأت القرآن جميعه بالأفصح ، وأجاب عنه الصدر «موهوب الجزرى» بما حاصله أنه لو جاء القرآن على ذلك لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الفصيح والأفصح ، فلا تتم الحجة فى الأعجاز فجاء على نمط كلامهم المعتاد ليتم ظهور جنسه ، كما لا يصح للبصير أن يقول للأعمى : قد غلبتك بنظرى لأنه اذا ما فقد النظر فكيف تصح منه المعارضة ؟

ويرى الباقلانى أن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا وان كان بعض الناس أعمق احساسا له من بعض [2] .

---

(١) انظر ص ١٦٧ من هذا الكتاب .
(٢) (اعجاز القرآن ٢٠٥) .

وأنا أرى ما رآه الباقلانى فان جميع كلمات القرآن فى الغـــاية القصوى من الفصاحة كما أن تراكيبه فى أعلى الطبقات بلاغة ، ولكن القارىء يختلف عنده الاحساس عندما يقرأ مثلا قصص القرآن وأخبار الأمم فيه عن الاحساس عنـــدما يتلو آيات المواريث « **ولكم نصف ما ترك أزواجكم** » أو آيات المعاملات والأحكام • فألفاظ القرآن أفصح الألفاظ ، ومعانيه أبلغ المعانى ، وليس معنى هذا أن القرآن خالف المعتاد لمجيئه على غير عادة العرب • فألفاظه ألفاظهم ولكن الفضل والتقـــدم فى اختيار هذه الألفاظ ثم وضعها فى مواضعها « كل ذرة فى خليتها وكل خلية فى عضوها وكل عضو فى جهازه وكل جهاز فى وظيفته •• يؤديها على أكمل وجه وأتم نظام » •

ولا يعترض معترض بأن الشعر العربى فى رتبة فوق رتبة أى كلام فيجب أن يكون معجزا •• حقا ان الشعر معجز ولكن اعجازه نسبى فان كل الناس لا يقولون الشعر وان قاله البعض فهو متفاوت بينهم درجة وكما • ويتضح هذا أكثر من أن الشىء الذى اتفق معناه يختلف الشعراء أنفسهم فى تناوله وعرضه وابرازه للنـــاس فى صور فنية مختلفة • ومن هنا لم يكن الاعجاز فى الشعر عاما ولا دائما • ولذلك تقدم القرآن الكريم الشعر •• فهو منبع الحكمة الدائمة ديمومة الحياة ، ودستور الصدق والحقيقة الكاملة •• أما الشعر فهو قائم على التخييل ، وتصور الباطل فى صورة الحق والافراط فى المبالغة ، وقد قال بعض الحكماء : لم ير متدين صادق اللهجة مغلقا فى شعر [1] •

ولمـــا كان أساس الاعجاز البيانى : التحدى فقد نبه السيوطى على الخلاف الذى وقع بين العلماء فيه ، وهل وقع للانس دون الجن أم لهما معا ؟ قال : « وقال بعضهم : انما وقع التحدى للانس دون الجن لأنهم ليسوا من أهل العربية التى جاء القرآن على أساليبها وانما

(١) (الاتقان : ٢ : ١٤٣) •

ذكروا فى قوله تعـــالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن** » تعظيما لاعجازه لأن للهيئة الاجتماعية من القدرة ما ليس للأفراد فاذا فرض اجتماع الثقلين فيه وظاهر بعضهم بعضا وعجزوا عن المعـــارضة كان الفرد الواحد أعجز ! وقال فريق آخر : بل دفع للجن أيضا على الاتيان بمثل القرآن ، وقد سبق السيوطى الى هذه الفكرة من الزركشى •

وبعد أن ثبت لنا مما ســـبق أن اعجاز القرآن قائم على نظمه وتأليفه فهل غير القرآن من الكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزبور معجز كالقرآن ؟؟

ورد على ذلك بأن اعجاز القرآن قائم على نظمه ــ الى جانب أسس أخرى ــ بخلاف هذه الكتب فان اعجازها قائم على الاخبار عن الغيب ، كما أن القرآن وقع فيه التحدى بخلاف غيره من الكتب ولأن اللسان العربى هو الذى يمكن فيه التحدى بما فيه من الفصاحة التى يقع فيها التفاضل بخلاف غيره من الألسنة ، وتلك فكرة جديدة منه •

وبعد فأنا أرى أن الفضل الذى يمكن اثباته للسيوطى أنه كفانا مئونة الرجوع الى أكثر الكتب والمراجع التى تكلمت عن الاعجاز لجمعه ذلك وسرده الآراء التى قالها أصحابها أثناء حديثهم فى موادهم العلمية، وان نبه على أشياء كثيرة ــ أثبتها له ــ قد يمر عليها القارىء عرضا دون أن يعيرها قليلا من النظر •

فبهذا الجمع والعرض للكتب والآراء التى تناولت الموضوع كان له الفضل الذى نذكره له ونشكره عليه والله يتولاه بحسن الجزاء •

ــ ٢٣ ــ

تركت مصر وتنقلت عبر الأزمنة والأمكنة فى عصر الأتراك أفتش عمن كتب عن اعجاز القـــرآن ، ومرت سنون طويلة تقرب من قرنين ،

واتجهت نحو العراق على أظفر بمنكتب عن الاعجاز ، فالتقيت بشهاب الدين السيد محمود الألوسى[1] وأخذت أتحسس أخبـــاره وأعرف معارفه ، فألفيته ولد سنة ١٢١٧ هـ فى جانب الكرخ من بغداد ، وفيها نشأ وعلى علمــائها تعلم ، فأخذ العــلم عن والده ، والشيخ خالــد القلقشندى ، واشيخ على السويدى ، وكان له بجانب أخذه العلم على هؤلاء الأفاضل فطنة وذكاء وعناية فى الحرص على تزايد علمه ، وتوفير نصيبه منه ، وكان واضعا نصب عينيه قول القائل :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى   من وصل غانية وطيب عنــاق

ودليل ذكائه وتحصيله العلم أنه اشتغل بالتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، كما اشتغل بالتدريس فى عدة مدارس ، ولتقدمه فى العلم اشــتغل بالافتاء على مذهب أبى حنيفة النعمان ، كما كانت داره فى الرصافة موئلا للعلماء ، ونهرا يغترف منه طلاب العــلم ، وقد كان ــ رحمه الله ــ حريصا على طلبته يواسيهم ويسأل عنهم ، كما كان أديبا رقيقا ، وناثرا عظيما يتمتع بقوة التحرير وغزارة الاملاء ، وجزالة التعبير ، كما اشتهر بحافظة عجيبة ، وفيرة غريبة ، وكان كثيرا ما يفخر بحافظته بقوله : « ما استودعت ذهنى شــيئا فخاننى ، ولا دعوت فكرى لمعضلة الا وأجابنى » وتولى أوقاف المدرسة المرجانية ، وليس فيه شىء ولكن أهم ما فيه أنه لا يتولى هذا الوقف الا أعلم أهل البلد فكان توليه اياه بمثابة شهادة على أنه شيخ علماء البلد ، ثم ترك الوقف والافتاء سنة ١٢٦٣ هـ واشتغل بتفسير القرآن حتى أتمه ، ثم سافر الى القسطنطينية عام ١٢٦٧ هـ ، وعرض تفسيره على السلطان عبد الحميد خان فنال اعجابه ورضاه ، ثم رحل عنهــا سنة ١٢٦٩ هـ وكان سلفى الاعتقــاد شافعى المذهب ، الا أنه كان فى كثير من المسائل يقــلد

---

(١) (نسبة الى قرية اسمها آلوس وهى جزيرة فى منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد وكانت موطن أجداده) .

أبا حنيفة ـ رضى الله عنه ـ وكان يميل الى الاجتهاد • وقد خلف لنا آثارا عظيمة أشهرها أو أهم ما يتصل منها ببحثنا تفسيره « روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى » وقد توفى رحمه الله سنة ١٢٧٠ هـ ودفن مع أهله بمقبرة الشيخ معروف الكرخى بالكرخ[١] •

وتفسيره هذا قد أفرغ فيه ما وسعه ، وبذل فيه أقصى جهده حتى أخرجه للناس جامعا لآراء السلف رواية ودراسة ، مشتملا على أقوالهم بكل أمانة ، فينقل عن ابن عطية وأبى حيان والزمخشرى وأبى السعود والبيضاوى والفخر الرازى •

وقد سبق أن قلت أنه سلفى المذهب سنى العقيدة ، ولهذا كان كثيرا ما يرد ويفند آراء المعتزلة والشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه فى تفسيراتهم[٢] • كما لم ينس الألوسى فى تفسيره العناية بالمسائل الكونية والاستطراد فى الكلام عنها متأملا كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة مؤيدا رأيه مثبتا ما يرتضيه رافضا ما يأباه[٣] •

كما لم ينس الصياغة النحوية والفقهية التى تعترضه فى تفسيره [٤] كما ظهر موقفه من الاسرائيليات والأخبار المكذوبة التى حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم ، وظنوها صحيحة مع سخرية عجيبة منه أحيانا بهؤلاء المفسرين [٥] ، كما أن أهم شىء فى تفسيره اظهار المناسبات وأسباب النزول •

وبذلك أصبح روح المعانى موسوعة مهمة فى التفسير جمعت جل

---

(١) « انظر التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبى ١ : ٣٥٣ » .
(٢) « انظر تفسيره سورة البقرة آية ٧ ، ١٥ وآية ١١ من سورة الجمعة » .
(٣) « انظر تفسيره سورة يس الآيات ٣٨ ـ ٤٠ والشمس تجرى لمستقر لها .. الى قوله : يسبحون ، وانظر تفسيره لسورة الطلاق آية١٢» .
(٤) أنظر تفسير سورة البقرة : ٢٣٦ .
(٥) أنظر تفسير سورة المائدة : ١٢ ، وآية ٣٨ من سورة هود .

ما قاله علماء التفسير الذين تقدموه مع النقد الحر ، والترجيح الذى يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة ، وهو وان خرج واستطرد أحيانا الى ذكر نواح علمية مختلفة تكاد تخرجه عن مهمته كمفسر ، الا أنه متزن فى كل ما يتكلم عنه أو يستشهد له مع غزارة العلم على اختلاف نواحيه وشمول الاحاطة بكل ما يتكلم فيه ٠

وقد قدم لتفسيره بمقدمة تشتمل على سبع فوائد :

الأولى : فى معنى التفسير ٠

الثانية : فيما يحتاجه التفسير والرأى وكلام الصوفية ٠

الثالثة : فى أسماء القرآن العظيم ٠

الرابعة : فى أن كلام الله غير مخلوق ٠

الخامسة : فى بيان المراد بالأحرف السبعة ٠

السادسة : فى جمع القرآن وترتيبه ٠

السابعة : فى بيان وجه الاعجاز ، وهى التى تهمنا فى بحثنا الآن وقد قال فى تفسيره [1] وقد اختلف الناس فى ذلك فذهب بعض المعتزلة الى أن وجه الاعجاز اشـــتماله على النظم الغريب ، والوزن العجيب ، والأسلوب المخالف لمـــا استنبطه البلغاء من العرب فى مطالعه وفواصله ، وأبطل هذا الرأى من وجهين :

الأول بقوله : انا لا نسلم بالمخالفة فان كثيرا من آياته على وزن أبيات العرب نحو قوله تعالى : **« ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه »** ، وقوله تعـــالى : **« ومن يتق الله يجعـــل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »** ٠

الثانى : أنا لو سلمنا بالمخالفة لا نسلم أنه لمجردها يكون معجزا ، والا لكانت حماقات مسيلمة معجزة اذ هى على وزنه ٠

---

(١) الجزء الاول : ٢٤ ٠

ولم ينس الاشارة الى رأى الجاحظ فى أن القرآن معجز باشتماله على البلاغة التى تتقاصر عنها ضروب البلاغات ، ويرفضه أيضا لعدة وجـــوه •

الأول : أنا اذا نظرنا الى أبلغ الخطب ، وأجزل الشعر ، وقطعنا النظر عن الوزن وقسناه بقصار سور القرآن كان الأمر فى التفاوت ملتبسا ، والمعجز لا يبقى معه لبس ولا ريبة •

الثانى : أن القرآن غير خارج عن كلام العرب ، وما من أحد من بلغائهم الا وقد كان فى مقدوره الاتيان بقليل من مثل ذلك ، والقادر على البعض قادر على الكل •

الثالث : أن الصحابة اختلفوا فى البعض ولو كان منتهيـا الى الاعجاز بلاغة لعرفوه وما اختلفوا •

الرابع : أنهم طلبوا البينة فمن أتى بشىء منه ولو كانت منتهية الى حد الاعجاز ما طلبوه •

الخامس : أن فى كل عصر من تنتهى البـــلاغة اليه ، وذلك غير موجب للاعجاز ، وللدلالة على صدق مدعى الرسالة لجواز أن يكون هو من انتهت اليه •

ونقل رأى من يقول : ان القرآن : معجز لأنه غير متناقض ولا مختلف مع طوله وامتداده ، وأبطاله أيضا بوجهين :

الأول : أنا لا نسلم عدم التناقض والاختلاف فيه ، أما التناقض فقوله تعالى : « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** » • والبحور كلها فيه كقوله تعالى : « **فلا أنساب بينهم يؤمئذ ولا يتساءلون** » ثم قال : « **واقبل بعضهم على بعض يتساءلون** » • وقال تعالى : « **وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويســتغفروا ربهم الا أن تأتيهم**

سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا » وحصل المـانع فى أحد السببين ثم قال : « **وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟** » فحصر المـانع فى غيرهما ، هذا دليل من قال بذلك •

ولكن المتأمل يؤمن بأنه لا تناقض بين الآيات لنزولها فى أوقات مختلفة ، وأماكن مختلفة ، ولأسباب وأغراض متفاوتة •

وأما الاختـلاف فيراه الألوسى كما رآه غيره من قبل فى قوله تعالى : كالصوف المنفوش بدل « **كالعهن المنفوش** » وفى قوله تعالى : « **وضربت عليهم المسكنة** » بدل قوله : «**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**»•

الثـانى :

أنا لو سلمنا السلامة من جميع ذلك لكنه ليس باعجاز ، اذ هو موجود فى كثير من الخطب والشعر،ويظهر ذلك جليا فيما يكون على مقدار بعض السور القصار بتقدير التحدى بها •

ونقل رأى من يقول : أن القرآن معجز لموافقته قضية العقـل ودقيق المعنى ، وأبطله بقوله : ان ذلك معتاد فى أكثر كلام البلغاء ، وينقضه أيضا بكلام الرسول لبـلاغته ، وبما فى التوراة والانجيل من موافقة لقضية العقل ، وما فيهما من دقة المعنى ، ولم ينس رأى الآمدى الذى قال فيه : « ان القـرآن معجز بنظمه وبلاغته وبالنظـر الى جملته »[1] •

وقد ختم كلامه بتعليق على هذه الآراء قال فيه : « وقد أطال العلمـاء الكلام على وجه الاعجاز ، وأنوا بوجوه شتى للكلام الكثير

---

(١) وقد نسبه السيوطى الى بعض المعتزلة ـــ ١ : ٢٧ من الاتقان .

منها خواصه وفضائله مثل الروعة التى تلحق سامعيه ، وأنه لا يمل تاليه » بل يزداد حبا له بالترديد مع أن الكلام العادى اذا أعيد ملت منه النفوس ، وكونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه •• ثم أتى برأى ارتضاه وجعله السبب فى اعجاز القرآن حيث يقول [1] : والذى يخطر بقلب هذا الفقير أن القــرآن معجز بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر الى نظمه وبلاغته واخباره بالغيب ، وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى • وقد تظهر كلها فى آية وقد يستتر البعض كالأخبار عن الغيب ، ولا ضير ولا عيب ، فما يبقى كاف ، وفى الغرض واف •

نجوم سماء كلما انقضى كوكب   بدا كوكب تأوى اليــه كواكب

ثم أخــذ يبين كيف كان القرآن معجزا بنظمه وبلاغته فقال : « أما بيان كون النظم معجزا فلأن مراتب تأليف الكلام على ما قيل خمس :

الأولى : ضم الحروف المبسوطة بعضهــا الى بعض فتحصــل الكلمات الثلاث الاسم ، والفعل ، والحرف وهى اما خطابة أو رسالة •

الثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها الى بعض فتحصل الجمــل المفيدة وهو النوع الذى يتداوله الناس وهو **المنثور** •

الثالثة : ضم ذلك الى بعض ضما له مبــادىء ومقــاطع ومداخل ومخارج ويقال له **المنظوم** •

الرابعة : أن يعتبر فى أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقــال له **المســجع** :

---

(١) انظر روح المعانى ١ : ٢٧ •

الخامسة : الشعر • أن يحصل له مع ذلك وزن ويقال له ان قصد الشعر ، فأنواع الكلام فى نظر الألوسى لا تخرج عن هذه الأقسام ، ولكل من ذلك نظم مخصوص ، والقرآن فى نظره أيضا جامع لمحاسن الجميع بنظم مكتسى أبهى حلل ، ومتعر عن أى خلل ، ومشتمل على مزايا حتى قيل فى بلاغته :

من كل لفظ تكاد الاذن تجعـله   ربا ويعبـده القرطاس والقـلم

والبليغ اذا قرع فصل بينه وبين ما عداه • كما يرى أن من أدلة اعجاز القرآن ببلاغته قوله : « ان أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها متفاوتة ، فمنها : الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الطلق الرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود **فالأول** أعلاها ، **والثانى** أوسطها ، **والثـالث** أدناها وأقربها • وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام أوفر حصة ، وأخذت من كل نوع أعظم شعبة ، فانتظم لها بانتظام هـذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الفخامة والعذوبة ، وهمـا كالمتضادتين ، فكان اجتماع الأمرين مع نبو كل منهما عن الآخر فضيلة •

وقد سبق تقسيم الكلام الى طبقات وجمع القرآن لها من الرمانى على بن عيسى(١) • وسـبق الى أن القرآن يجمع بين صفتى الفخامة والعذوبة ولا يدركها الا أصحاب النظر السليم والفكر المستقيم(٢) •

ثم بعد عده وجوه الاعجاز وحصرها فى أربعة ورأى أن أشهرها

---

(١) « انظر ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن تحقيق الاستاذ محمد خلف الله أحمد وزميله » .

(٢) أنظر كلامنا عن السكاكى فى هذا الكتاب .

ـ وبه أخذ الجمهور ـ هو بلاغته وفصاحته حيث بلغت الرتبة العليا ، والغاية القصوى التى لم تكد تخفى على أهل هذا الشأن حتى النساء ، كما يحكى أن الأصمعى وقف متعجبا من امرأة تنشد شعرا فقالت : أتعجب من هذا ؟ أين أنت من قوله تعالى : « **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخاف ولا تحزنى انا رادوه اليـك وجاعلوه من المرسلين** » فقـد جمع بين أمرين ونهيين وبشـارتين أى مع ما فيه ممـا يدرك بالذوق ، ثم لم ينس رأى عبد القاهر الجرجانى الذى قصر اعجاز القرآن على النظم ، وجعل غيره تابعا له ، قائلا : ان الاعجاز المتعلق بالفصاحة والبـلاغة لا يتعلق بعنصريه اللذين هما اللفظ والمعنى ، فان الألفاظ ألفاظهم حيث قال تعالى : « **قرآنا عربيا** » « **بلسان عربى مبين** » . ولا بمعانيه ، فان كثيرا منها موجود فى الكتب المتقدمة عليه حيث قال تعالى : « **وانه لفى زبر الأولين** » .. وانما هو متعلق بالنظم المخصوص الذى هو صـورة القـرآن وباختلاف الصور يختلف حـكم الشىء واسمه لا بعنصره ، واستشهد بالخاتم والقرط والسوار اذا كان أصلها واحدا أو مختلفا [1] وهو مسبوق الى هذا ، وهو فى رأيه الذى اختاره يتفق مع الأصبهانى فى تفسيره الا أن الأصبهانى جمع بين الصرفة والقول بالنظم والبلاغة ، وهما متناقضان وقد سلم قول الألوسى من هذا التناقض .

ولم يقف أمر الألوسى فى الكشف عن اعجاز القرآن البيانى عند المقدمة بل تكلم عن أشياء تتعلق بالاعجاز عند تفسير آيات التحدى فى سورة الطور وسورة الاسراء وسورة هود .

ودراسة الألوسى لاعجاز القرآن البيانى لم تأت بجديد فى هذه الدراسة أكثر من جمع آراء السابقين ومناقشـتهم فيما قالوه ، وان

---

(١) « انظر روح المعانى ١ : ٢٨ » .

امتاز بترجيح بعض الآراء أحيانا ، فالألوسى فى مطلع العصر الحديث كان رأيه فكرة المتقدمين مختصرة واضحة ، كما كان تفسيره امتدادا لتفسير الكشاف للزمخشرى من الاهتمام بالمسائل البلاغية والنحوية ، كما يلمح مذهبه الاشارى فى التفسير ، وقوله الضمنى باعجاز القرآن العلمى الغيبى •

اعجاز القرآن فى نظر المحدثين :

تبلورت فكرة اعجاز القرآن البيانى عند الألوسى فى أوائل العصر الحديث وظهرت بعـده نزعة علمية دافعـة حاولت أن تعلل الاعجاز القرآنى بأسباب علمية هدفها اثبات مسايرة القرآن لكل ما يجد من مكتشفات ومخترعات ويمكننا أن نرد هذه النزعة العلمية الى ملامح عديدة وجدناها لدى الفخر الرازى فى كتابه « نهاية الايجاز فى دراية الأعجاز » والغزالى فى « احيـاء علوم الدين » وكذا السـيوطى فى « الاتقان فى علوم القرآن » •

ولئن وجدنا فى هذه الكتب شذرات هنا ، ولمحات هناك الا أنها تمخضت أخيرا لتلبس ثوب التجمع والظهور فى مؤلف خاص حوى كل ما يتعلق بهذه الناحية بين دفتيه • ومثل هذا يظهر فى كتاب : « كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية » لمحمد بن أحمد الأسكندرانى الطيب من رجال القـرن الثالث عشر الهجرى • وكذا كتابه الآخر : « تباين الأسرار الربانية فى النبات والمعادن والخواص الحيوانية » •

وتدرجت هذه النزعة عبر الزمن حتى تمت على أيدى بعض كبار المفكرين الاسلاميين أمثال : السيد عبد الرحمن الكواكبى الذى حاول أن يستخرج من القرآن الكريم مجموعة من المكتشفات الحديثة ، قال عنها أنه قد ورد التصريح أو التلميح بها فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا أو يزيد ، وعلل ظهورها بعد الخفاء باثبات اعجاز القرآن الكريم •

ولا يقف الكواكبى وحده فى هذا الميدان فثمة حكيم الاسلام وأديبه المؤمن المرحوم مصطفى صادق الرافعى الذى أشار فى كتابه اعجاز القرآن الى استخراج محدثات الاختراع ، وغوامض علوم الطبيعة من القرآن[1] . وهناك أيضا المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره القرآن : هذا التفسير الذى تظهر فيه تلك النزعة العلمية جلية واضحة . أضف الى هؤلاء ما قاله أحد المعاصرين وهو الاستاذ محمد محمود ابراهيم الذى ألف كتابا فى عدة أجزاء تحت اسم : « اعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض » تكلم فيه عن الآيات التى تتصل بالنواحى العلمية فى السماء والأرض ، وهو يرى أن الاعجاز قائم — ليس فى الاقتصار على العلم والحكمة فحسب — بل فى دقة تعبيره ووصفه الكامل الشامل الذى يتجلى فى مثل قوله تعالى : **« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل »** فهذا التكوير لفظا ومعنى يدل على أن الكواكب التى يختلف عليها الليل والنهار كروية الشكل تماما حتى يتأتى تكوير الليل على النهار ، وتكوير النهار على الليل ، فلو نقص التكوير من جانب لنقص تكوير الليل أو النهار أو أحدهما على الآخر .

وهكذا يسير فى مؤفه على النمط العلمى فى التفسير ، ولم يكشف عن اعجاز القرآن الا من هذه الناحية . ولعل السر فى هذا الاتجاه بفكرة اعجاز القرآن وتفسيره التفسير العلمى راجع الى رد الفعل العنيف الذى أحدثه الاتصال بأوروبا وامتزاج الثقافة العربية والاسلامية بالثقافة الأوروبية ، وكذا ما بهر العلماء من علوم ومخترعات حديثة . فحاول هؤلاء المفكرون أن يرجعوا الى تراثهم الاسلامى العربى مستنبطين منه أصول هذه العلوم وخشوا اذ هم لم يفعلوا أن يظهروا القرآن غير مساير للزمن فى أعين أنصاره ومتبعيه وأن تتزعزع العقيدة فى قلوب أناس بهرهم زبرج المدنية الحديثة ولألاؤها .

---

(١) أنظر ص ١٥١ من اعجاز القرآن .

نعم حاول هؤلاء أن يبينوا أن القرآن قد حوى هـــذه العلوم وأشار الى تلك المخترعات قبل أن يعرفها أهلها أنفسهم اذ سبقهم الى ذلك منذ ثلاثة عشر قرنا ، وقد استغل هؤلاء المفكرون بعض الكلمات والجمل القرآنية التى تتسع لتأويلات عديدة فطوعوها حسب أغراضهم وساروا بها تلك الوجهة فكان لهم ما أرادوه •

نقول هذا مؤرخين لاتجاه علمى غلب على ميدان اعجاز القرآن وتفسيره ولا يهمنا هنا مناقشته رفضا أو قبولا لأن ذلك ان حدث سوف يصرفنا عن غرضنا الأساسى من هذه الدراسة ، وهو السير بخطة الاعجاز والتأريخ لها تأريخا بعيدا كل البعد عن الميل والهوى على أن يتم هذا التأريخ فى سلسلة منتظمة غير منقطعة الحلقات أو منفصلة فى احداها •

وبعد •• فهذه مقدمة يسيرة لم نرج من ورائها الا القاء الضوء على فكرة اعجاز القرآن الكريم ، التى سرنا بها طويلا لننظر ما أصابها من تغير وتحور فى العصر الحـــديث ، وعلى يد علمائه الأجلاء اذ ربما اتضحت لنا أفكارهم ما دمنا ننظر اليها ضمن الاطار العام الذى حددته هذه المقدمة فى ايجاز •

— ٢٤ —

نعرض فى السطور التالية موقف العلامة الراحل الشيخ محمد عبده فى صـــدق وأمانة حـــيال نظرية الاعجاز ، فها هو ذا فى رسالة التوحيد يقول :

« جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم فى التعدى اصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقق الكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام • أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان

على أنه ليس من صنع البشر ، وانما هو النور المنبعث من شمس العلم الالهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ويمضى الشيخ فيذكر ما جاء فيه من الأخبار بالغيب ، وما كان من حرص العرب على معارضته ــ صلى الله عليه وسلم ــ والتماس الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الاخبار عن الله ، واثباتهم فى ذلك مبلغ استطاعتهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك الا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب العزيز ، أو بعشر سور من مثله ، وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به ليبطلوا حجته وليفحموا صاحب الدعوة[1] . وهو فى هذا كما نرى يذهب الى أن القرآن معجزة من عند الله لأمور أهمها : صدوره عن نبى أمى ، وكذا اخباره عن مغيبات عديدة بالاضافة الى تقاصر قوى البشر دون مكانته ــ ومعنى هذا فى عمومه أن الاعجاز قائم لديه على البلاغة ليس غير وهذا لا جديد فيه اذ هو اختصار لرأى الباقلانى الذى أفضنا فيه القول تفصيلا ، ووقفنا عنده الأمد الطويل ، واذا قلنا أن الشيخ أوجز رأى الباقلانى فى قيام الاعجاز على عنصر البلاغة فانما نستدل لما قلناه بما نقله عنه تلميذه المرحوم رشيد رضا[2] . من قوله : « ان لكلام الله تعالى أسلوبا خاصا يعرفه أهله ، ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه . وأما الذين لا يعرفون منه الا مفردات الألفاظ ، وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون » وقوله أيضا : « فهم كتاب الله تعالى يأتى بمعرفة ذوق اللغة ، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها وكذا قوله حين بين تأثير القرآن فى سامعه أو تاليه : « انى عندما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أنى فى زمن الوحى وأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينطق به كما أنزل عليه أو نزل به عليه جبريل ــ عليه السلام ــ » كل هذه النصوص

---

(١) رسالة التوحيد ١٤٦ ط المنار .
(٢) اعجاز القرآن للرافعى ١٩ .

التى نقلها الاستاذ رشيد رضا عن الشيخ الامام تفيد تأثيره بالسابقين الى مدى بعيد ، وخاصة بالسكاكى وعبد القاهر الجرجانى فى نحوهما هذا المنحى ، وان أكد هذا ما ذهبنا اليه فهو كل قصدنا حين نتدرج مع الفكرة من عالم الى آخر فما هى الا لبنات ترص بعضها بجوار بعض ليشكل لنا فى النهاية البنيان الذى نحلم به ، وهو الذى يجسم البصر فكرة اعجاز القرآن وتطورها وموقف العلماء منها عبر العصور •

— ٢٥ —

تركت المرحوم الشيخ محمد عبده — رحمه الله — والتقيت بالأديب النابه والمسلم الحق الذى دافع بقلمه عن اعجاز القرآن الدفاع الكريم المجيد وهو المرحوم مصطفى صادق الرافعى — التقيت به على صفحات كتابه « اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » وطوفت معه الى آفاق عليا شدنى اليها بيانه الرائق ، وحديثه الذى يأخذ بمجامع القلوب ، فألفيت فيه نعم المؤلف البارع الذى يزودك بقطرات من شباب قلمه على أن تنهل من ورده الصافى ، ومن منهله العذب ، ولا غرو فهو الذى استولت عليه فكرة الاعجاز الى حد أنه بجوار أفراده لها الكتاب الذى ذكرناه • قد تناولها فى فصل كبير من كتابه القيم (تاريخ آداب العرب) نعود الى ما كنا فيه حين التقينا به فى كتابه المذكور فنجده قد جمع كل المذاهب المختلفة لظاهرة الاعجاز ، ولكنه لم يكن مجرد جامع للآراء بل كان ناقدا فاحصا أكثر من أى شىء آخر ، ولم يقف كتاب عند عرض المذاهب المختلفة فحسب ، بل ذكر كثيرا من المسائل التى تتعلق بالقرآن وعلومه وما اليها ، وكان فى كل ذلك يبدى رأيه على واردة هنا أو شاردة هناك بروح المسلم المتحمس للاسلام الثائر على من يعانده ، ولذلك نجده أحيانا حين يسوق الكلام ارسالا يصم كل من يخالف عقيدة المؤمن الصادق بألفاظ تحط منه ، وهو مع ذلك يناصر الاسلام بعصبية قوية تبعد أحيانا عن الروح العلمية ، ولكنه لا يأبه بذلك بل

يسير وفقا لما عليه قلبه الغيور ، وأخيرا يقدم رأيه الخاص الذى يعتقده ، وبه يدين . نخلص من هذا كله الى ذكر ما يتصل بموضوعنا لدى هذا الرجل وأول ما يطالعنا فى هذا الصدد هو تعريفه للاعجاز[1] . وذلك اذ يقول : « وانما الاعجاز شيئان : ضعف القدرة الانسانية فى محاولة المعجزة ومزاولته على شـدة الانسان واتصال عنـايته ، ثم استمرار هذا الضعف على تراخى الزمن وتقدمه ، فكأن العالم كله فى العجز انسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت فيصير من الأمر المعجز الى ما يشبه فى الرأى مقابلة أطول الناس عمرا بالدهر على مداه كله ، فان العمر دهر صغير » ويدع هذا ، أو يتخلص منه الى بيان الاعجاز بالصرفة حيث يقول عنه[2] : وبه قال أبو اسحاق ابراهيم النظام من المتكلمين ، والشريف المرتضى من الشيعة ، ولكن الأول بالغ فيه حتى عرف به ، كما كان النظام بليغا لسنا مع حسن تصرف ، ولكنه مع هذه الصفات اجتمعت فيه عيوب لم يستطيع البراء منها أو البعد عنها . ثم تكلم عن القول باعجاز القرآن لنظمه الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم فى مقاطعه وفواصله ومطالعه ، ويستطرد الى الاتيان برأى من قال ان اعجازه فى سلامة ألفاظه مما يشينها ، وخلو عباراته من التناقض واشتماله على العبارات الدقيقة ، والقول بأنه فى اجتماع هذه الأمور كلها ، وهو يرفض هذه المذاهب بأسلوب تهكمى ، ويتعرض لرأى عبد القاهر الجرجانى ، ويثبت أنه ليس أولا فيه ولا سابقا اليه ، وانما قد سبقه اليه أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦ هـ : ثم على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة٣٨٣ هـ . ثم يذكر رأى القائلين بأن القرآن معجز لمزاياه الظاهرة ، وبدائعه الرائعة فى فواصـله وفواتحه وخواتمه ، وأقاموا على ذلك ثلاث خواص :

---

(١) اعجاز القرآن : ١٥٦ .
(٢) نفس المصدر : ١٦٢ .

١ ــ الفصاحة فى الألفاظ كأنها السلسال • ٢ ــ البــلاغة فى المعانى بالاضافة الى مضرب كل مثل ومساق كل قصة ، وخبر فى الأوامر والنواهى ، وأنواع الوعيد ، ومحاسن المواعظ والأمثال • ٣ ــ صورة النظم فان كل ما ذكره من هذه العلوم مسوق على أتم نظام ، وأحسنه وأكمله •

هذا وقد نسب الرافعى هذا الرأى لطائفة من المتأخرين ، وهو فى الحقيقة مذهب يحيى بن حمزة اليمنى فى كتابه الطراز ، وقد سبقت الاشارة اليه فى حينه ، اذ هو القائل بأن الاعجاز فى فصاحة الألفاظ وبلاغة المعانى ، وحسن النظم ، والرافعى يتعــرض لذكر طائفة من المتكلمين ، وأهل التقسيمات المنطقية على اختلاف بينهم ، ويرى أن ما ذكروه لا يعدو فى جملته عن أن يكون ســفاسف سخيفة ، وآراء واهية مضطربة حيث ذهبوا الى انكار الاعجاز ، وكذا انكار التحدى ووقوعه • ونص على بعض العلماء الذين تعرضوا لهذه الطائفة ورد عليها اذ رأى أن ما ذكروه سخف بالغ لا يرد عليه •

وينتقل الرافعى بعد هذا كله الى ذكر مؤلفــات العلماء قبله فى اعجاز القرآن ، فيذكر كتاب « نظم القرآن » للجاحظ ، ويورد عليه نقد الباقلانى ، كما يذكر كتابى : الواسطى والرمانى ، وكتاب اعجاز القرآن للباقلانى ولكنه لم يشأ ترك هذا الأخير دون أن ينقد كتابه ، ويسلط عليه عدســاته [1] فاســتمع اليه وهو يقول : « على أن كتاب الباقلانى ، وان كان فيه الجيد الكثير ، وكان الرجل قد هذبه وصفاه وتصنع له ، الا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ، ولم يتحاش وجها من التأليف لم يرضه من سواه ، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ : لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى •• وقد حشر اليه

(١) اعجاز القرآن : ١٧١ .

أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر ذهب بأكثره وغمرت جملته وعدها من محاسنه وهى من عيوبه » .

ولكن الرافعى رغم هذا كله لم يستطع انكار فضل كتاب الباقلانى وقيمته من حيث وفائه بكثير مما قصد اليه من أمهات المسائل ، ويقول [1] :
« وما زاد الباقلانى — رحمه الله — على أن ضمن كتابه روح عصره ، وعلى أن جعله فى هذا الباب كالمستحث للخواطر الدانية والهمم المتثاقلة فى أهل التحصيل والاستيعاب الذين لم يذهبوا عن معرفة الأدب ، ولم يغفلوا عن وجه اللسان ، ولم ينقطعوا دون محاسن الكلام وعيوبه ، ولم يضلوا فى مذاهبه وفنونه .. ان الناقض فى هذه الصنعة كالخارج عنها ، والشادى فيها كالبائن منها ، وقد كانت علوم البلاغة لم تهذب لعهده ، ولم يبلغ عنها الاستنباط العلمى ، ولم تجر منها الأمهات والأصول ككتب عبد القاهر الجرجانى ومن جاء بعده ، فبسط الرجل من ذلك شيئا وهذب شيئا ، ونحا فى الانتقاد منحى الذين سبقوه من العلماء بالشعر ، وأهل الموازنة بين الشعراء ، وكانت تلك العصور بهم حفيلة . وبالجملة فقد وضع ما لم يكن يمكن أن يوضع أوفى منه فى عصره بيد أن القرآن كتابكل عصر ، وله فى كل دهر دليل من الدهر على الاعجاز ».
ثم يذكر مؤلفات العلماء الذين تكلموا عن الاعجاز بعد ذلك كالخطابى والرازى وابن أبى الاصبع والزملكانى ويقول عن تلك المؤلفات : انها كتب أخذ بعضها من بعض .

ويتعرض بعد ذلك لآيات التحدى ، ويرى أنها كانت تتدرج من الأكثر الى الأقل ، ويتكلم عن المتنبئين والمخالفين الذين عارضوا القرآن ، ويذكر بعضا من أخبارهم وأقوالهم وهم :

---

(١) اعجاز القرآن : ١٧٣ .

مسيلمة والأسود والعنسى ، وطليحة بن خويلد ، وسجاح بنت الحارث ، والنضر بن الحارث ويذكر ممن اتهموا بالمعارضة ابن المقفع وابن سينا وقابوس وابن الراوندى والمتنبى والمعرى ويدافع عن بعض هؤلاء المتهمين ويحمل على ابن الراوندى ويقف موقفا حياديا من آخرين ، كما تعرض لعجز العرب عن مجاراة القرآن لادراكهم علو كعب القرآن عن متناولهم وذلك بقوة طبعهم وذوقهم الفنى •

وبعد ذلك العرض المركز لمؤلفات هؤلاء جميعا يخلص الرافعى الى ذكر رأيه هو فى اعجاز القرآن الكريم ، وأنصت اليه اذ يقول [١] : « أما الذى عندنا فى وجه اعجاز القرآن ، وما حققناه بعد البحث ، وانتهينا اليه بالتأمل وتصفح الآراء ، واطالة الفكر واتضاح الرؤية ، وما استخرجناه من القرآن نفسه فى نظمه ووجه تركيبه واطراد أسلوبه ، ثم ما تعاطينا من التنظير والمقابلة واكتناه الروح التاريخية فى أوضاع الانسان وآثاره •• وفى رد وجوه البلاغة الى أسرار الوضع اللغوى التى مرجعها الى الابانة عن حياة المعنى بتركيب حى من الألفاظ يطابق سنن الحياة المعنى بتركيب حى فى دقة التأليف واحكام الوضع ، وجمال التصوير وشدة الملاءمة •• نقول ان الذى ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا أن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الاعجاز على اطلاقه حين ينفى الامكان بالعجز عن غير الممكن ، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الانسانية مبلغا وليس الى ذلك مأتى ، ولا جهة ، وانما هو أثر كغيره من الآثار الالهية يشاركها فى اعجاز الصفة وهيئة الوضع ، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة افراغا من ذوب تلك المواد كلها ، وما نظنه الا الصورة الروحية للعالم كله • فالقرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز فى أثره الانسانى ، ومعجز

---

(١) اعجاز القرآن : ١٧٥ .

كذلك فى حقائقه » هذا هو نص ما قاله هذا العلامة الأديب ملخصا رأيه فى اعجاز القرآن ، والرافعى اذ يعرض لنا رأيه فى الاعجاز لا يفوته أن يعرج على سبب الاعجاز البيانىعموما ، فهو يرى أن أسلوب الأديب نتيجة لمزاجه الخاص ، وأن اعجاز القرآن فى أسلوبه راجع الى أنه ليس من مزاج البشر ، ولولا ذلك لأشبه أسلوبا من أساليب العرب ، أو من جاء بعدهم الى هذا العهد ، ولهذا خلا من التناقض **« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »**[1] . ونلاحظ هنا على الرافعى أنه قد جعل السبب مسببا والعلة معلولا فبدلا من أن يسعى لاثبات أن القرآن من عند الله باثبات أنه معجز نراه يفعل العكس فيثبت بأنه معجز لأنه من عند الله ، ولذا فقد علل ذلك بأنه انفرد عن أساليب العرب بأسلوبه الخاص اذ ليس وضعا انسانيا على جهة العموم . .ولو أنه أثبت قبل ذلك أن أسلوب القرآن فوق طاقة البشر لكانت طريقته فى البرهنة صحيحة لاغبار عليها . ويرى الرافعى أن اعجاز القرآن كامن فى موسيقاه اللغوية التى نتجت عن انسجامه واطراد نسقه ، واتزانه على أجزاء النفس مقطعا مقطعا ، ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعا ولا تتلوه تلاوة ، ويستدل لذلك بما حدث لعمر بن الخطاب حين سمع آيات الله تتلى فأعلن اسلامه[2] وأيضا بما فعله القرآن فى نفوس بعض المشركين الذين كانوا يذهبون ليلا فى سرية تامة ليتسمعوا نغمه العذب وجرسه الرنان فى القلوب ، وليس الاعجاز فى نظر الرافعى وقفا على الموسيقى اللغوية فحسب بل ان الاعجاز متحقق بنظمه أيضا .. هذا النظم الذى يقتضى كل ما فيه اقتضاء طبيعيا وضع كل شىء فى موضعه . « فليست فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ، ولا شىء من مثل هذا يصح فى الجواز ، وفيما يسعه الا مكان أن يصلح غيره

---

(١) اعجاز القرآن : ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٤١ .

فى موضعه اذ تبدلته منه ، فضلا عن أن يفى به ، وفضلا عن أن يربى عليه ، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع . فكأن البلاغة فيه انما هى وجه من نظم حروفه ، وأنواع البلاغة انما هى من وجوه التأليف بين معانى الكلمات . فالحرف الواحد من القرآن معجز فى موضعه لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ، وهذا هو السر فى اعجازه اعجازا أبديا ، فهو أمر فوق الطبيعة الانسانية ، وفوق ما ينسب اليه الانسان اذ هو يشبه الخلق الحى تمام المشابهة ، وما أنزله الا الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، فأنت الآن تعلم أن سر الاعجاز ، هو النظم ، وأن لهذا النظم ما بعده من تآلف وعدم تنافر وهو ثالث الأركان التى يقوم عليها الاعجاز فى نظر الرافعى ونلخصها مجتمعة فيما يلى :

١ ــ الموسيقى التى تشتمل عليها حروفه وكلماته .

٢ ــ الروح المستشفة من نظم القرآن ، والتى تخاطب الروح ، وهى ليست ألفاظ ذات معنى فقط بل حياة تضطرم وهى خلق روحى فيه صوت النفس الطبيعى فى تركيب اللغة العــربية ، وصوت الفكر أو العقل وقد توفرا للعرب ، ويمتاز القرآن بصوت ثالث هو صــوت الحس فى الألفاظ والمعانى الممثلة .

٣ ــ خلو القرآن من الألفــاظ التى تكون كمتكأ وهذا المتــكأ يشاهد فى كلام البلغــاء وهو يرى أن كلمات القرآن كلها ضرورية فى تأدية المعنى الذى يريد . وبرغم الاحاطة بهذا كله لم ينس الرافعى القول باشتمال القرآن على مبادىء العلوم وعلى كثير من المخترعات والنظرات العلمية الحديثة[1] . ولعل ظهور النزعة العلمية هى التى أرشدته الى ارتياد هذا الطريق . كذلك لم يفته أن يذكر كلام ابن رشد

---

(١) اعجاز القرآن ١٢٦ .

فى احتواء القرآن على طرق التعليم . هذا كله جميل من الرافعى فهو جهد حميد وان كنا نأخذ عليه جعله القرآن موسوعة دينية ودنيوية لعلوم الأرض بمعنى أنه يصح أن أحيل عليه طالب الطبيعة والكيمياء وعلم الجيولوجيا وعلم طبقات الأرض يستوضحه فى تجاربه ومسائله الرياضية . وهنا نتساءل : هل هذا يمكن أن يكون ؟ أقول : لا .. اذ القرآن يحوى رءوس المسائل العلمية ليس غير ، أما تفصيلاتها فمجالها العقل البشرى . ولا يصح ربط اعجاز القرآن بالعلوم لأن العلم يتجدد ويتغير أما القرآن فثابت لا يتغير ، وكل ما فى الامر أنه كلما تقدم العلم كلما أكد اعجاز القرآن [1] .

— ٣٦ —

انتقلنا الى الأستاذ المرحوم العقاد فألفيناه لا يترك الأستاذ المرحوم الرافعى فى رأيه الذى ارتضاه فى اعجاز القرآن البيانى ، والذى يقصره العقاد على « نبرات الحروف ، ونغماتها الموسيقية ، وموقع كل حرف بجانب ما تقدمه ، وما يليه » ويرد على الرافعى بقوله : « انه قد علق بلاغه القرآن على شىء هيهات أن يكون مقصودا ، أو ساريا فى كل آية عى النحو الذى يحكيه .. وضرب له مثلا على عدم تحقق رأيه فى مثل **الآية التالية من سورة هود : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .**

ويعلق على ذلك بقوله : « فان كانت بلاغة الكتاب الكريم مرتهنة بذلك النسق الذى تصوره الأديب — الرافعى — فهل يناقض البلاغة فى

---

(١) انظر ما قلناه فى مقدمة كتاب الخواطر السرانح فى أسرار الفواتح.

رأيه توالى الميمات الكثيرة ، والنون والتنوين فى هذه الكلمات المتعاقبة أو يظن الرافعى هذه الآية بدعا بين آيات الكتاب[1] ؟!

ويرى أن المعجزة النبوية يجب أن يثبت لها أمران : أنها معجزة من حسن ورجحان ، وأنها معجزة من قدرة الله وحده لا من قدرة أحد سواه ، وعلى الذين يتكلمون فى اعجاز القرآ أن يبسطوا القول فى هذا ، وأن يقصروا الحجة عليه لأن كل حجة غيرها تحتاج الى تتمة تبلغ بها الى هذه النهاية •

ومما سبق نستطيع أن نقول ان الأستاذ العقاد لم يؤلف كتابا خاصا فى اعجاز القرآن وان ما فعله هو كتابة مقال رد فيه على المرحوم الرافعى ، كما لا نستطيع أن نتبين رأى المرحوم العقاد الخاص باعجاز القرآن ، فلا هو يشعرنا بأن الاعجاز نابع من أسلوب القرآن نفسه ، ولا هو راجع الى المضمون ، ولا هو مصرح بأنه يميل الى رأى من ارتأى أن الصرفة هى أس الاعجاز كبعض علماء الاعتزال •

ويبدو أن الأستاذ العقاد سيطر عليه فى أثناء كتابته ذلك المقال روح الصراع التى كانت دائرة الرحى بينه وبين الرافعى ، ومن يطلع على ما كتبه الرافعى فى اعجاز القرآن لا يجده يقصر الاعجاز على نبرات الحروف ، ونغماتها الموسيقية ، وانما هو يضم الى ذلك شتى أوجه الاعجاز البيانى من نظم الى أسلوب الى معنى الى تصوير •• الى غير ذلك مما هو واضح فى كتابه •

---

(١) ساعات بين الكتب ط ثالثة ١٩٥٠ ص ١١ •

— ٢٧ —

ننتقل الى الأستاذ عبد الكريم الخطيب فنلتقى به فى كتابه « اعجاز القرآن » فنجده استعرض ما كتبه السابقون فى اعجاز القرآن قبله ، ويتساءل بعد عرض مسهب : « فهل قلنا شيئا جديدا فى الاعجاز القرآنى ؟ وهل كشفنا وجها آخر من وجوهه التى لا تنتهى حصرا أو عدا ؟

والحق أننا لم نأت بجد ، ولم نقل جديدا .. فالصدق المطلق الذى نزل به القرآن ، وعلو الجهة التى جاء منها ، وحسن الأداء وجمال العرض الذى جلى هذا الصدق ، وطلع به على الناس ، والروحانية التى تشف عنها كلمات القرآن وآياته كل هذا الذى قلناه فى اعجاز القرآن قد سبقنا الى القول به كثير من علماء القرآن ، صرح به بعضهم ، ولمح به آخرون .

ولكن ان يكن لنا جديد فى هذا الذى قلناه عن اعجاز القرآن فعرض ما قيل من قبل بصوت جديد ونغم جديد .. من شأنه أن يجدد لسالك هذا الطريق نشاطا ، وأن يفتح له مسلكا جديدا الى كتاب الله ، وفهما مجددا لآياته واعجابه[1] .

ومن هذا يتبين لنا أن الأستاذ عبد الكريم لم يعثر على جديد فى الاعجاز ، ويكفيه ما قاله أنه عرض الفكرة عرضا علميا موضحا ما غمض منها ، وميسرا للقارىء والدارس ما يريدانه .

— ٢٨ —

ننتقل الى كتاب « القرآن » — محاولة لفهم عصرى للقرآن — للأستاذ الدكتور مصطفى محمود لنقف على رأيه فى اعجاز القرآن

---

(١) اعجاز القرآن ٢ : ٢٤٢ — ٢٤٣ .

البيانى فنجده يقول[1] : « القرآن معمار فريد •• نسيج وحده •• فى الطريقة التى تصف فيها الألفاظ فى رصف خاص يفجر ما بداخلها من نغم ، وهو نغم لا ينبع من حواشى الكلمات وأوزانها وقوافيها ، وانما من باطنها بطريقة محيرة مجهولة تماما ، وبطريقة تؤدى الى خشوع المستمع ، وادراكه الغامض الذى جاءت منه » ثم يقول فى مكان آخر[2] : « ولكنى أرى أن اعجاز القرآن هو بالدرجة الأولى ما يستثيره فى القلب من احساس غامض •• لمجرد أن تصطف الحروف فى السمع بهذا النمط الفريد •• ذلك العزف بلا آلات ، وبلا قواف ، وبلا بحور ، وبلا أوزان ••• كل ذلك يتم فى يسر شديد لا يبدو فيه أثر افتعال واعتساف •• وانما تسيل الكلمات فى بساطة شديدة لتدخل القلب ، فتغير ذلك الاحساس الغامض بالخشوع من قبل أن يستيقظ العقل فيحلل ويفكر ويتأمل •• فمجرد وقوع الكلمة للأذن ، وملامستها للقلب تثير ذلك الشىء الذى لا أجد له تفسيرا[3] !!

ومما مضى نتبين أن ما قاله الدكتور مصطفى محمود عن جوانب اعجاز القرآن من حيث الأسلوب والتأثير النفسى انما هو عود على بدء ، فقد سبق اليه من ابن قتيبة والخطابى وعبد القاهر الجرجانى[4] •• وليس هذا نقصا فى الباحث المعاصر ، وانما هى السمة البارزة فيمن يبحث فى القرآن الكريم ، فالكل يدور فى محور واحد لا يكاد يخرج عنه •

وبعد : فالى هذا الحد انتهينا من آراء فى اعجاز القرآن عرضناها عرضا أمينا مع ابداء كل ما جادت به القريحة ، وكما قلنا آنفا : ان هذا العمل كله ما هو الا لبنات توضع بعضها فوق بعض لتشكل

(١) القرآن : ٢١ •
(٢) المصدر نفسه ٢٠٣ •
(٣) القرآن : ٣٠٦ •
(٤) أنظر ما قلناه عنهم فى هذا الكتاب •

البنيان الاصيل الذى لا ينبغى من ورائه سوى تجسيم فكرة الاعجاز البيانى لأهم كتاب مقدس عرفته البشرية مقوما لها وهاديا الى سواء السبيل • والى هنا نتوقف •

ويتلخص مما مضى بعد هذا التطوف الطويل الذى استمر ثلاثة عشر قرنا أن القرآن معجز ببيانه وهذا أمر يؤمن به من يستعرض رأى الدارسين لهذه الفترة وبقى بعد ذلك أسرار الاعجاز التى تتلخص فى ألفاظه وانتقائها وموسيقاها وائتلافها مع بعضها ، ومعانيه وايمائها ، وصياغته وسبكه وأساليبه وحسن تصويره وقصصه ، بكل هذا الذى سيطالعنا فى الدراسة التطبيقية ان شاء الله •

المبحث الثاني

الدراسة التطبيقية

لإعجاز القرآن البياني

يلاحظ أن المبحث الثـــانى سلكته فى فصول بينما سلكت المبحث الأول فى تراجم وشخصيات ، اكتفيت بوضع رقم مسلسل لها .

الفصل الأول

ألفاظ القرآن

اختيارها وإيحاؤها وائتلافها

انتهيت بالدراسة النظرية لفكرة اعجاز القرآن الى الدكتور مصطفى محمود فى كتابه « القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن » أى تنقلت عبر الأزمنة التى بلغت حوالى ثلاثة عشر قرنا من الزمن ، التقيت فيها بعدد كبير من العلماء الذين درسوا القرآن واعجازه ، ولم أكن معتمدا على النقل بل كنت مناقشا لهم ، وناقدا لرأيهم ان كان هناك نقد حتى وصلت الى أن اعجاز القرآن البيانى لا يكون الا بالأسرار التى منها :

ألفاظه المفـــردة وجزالتها وســـلامة بنيتها وفخامتها بحيث تكون مختـــارة الحروف غير متنافرة ، مســـتقرة فى مكانها بحيث لا يصلح فى موضعها غيرها ، ولا يؤدى معناها واضحا كاملا الا بها ، مؤتلفة بعضها مع بعض ، موسيقية فى أدائها موحية فى معناها وائتلاف الألفاظ بعضها مع بعض بمعنى أن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار ، والمناسبة كقوله تعالى : ((**تا الله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا**)) فلما أتى سبحانه بأغرب ألفاظ القسم وهى التاء لأنها أقل أدوات القسم استعمالا ، وأبعدها عن افهام العامة بالنسبة الى الباء والواو أتى بأغرب صيغ الأفعال التى ترفع الاســـماء وتنصب

الأخبار وهى تفتأ فان الفعل « تزال » أقرب الى الافهام وأكثر استعمالا من تفتأ ، ثم أتى بأغرب ألفاظ الهلاك وهى من جنسها فى الغرابة توخيا لحسن الجوار ورغبة فى ائتلاف الألفاظ « حرضا » فاقتضى حسن الوضع أن تجاور كل لفظة من الألفاظ لتتعامل فى الوضع وتتناسب فى النظم [1] .

ومثله قوله تعالى : فى تخير اللفظة لتكون فاصلة دون غيرها لأنها مؤتلفة مع ما قبلها من الألفاظ **« ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون »** [2] .

عمود البلاغة القرآنية ، وائتلاف الألفاظ مع بعضها يقتضى أن تكون فاصلة الآية الأولى « للمؤمنين » دون غيرها لأنه سبحانه ذكر العالم بجملته حيث قال : السموات والأرض ومعرفة ما فى العالم من الآيات الدالة على أن مخترعه قادر عالم حكيم مختار فرع عن التصديق بوجود صانع على هذه الصفات ، اذ لابد من اعتقاد وجود ذات أولا موصوفة بهذه الصفات ، واذا اقتضت البلاغة تقديم التصديق بالذات حتى يترتب عليها الصفات ترجح أن تكون الفاصلة المؤمنين دون غيرها ، ولا سيما والعلم بذلك والايمان به متلقى من الشرع ، فهو موقوف على التصديق بالرسول الذى تلقينا منه ذلك فلا تكون الفاصلة الا كما جاءت.

وكذلك قوله تعالى فى الآية الثانية **« لقوم يوقنون »** فان نفس الانسان ، وتدبير خلق الحيوان أقرب الى فهمه من الاول وتفكره فى ذلك مما يزيده يقينا فى معتقده الأول ، وكذلك معرفة جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بسبب ظهور الشمس للحس من وراء مخروط ظل الأرض واستتارها عن الحس بمخروط ظل الأرض فان

---

(١) أنظر بديع القرآن : ٧٧ .
(٢) المصدر نفسه : ٢٣٤ .

الأول عبارة عن النهار • والثانى عابرة عن الليل • وانزال الرزق من السماء واحياء الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح التى تلقح السحاب فتمطر المـــاء فينبت به النبات ، وتعيش الحيوانات يقتضى رجاحة العقل ورصانته ليعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذى صنع الكليات التى هى كرة الأفلاك • وما اشتملت عليه • لأن هذه الجزئيات من عوارض تلك الكليات ، ولا يجوز أن يكون بعضها صنع بعضا بعد قيام البرهان على أن للعالم الكلى صانع مختار ، واذا كان الكلى مركبا من أجزاء فالأحكام الجارية عليه من حيث هو كلى جارية على الأجزاء التى هى مركب منها •

فلذلك اقتضى ائتلاف الألفاظ مع بعضـــها أن تكون فاصلة الآية الثالثة يعقلون • وان احتيج الى العقل فى الجميع الا أن ذكره هاهنـــا بالمعنى من الاول • اذ بعض الناس مع كونه يعتقد أن للعالم صانعا أو يرى أن العالم يصنع بعضه بعضا •كما يزعم الطبيعيون أو الدهريون، أن الواحد لا يصدر عنه الا واحد ، فلا بد من التدبر بتدقيق الفكر • وراجح العقل فى هذه الأمور ليعلم أن من قدر على اختراع خلق الفلك التاسع أو العاشر على ما يرى بعضهم لا يعزب عن قدرته خلق الفلك الثامن ، وهكذا الى أن يســـتغرق جميع العــــالم اتضح بعد التعليق على هذه الآية فى اعجاز الألفاظ القرآنية اختيارها ووضعها فى الأماكن اللائقة بها ، بحيث تكون مستقرة فى مكانها مطمئنة فى قرارها ، لأن أسلوب القرآن يتألق فى اختيار ألفاظه ، ولمـــا بين الألفاظ من فروق دقيقة فى دلالتها يستخدم كل حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة ، فكأنها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفيق المعنى الذى وقف به اختها ، فكل لفظة من ألفاظ القرآن وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء • ولذلك لا نجد فيه ترادفا • بل فيه كل كلمة تحمل اليك معنى جديدا ، ولها فى النفس ايحاءات خاصة ، ولذا دعا القرآن الى عدم استخدام لفظ مكان آخر « **قالت الأعراب**

آمنا • قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » فهو سبحانه لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا غوية ، ولذا نهى أيضا عن كلمة **« راعنا »** لما لها فى العبرية من معنى مذموم فقال : **« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا »** •

فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدى به المعنى ليصور به ما حدث أو سيحدث أحسن تصوير وأبلغه فانظر الى قوله تعالى : **« واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »** • فاختياره سبحانه الفعل « ذبح » ليصور ما حدث وضعف عينه للدلالة على كثرة القتلى من أبناء اسرائيل يؤمئذ ولا نحس بهذا المعنى اذا وضعنا مكانه كلمة يقتلون •

واستمع الى قوله تعالى : **« انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا »** تجد أنه استعمل كلمة العبوس أدق استعمال ليكشف عن نظرة الكافرين الى ذلك اليوم ، فانهم يجدونه عابسا مكفهرا ، وما أشد سوداء اليوم الذى يفقد فيه المرء الأمل والرجاء • كما أن كلمة قمطريرا بجوارها وثقل طائها تشعر بثقل هذا اليوم •

وفى كلمة النضرة والسرور تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين ، وما يبدوا على وجوههم من الاشراق ، وعما يملأ قلوبهم من البهجة •

ومن دقة اختيار ألفاظ القرآن والتمييز بين معانيها ما نجده فى التفرقة فى الاستعمال بين لفظ « يعلمون » ولفظ « يشعرون » ، وقد كثر دورانهما فى القرآن فنجد أنه فى الأمور التى يرجع الى العقل وحده

فى الفصل فيها يستعمل كلمة « يعلمون » لأنها صاحبة الحق فى التعبير عنها • وأما الأمور التى يكون للحواس مدخل فى شأنها يستعمل كلمة يشعرون كقوله تعالى : **« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون »** فالأحياء ممن يحس بهم ، وكقوله تعالى : **« واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون • ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »** ، والافساد فى الأرض بالغى والطغيان واستغلال الانسان للانسان ، وعدم توفر العدالة الاجتماعية أمور يشعر بها ويحسها الانسان اذ يرى بعينه فساد غيره ، ويسمع بأذنيه شتائم الناس للناس وغيبتهم لهم ، وكقوله تعالى :**« قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون »** وقوله : **« وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون »** المتأمل فى هذه الآيات وغيرها مما استعمل فيها « يشعرون » نجد أن الألفاظ مستعملة فى موضعها التى خلقت له ، والتى معها يكون المعنى أوضح مما لو استعمل غيرها مما يؤدى معناها كانها •

وكذلك نجد القرآن استعمل ألفاظ « الفؤاد » و « اللب » و « القلب » ولكن المتأمل يحس ويشعر أن هذه الألفاظ مستعملة فى أماكنها التى لو غيرت فيها لتأثر المعنى بهذا التغيير ، فنجد لفظ الفواد اذا استعمل فى القرآن فلابد وأن يكون مرادا به تلك الآلة التى منحها الله الانسان ليفكر بها ولذا كانت مما سوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة : **« ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »** وقوله : **« ما كذب الفؤاد ما رأى »** وقوله : **« نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة »** •

واللب وجمعه الألباب ، وهو لم يستعمل فى القرآن الا جمعا يراد به التفكير الذى هو من عمل تلك الآلة **« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب »** وقوله : » **وما يذكر الا أولوا الألباب »** •

أما القلب : وهو أكثر هذه الألفاظ دورانا فى القرآن فاذا أطلق فانه يكون المراد به الارادة التى تحكم الفكر انظر قوله تعالى : « **لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها** » وقوله : « **فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » كما أنه أداة الوجدان : يدل على ذلك قوله تعالى : « **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم** » كما أنه أداة الارادة كما يتضح من قوله تعالى : « **ان كادت لتبــدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** » وقوله تعــالى : « **وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** » وقوله : « **وليس عليكم جناح فيمــا أخطأتم به ولكن ما تعمــدت قلوبكم** » فالقرآن يستعمل القلب فيما يطلق عليه اليوم كلمة العقل ، وجعله فى الجوف مرة فى قوله تعاى : « **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** » وفى الصدر حينا كما فى قوله : « **ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ».

والى هذا الاختيار فى ألفاظ القرآن أشار الجاحظ بقوله : « وقد يستخف ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن « الجوع » الا فى موضع العقاب ، أو فى موضع الفقر المــدقع والعجز الظاهر ، والنـــاس لا يذكرون « السغب » ويذكرون « الجوع » فى حالة القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به الا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث » .

وما كان اعجاز القرآن من اختيار الألفـــاظ وائتلافها بعضهـــا ببعض ، الا لايثار الكلمة المعبرة الموحية ، وتفضيل اللفظ المصور للمعنى أكمل تصوير ، ليشعرك به أتم شعور وأقواه ، تأمل لفظ « يسكن » فى قوله تعـــالى : « **ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره** » **وكلمة « تسوروا »** فى قوله تعالى : « **وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب** » وكلمة « **يسفك** » فى قوله تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة**

انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسـد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمـدك ؟ » وكلمة « **مكباً** » فى قـوله تعالى :« **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهـدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟** » وقوله : « **مستسلمون** » فى قوله تعالى :: « **ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون** » تأمل ذلك تجد أن الكلمات وضعت فى موضعها المقسوم لها لتجعل المعنى المعقول مصورا تكاد العين أن تراه ، والأيدى تلمسه •

لعل ما مر من ألفاظ القرآن التىعددنا بعضها تجعلك تحس تصويرها للمعنى من ائتلافها ، وحسن اختيارها ، وايثارها على غيرها ، وايحائها الى المعنى ، وهناك من ألفاظ القرآن ما توحى بحروفها المختارة ، فهذه الظاء والشين فى قوله تعالى : « **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران** » يوحيان بالشـدة والقوة والقهر ، والشين وحدها فى قوله : « **اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور** » والظاء وحدها فى قوله تعالى : « **فأنذرتكم نارا تلظى** » ومثلها الفاء فى قوله تعالى : « **واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** » فهذه حروف تنقل الى السامع صوت النار مغتاظة غاضبة وشديدة • وحرف الصاد فى قوله تعالى : « **انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر** » يحمل صوت الريح العاصفة ، كما تحمل الخاء فى قوله تعالى : « **وترى الفلك فيه مواخر** » صوت الفلك تشق عباب المـاء[1] •

ولقد صدق البـازرى حينما يقول : عن سـهولة ويسر وعذوبة ألفاظ القرآن ووقوعها على السمع فى اتساق وانسجام : « اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك

---

(١) أنظر من بلاغة القرآن ٦٩ .

كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح مما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معانى الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر فى أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل فى علم الله ، كذلك كان القـــرآن أحسن الحديث وأفصحه وان كان مشـــتملا على الفصيح والأفصح ، والمليح والأملح ، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى : « **وجنى الجنتين دان** » فلو قال : وثمر الجنتين قريب لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصير الى حال يجنى فيها ، وقوله تعالى : « **وما كنت تتلوا من قبله من كتاب** » أحسن من قوله : تقرأ ، وقوله : لا ريب فيه ، أحسن من قولك لا شك فيه لثقل الادغام ، ولهذا كثر ذكر الريب ، وقوله : « **ولا تهنوا** » أحسن من ولا تضعوا ، لخفة تعبير القرآن ولفظه ، ومثله « **وهن العظم منى** » وآمن أخف من صدق ، ولذا كان ذكره أكثر من التصديق و « آتى » أخف من أعطى ، و « أنذر » أخف من خوف لسهولة ألفاظ القرآن فى تركيبها وتناسقها وائتلافها ، ووازن ابن الأثير ضياء الدين بين كلمات استخدمها القرآن جزلة متينة الوصف ، وفى الشعر ركيكة ضعيفة ككلمة « **يؤذى** » التى جاءت فى قوله تعـــالى : « **فاذا طعمتـــم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق** » .

وجاءت فى قول المتنبى :

تلذ له المـــرءوة وهى تـــؤذى ومن يعشـــق يلذ له الغـــرام

وان كان البيت من أبيات المعانى الشريفة الا أن لفظة « تؤذى » قد جاءت فيه ، وجاءت فى آية من القرآن ، فحطت من قـــدر البيت لضعف تركيبها ، وعدم ائتلافها مع أخواتها ، وحسن موقعها وائتلافها

فى تركيب الآية لأنهـــا فى الآية مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به ، وفى قول المتنبى منقطعة ، وركاكتها آتية من عـــدم ائتلافها واسنادها للمروءة والمروءة لا تؤذى ، وان كان فيها ما يزيد على الطاقة الا أنها لا تصل الى الايذاء •

ومثله لفظة « **القمل** » فى قوله تعالى : « **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم** » تقدمت منهـــا لفظتان هما أخفها وأحسنها ، وأخرت لفظة الدم ، وجعلت لفظة القمل والضفادع فى الوسط ، ليكون أول ما يطرق السمع اللفظ الحسن ، ولمـــا كانت لفظة الـــدم أحسن وأخف من لفظتى الطوفان والجراد جىء بها آخرا ، ومراعاة هذه الأسرار والدقائق فى استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية ولهذا جاءت هذه اللفظة نابية قلقة فى قول الفرزدق :

من عزه احتجزت كليب عنـــده زربا كأنهـــم لديه القمـــل

لأنها غير مندرجة وانقطع الكلام عندها[1] •

وغير هذا كثير من الألفاظ التى حسنت فى القرآن لحسن اختيارها وساءت فى غيره لسوء اختيارها ، ولعل ما ذكرته من الأمثلة يكفى بعض الشىء للدلالة على فصاحة ألفاظ القرآن وائتلافها حتى تكون دليلا على اعجاز القرآن الكريم من جهة ألفـــاظه التى لا نقف بهـــا عند حسن الاختيار ، وانما سنتكلم فيما يستعمل من غريب الألفاظ ، وما فيه من المعـــرب •

وأخيرا أقول ان ألفاظ القرآن مختارة منتقاة ، حتى أصبحت كل لفظة من ألفاظه تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد وهى الجوهرة التى لا نظير لها تدل على عظم فصاحة وقوة عارضة ، وجزالة منقطعة وأصالة عربية بحيث تكون هـــذه اللفظة اذا ســـقطت من الكلام عزت على

---

(١) المثل السائر ١ : ٧٥ .

الفصحاء غرابتها ، وقد جاء فى القرآن ــ غير ما ذكرت ــ غرائب وفرائد لا يقع مثلها لمخلوق ، وهى من الكثرة بحيث يعسر حصرها •

ومنها قوله : « **حتى اذا فزع عن قلوبهم** » **فانظر لفظة** « **فزع** » تجد أنها غريبة فريدة الفصاحة ، لا يكاد الغير يقع عليها ويضعها هذا الموضع بحيث تكون مؤتلفة مع ما قبلها ومع ما بعدها هذا الائتلاف كما أن الناظر فى ألفاظه يجدها فى الطبقة العليا من الفصاحة •

ومن ألفاظه الفريدة قوله تعالى : « **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** » ففى الآية فريدة سهلة اذا أفردت يستعملها الناس ، ولكن فى تركيبها القرآنى وبعد اضافتها الى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها فى النفوس هذا الوقع بحيث لا يستطاع الاتيان بمثلها ، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها •

ومن شواهده أيضا قوله تعالى : « **ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم** » فان قوله سبحانه « **وأن تغفر** » يوهم أن الفاصلة تكون الغفور الرحيم لمناسبة ما بين الغفران والغفور ويذهل هذا التوهم عن كونهم مستحقين العذاب دون الغفران فيجب أن يكون العزيز الحكيم ، اذ لو جاءت الغفور الرحيم بعد ذكر الغفران لكان فى ذلك تسجيل بالغفران • وهم لا يغفر لهم ، فوجب أن تكون الفاصلة العزيز الحكيم لأنه لما جاء فى تقسيم الشرط الذى جاء توطئة « وان تغفر لهم » وجب أن يقول : العزيز لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب الا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، ولا يعارضه فيه فهو ممتنع من القهر والمعارضة ، والعزيز الممتنع القاهر ، ولا بد أن يوصف بعد وصفه بالعزة بالحكمة لأنه الحكيم الذى يضع كل شىء فى موضعه ، وربما ظهر من فعله ما يتوهم الضعفاء أنه جار على غير الحكمة لخفاء وجوه الحكمة ، وامتناع علم الغيب على المخلوق القاصر عن ادراك أسرار الربوبية •

فواتح السـور :

يلزمنا بعد أن بينا شيئا من ألفاظ القرآن واختيارها ، وفواصله وائتلافها مع ما قبلها أن نبين شيئا يتعلق بذلك ــ ألفاظ القــرآن ــ ويحتاج الى شىء أوسع من الحديث ألا وهو فواتح السـور المعربة والمعجمة لكثرة ما دار حول هذه الفواتح قديما وحديثا من نقــاش يحتاج الى توضيح ووضع النقط فوق الحروف فيه ، وأكون قد وضعت لبنة متينة فى صرح بناء وبيان الاعجاز البيانى للقرآن •

فقد جمع الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى كتابه العزيز مائة وأربع عشرة سورة ، أفتتح بعضها بما يفيد تحميده وتنزيهه وتسبيحه والثناء عليه ، والبعض الآخر افتتح بحروف التهجى ، والنوع الأخير فى تسع وعشرين سـورة وهى : ألم ، المص ، ألمر ، كهيعص ، طـه ، طس ، الحواميم كلها ، حم عسق ، ق ، ن ، ص •

وقد جمعت هذه السور من حروف التهجى ، أربعة عشر حرفا من ثمانية وعشرين ، ومن هذه الفواتح ما ابتدىء بحرف ، ومنها ما ابتدىء بحرفين ، أو بثلاثة أو بأربعة ، أو بخمسة •

وسوف أتكلم عن الفواتح كلها مبتـدءا بالمعربة ــ أى المبتدئة بكلمات ــ ثم أعقبها بالكلام عن المعجمة ــ وهى المبتدئة بالحروف ــ •

الفواتح المعـربة :

الفواتح المعربة خمس وثمانون فاتحة ، منقسمة أيضـا خمسة أقسـام :

١ ــ قسم مفتتح بالخبر •
٢ ــ قسم مفتتح بالاستخبار •
٣ ــ قسم مفتتح بالقسم •
٤ ــ قسم مفتتح بالأمر •

٥ ـ قسم مفتتح بالشرط •

فالمفتتح بالخبر خمسون سورة ، منها ما هو مفتتح بالتحميد ، وهو خمس سور : الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر •

ومنها ما هو مفتتح بالتسبيح ، وهو خمس سور أيضا وهى : الحديد ، الحشر ، الصف ، التغابن ، الجمعة •

ومنها ما هو مفتتح بنداء الأمة ، وهو خمس سور هى : النساء المائدة ، الحج ، الحجرات ، الممتحنة •

ومنها ما هو مفتتح بنداء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو خمس سور هى : الأحزاب ، الطلاق ، التحريم ، المزمل ، المدثر •

ومنها ما افتتح بالأسماء مجردة وهو أربع عشرة سورة هى : التوبة ، النور ، الزمر ، محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفتح ، الرحمن ، الحاقة ، نوح ـ عليه السلام ـ المطففين ، القدر ، القارعة ، الهمزة ، الكوثر ، قريش •

ومنها ما افتتح بالفعل ماضيا كان أو مضارعا •

فالمفتتحات بالماضى اثنتا عشرة سورة وهى : المؤمنون ، المجادلة ، النحل ، الاسراء ، الأنبياء ، الفرقان ، القمر ، الملك ، المعارج ، عبس وتولى ، التكاثر ، المسد •

والمفتتحات بالفعل المضارع موجبا أو منفيا أربع سور هى : الأنفال ، القيامة ، المشركين ، البلد •

والمفتتحات بالاستخبار منها ما افتتح بحرف الاستفهام ، وهو خمس سور هى : الانسان ، الغاشية ، الشرح ، الفيل ، الماعون •

ومنها ما افتتح بحرف الجر ، وهو سورة واحدة هى : النبأ •

والمفتتحات بالقسم خمس عشرة سورة وهى على خمسة أقسام :

١ ــ قسم أقسم فيه ــ سبحانه ــ بالملائكة وهو سورة واحدة هى : الصافات •

٢ ــ قسم أقسم فيه بالأفلاك ، وهو سورتان هما : البروج ، الطـــارق •

٣ ــ قسم أقسم فيه بلوازم الأفلاك وهو ست ســـور هى : النجم ، الفجر ، الشمس ، الليل ، الضحى ، العصر •

٤ ــ قسم أقسم فيه بالعناصر وهو قسمان :

(أ) قسم أقسم فيه ــ سبحانه ــ بالهواء وهو سورتان هما : المرسلات والذاريات •

(ب) قسم أقسم فيه بالتربة • وهو سورة واحدة هى : والطور • والحكمة فى ذكر هذين العنصرين أن جميع المولدات ــ أعنى الحيوانات والنبات ، والجمادات ــ لا تخرج عن لطيف وكثيف ، فكثافة الكثيف من التراب ، ولطافة اللطيف من الهواء ، فكان ذكر هذين العنصرين مستلزما ذكر كل لطيف وكثيف •

ولأن طبيعة الهواء حارة رطبة ، وطبيعة التراب باردة يابسة ، والحرارة والرطوبة طبع الحياة ، والبرد واليبس طبيعة الموت ، فكان ذكر هذين العنصرين يتضمن ذكر الحياة والموت اللذين لا يعرى الموجود عن أحدهما •

والمقسم فيه بالمولدات ثلاثة أقسام :

١ ــ قسم أقسم فيه بالنبات وهو سورة واحدة هى : التين •

٢ ــ قسم أقسم فيه ــ سبحانه ــ بالجماد وهو سورة واحدة هى : الطـــور •

٣ ــ قسم أقسم فيه بالحيوان وهو صنفان :

(أ) صنف أقسم الله ــ سبحانه وتعـــالى ــ فيه بالحيـــوان الناطق وهو سورة واحدة هى : النازعات •

(ب) صنف أقسم فيه بالحيوان البهيم وهو سورة واحدة أيضا وهى : العـــاديات .

والمفتتحات بالشرط سبع سور هى : التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ــ وقد ولى الشرط فيها اسم : الواقعة ، المنافقون ، الزلزلة ، النصر ، وقد ولى الشرط فيها فعل .

والمفتتحات بالأمر سبع سور هى : الجن ، الكافرون ، الاخلاص ، الفلق ، الناس .

ــ وقد اشتق الأمر فيها من القول ــ الأعلى ، العلق ، وقد اشتق الأمر فيهما من غير العقول . اذ الاولى مشتقة من التسبيح ، والثانية مشتقة من القراءة .

الفواتح المعجمة :

الفواتح المعجمة فى القرآن تسع وعشرون فاتحة منقسمة خمسة أقسام بحسب وقوعها . فانهـــا جاءت مكونة من حرف ــ على ترتيب العدد الطبيعى ــ الى خمسة أحرف ، فالمفردات منها ثلاث سور . وأعنى بالمفردات كل فاتحة مكونة من حرف واحد وهى : ص ، ق ، ن .

والثنائيات : تسع سور هى : طه ، طس ، يس ، والحواميم .. سوى الشورى .

والثلاثيات : ثلاث عشرة سورة وهى ثلاثة أضرب :

١ ــ ضرب افتتح بـــ ألم ، وهو ست سور : البقرة ، آل عمران العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .

٢ ــ ضرب افتتح بـــ الر ، وهو خمس سور وهى : يونس ، هود ، يوسف ، ابراهيم ، الحجر .

٣ ــ ضرب افتتح بـــ « طسم » وهو سورتان : هما الشعراء ، القصص .

والرباعيات سـورتان وهما : « آلمص » الأعراف • و « المر » الرعـد •

والخماسيات سورتان وهما : كهيعص ، حم عسق •

معنى الفواتح المعجمة :

تكلمت فيما مضى عن عدد السور القرآنية معربة ومعجمة وأقسام كل نوع من هذه الأقسام ، وسأتكلم فيما يأتى عن معانى الفواتح المعجمة قائلا :

اتجه العلمـاء الى تفسير الفواتح المعجمة ، ومعـرفة معناها ، وسلكوا فى تفسيرها طريقين :

الطريق الأول : التزم أصحابه الصمت ، وفوضوا علم معناها الى الله ــ سبحانه وتعالى ــ لأنه مستور استأثر الله به معتمدين فى ذلك على قول أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ « ولله فى كل كتاب سر وسره فى القرآن أوائل السور »[1] •

وقول على كرم الله وجهه : « ان لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى » •

وقول الشعبى عندما سئل عن هذه الفواتح فقال : « هى سر الله فلا تطلبوه » ، وقوله : « انها من المتشابهة نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيهـا الى الله ــ عز وجل ــ » [2] • وبهـذا القول أخـذ أبو بكر الانبارى[3] •

ولكن المتكلمين لم يعجبهم هـذا القول ، وأنكروه على أصحابه وقالوا : لا يجوز أن يرد فى كتاب الله ما لايكون مفهوما للخلق ، وقد قال الله تعالى : **« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »** وقال

---

(١) مفاتيح الغيب ١ : ١٥٤ والجامع لاحكام القرآن ١ : ١٥٤ •

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١ : ١٥٤ •

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ : ١٧٣ •

« **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » وقال : « **لعلمه الذين يستنبطونه منهم** » وقال : « **هدى للناس** » وقال : « **وهدى للمتقين** » وقال : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا** » .

ولا يمكن تدبر القرآن ، ولا الاستنباط منه ، ولا الهداية به ولا التصديق بما جاء فيه ، والسمع والطاعة لأوامره واجتناب نواهيه الا اذا فهم . كما أن من المعقول أن القرآن لو ورد فيه مالا يفهم لكان عبثا ، لأن المقصود من الكلام الافهام . فلو لم يكن مفهوما لكانت المخاطبة به سفها ، وذلك لا يليق بكلام الحكيم ، وأيضا فان القرآن وقع التحدى به للعرب ، والعرب عجزت فعلا عن الاتيان بمثله ، ولا يمكن التحدى بشىء غير مفهوم .

الطريق الثانى : ان لهذه الفواتح معانى ويجب التأويل للوصول اليها ، وأصحاب هذا الطريق اختلفوا اختلافا كبيرا ، ووصلت أقوالهم الى أكثر من عشرين رأيا سنتكلم عن أشهرها :

الرأى الأول : أنها أسماء للسور القرآنية :

والى هذا القول مال أكثر المتكلمين والخليل وسيبويه واستدلوا على ذلك بأن العرب سمت بهذه الحروف . فسموا بـ « ل » والد الحارث بن لام الطائى ، وسموا النقد « عين » وقالوا : جبل قاف ، وسموا الحوت « نونا » ، وبهذا القول أخذ زيد بن أسلم ، وابن قتيبة الذى يقول : فان كانت أسماء للسور فهى أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء ويفرق بينها ، فاذا قال القائل : « قرأت آلمص » أو قرأت « ص » أو قرأت « ن » دل بذلك على ما قال ، كما يقول : لقيت محمدا وكلمت عبد الله ، فهى تدل بالأسمين على العينين ،

وان كان قد يقع بعضها فى وفاق مثل « حم » و « آلم » لعدة سور فان الفصل يقع بأن تقول : « حم » ، السجدة و « آلم » البقرة ، كما يقع الوفاق فى الأسماء فيفرق بينها بالاضافات ، وأسماء الآباء والكنى[1] •

الرأى الثانى : « أنها أسماء أو بعض أسماء أو اشارة الى اسم الله تعالى » : وهنـــاك جماعة أخرى تقول : ان هذه الفواتح أسماء ، أو بعض أسماء أو اشارة الى اسم الله تعالى لأنه قد روى عن على ــ رضى الله عنه ــ أنه كان يقول : يا « كهيعص » ويا « حم عسق » اغفر لى ، وقال سعيد بن جبير قوله تعالى : آلم ، حم ، ان مجموعها يكون اسم الله تعالى[2] • ولكننا على هذا الرأى لا نقدر على كيفية تركيبه فى الباقى •

قال ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ : **الألف** من « آلم » اشـــارة الى أنه تعالى أحد ، أول ، آخر ، أزلى • واللام اشارة الى أنه « لطيف » والميم اشارة الى أنه : ملك ، مجيد ، منان • وقال فى « كهيعص » انه ثناء من الله تعالى على نفسه ، فالكاف تدل على الكمال والهاء تدل على كونه هاديا ، والعين تدل على كونه عالمـــا ، والصاد تدل على كونه صـــادقا •

وان قال غير هؤلاء ان بعضها رمز لأســـماء الله ، أو بعضها رمز لغيره ، فالألف من « ألم » من اسم الله ، واللام من اســـم جبريل ــ عليه السلام ــ والميم من اسم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ــ والمعنى على ذلك يكون :

« أنزل الله الكتاب على لسان جبريل الى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

---

(١) (أنظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ٢٣١ ، والجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٥) .

(٢) (مفاتيح الغيب ١ : ١٥٦) .

الرأى الثـــالث : قال بعض العلماء : ان هــذه الفواتح للدلالة على أن القرآن مؤلف من تلك الحروف ، لأن الرسول لمـــا تحدى العرب — وهم أرباب الفصاحة والبلاغة — أن يأتوا بمثله عجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور ولو مفتريات فعجزوا ، فطلب منهم أخيرا الاتيان بأقصر سورة فعجزوا ، فأنزل الله هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس الا منها ، وأنتم قادرون عليها عارفون بها ، فلم يكون عجزكم ؟ وبهذا الرأى أخذ المبرد وتبعه فيه كثير من الناس[1] • كما أخذ به الفراء أيضا[2] •

الرأى الرابع : يقول : ان هذه الحروف للتنبيه ، واثارة العجب لأن الكفار لمـــا قالوا « **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه** » واتفقوا على ذلك ، وبالغوا فى اتفاقهم ، وتواصوا بالاعراض عنه ، أراد الله — وهو المحب خيرهم وصـــلاح أمرهم — أن يورد على ســـــمعهم مالا يعرفونه ، فيجعلهم ينتبهون ويستيقظون ، فكانوا اذا سمعوا هذه الفواتح قالوا متعجبين اســـمعوا الى كلام محمد فاذا أصغوا هجم القرآن عليهم ، فكان ذلك سببا لاستماعهم ، وطريقا لانتفاعهم ، فكانت هذه الفواتح أشبه بالأجراس أو الأصوات الغريبة التى تقرع أسماعهم فتدعوهم الى الاستماع[3] •

الرأى الخامس : يقول : ان هذه الحروف مدة أقوام ، ومقدار آجالهم ، فقد روى ابن عباس أن أبا ياسر بن أخطب ، وأخاه حييى ، وكعب بن الأشرف مروا على الرسول ، وهو يتلو قول الله تعالى : « **ألم** » البقرة فاستحلفوه ، أحق أنها أتتك من السماء هكذا ؟ فقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — نعم فقال حييى : ان كنت صادقا

---

(١) مفاتيح الغيب ١ : ٥٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٥
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٦ .

فانى لأعلم أجل هذه الأمة من السنين ، فكيف ندخل فى دين رجل دلت الحروف هذه على أن منتهى أجل أمته احدى وسبعون سنة ، فضحك النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال حيبى : فهل غير هذا ؟ فقال النبى «ألمص» فقال حيبى هذه أكثر من الأول ؟ هــذا مائة واحدى وستون سنة فهل غير هذا ؟ فقال النبى « ألر » فقال حيبى هذا أكثر من الأول والثانى ، فنحن نشهد ان كنت صادقا ما ملكت أمتك الا مائتين واحدى وثلاثين ، فهل غير هذا ؟ فقال النبى نعم : « ألمر » فقال حيبى : فنحن لهذا : من الذين يؤمنون ولا ندرى بأى أقوالك نأخذ ؟ فقــال أبو ياسر : أما أنا فأشهد أن أنبياءنا أخبرونا عن ملك هذه الأمة ، ولم يبينوا أنه كم يكون ؟ فان كان محمد صــادقا فيما يقول فانى لأراه يستجمع هذا كله فقال : اليهود اشتبه علينا أمرك كله فلا ندرى أبا لقليل نأخذ أم بالكثير[1] ؟ فذلك قوله تعالى« **هو الذى أنزل عليك الكتاب** » •

الرأى السادس : يقول ان الله سبحانه أودع السورة المفتتحة بفاتحة معجمة من الأحكام والقصص فى حروف فاتحتها ، ولا يعرف ذلك الا النبى أو الولى ، ثم يعــود فيبينه فى السورة ليفقه النــاس جميعــا[2] •

الرأى السابع :يقول : انها قسم ، ويرى ابن قتيبة فى ذلك أن يكون الله أقسم بالحروف المقطعة كلها واقتصر على ذكر جميعها ، وهو يريد جميع الحروف المقطعة كما يقول القائل : تعلمت أ • ب • ت • ث وهو لا يريد تعلم هذه الحروف الأربعة فقط دون غيرها ، وتقول : قرأت الحمد ، وتريد الفاتحة [3] •

الرأى الثامن : يقول : انها حروف ثناء أثنى الله بها على نفسه أو للدلالة على أنه مؤلف قديم ، وابن أبى الأصبع المصرى من بين هؤلاء

---

(١) مفاتيح الغيب ١ : ١٥٠ •
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٦ •
(٣) مشكل القرآن ٢٣١ •

العلماء القدامى ألف كتابا فى هذا الموضوع سماه « الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح » تناول فيه فواتح السور القرآنية المعجمة والمعربة بالتحليل والتفسير ، ولكن تناوله لهذا كان بعقل العالم البلاغى الفلكى الرياضى ، فبين عددها وأقسامها وأصولها من الحروف ، واشتمال المعجمة منها على حروف المعجم فى النطق ، وان كانت تتضمن أربعة عشر حرفا فى الخط ، وبين سبب اقتصار الفواتح المعجمة على تسع وعشرين فاتحة ، رابطا ذلك بمنازل القمر ، ويرى أن المعجمة أصل المعربة ، وأن أولها : « ألم » البقرة ، وأول المعربة « الحمـد » أم الكتاب وكلا السورتين مفتتحة بالألف • والألف شكل بسيط بالنسبة الى سائر الحـروف ، وسائر الحروف مركب بالنسبة اليها ، وقابل الألف من « ألم » و « الحمد » بالواحد من الأعداد على طريق حساب الجمل ـ لأن الواحد أول وآخر ما تبقى منها وهى صـادرة عنه ، ومنتهية اليه ، ولـما كانت الألف تقابل الواحد أشارت الى الصانع بدليل الالتزام ، لأنه تعالى مدبر ، ليست أوليته مسبوقة بشىء ، كما أن أولية الألف ليست مسبوقة بحرف من الحروف والواحد الذى تضمنته ليس مسبوقا بعدد من الأعداد ، وهو سبحانه الباقى بعد كل شىء ، وموجد كل شىء ، ومعدم الأشياء ومفنيها ومميت الخلائق ومحييها •

وزيادة للايضاح أضع بين يدى القارىء جـدول حساب الجمل ليكون على معرفة به وبتقديرات حروفه :

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ج	ط	ى	ك	ل	م	ن	س	ع
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠

ف	ص	ق	ف	ش	ت	ث
٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠

خ	ز	ض	ظ	غ
٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ونستنتج من هـذا أن الألف أشارت الى اسم من أسماء الله تعالى ، واللام والميم اللتان هما بقية « ألم » لهما من العدد سبعون ،

وهى مبسوطة بحسب الأعداد ، ومن هذا العدد نستنبط الاستدلال على المصنوعات اذ هو مشير اليها ، فسبعون : عشر سبعات ، وكل سبعة تشير الى سبعة من العالم الأثيرى والعنصرى والمولد منه ، والظروف الزمانى والمكانى وأبواب النيران ، وأنهار الجنان ، فقد أشار هذا العدد الى كليات الدنيا والآخرة •

وقال أيضا ان الفواتح المفردة أى المكونة من حرف واحد «قسم» ولذلك كان ما بعـدها مجرورا بالقسم ، وهو معطوف عليها ، وحكم المعطوف على شىء فى الاعراب حكم ذلك الشىء فانه قال : **« ق والقرآن المجيد »** وعطف لفظ القرآن مجرورا على لفظة **« ق »** على أن لفظة **« ق »** قسم •

وكذلك « ص » والقرآن ذى الذكر و « ن والقلم » ثم قابلهـا أيضا بأعدادها التى تقابلها ، واستنتج ما تدل عليه القاف من الأعداد ، وما تشير اليه هذه الأسرار من أسماء الله ، فيكون المعنى أن الله تعالى أقسم بأسمائه التى أشار اليها ، وكذلك « ص » ولها من العدد سبعون وهى تدل على أمور العالم ، و « ن » ولها من العدد خمسون وهى تدل على المصنوعات ، وبذلك نكون قد عرفنا ما تدل عليه هـذه الحروف الستة وهى : الألف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والقـاف ، والنون ، فاذا ما ركبنا « المص » عرفنـا ما تدل عليه ، وكذلك نقيس على ذلك الفواتح التى تتركب من هذه الحروف •

وأخيرا أحب أن أقول اننا نسـتطيع أن نسـتنتج أن ابن أبى الاصبع يرى أن بعض الفواتح بصورها وحروفها ، والعـدد الذى يخصها مشيرة الى الصانع والمصنوعات من جميع أحوال الدنيا والآخرة وعوالمها ، وكل موجود فيهما الآن وما وجد من قديم الزمن ، وما يوجد بعد فناء الاكوان •

والبعض الآخر من هذه الفواتح ، قسم أقسم الله به ، وهو بذلك يتفق مع بعض العلماء السابقين عليه فى معناها ، وان اختلف معهم فى

الطريقة التى توصل الى هـذا المعنى ، كما يرى أن هـذه الفواتح أشارت : اما الى معان ، أو الى أعداد تدل على هذه المعانى ، ثم قارن هذه الاشارات التى تفيدها هذه الفواتح بما يماثلها من كلام الشعراء •

وأثبت البلاغة للقرآن فى فواتحه واعجازه باشاراته التى تشير اليها الفواتح المعجمة ، لأن معناها على أى رأى قيل فيه اشارة الى معان كثيرة ، دل عليها لفظ واحد ، ودخول هذه الفواتح فى بلاغة القرآن لا يكون الا عن طريق أبواب بلاغية ثلاثة هى الاشـارة والارداف والتمثيل لكونها كلمات مفردات وما عدا هـذه الأبواب من أبواب البلاغة انما يأتى فى الجمل المؤتلفة ، هذا الى كونها ألفاظا سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة مؤتلفة بمعانيها ائتلافا تاما ، تدل على معناها دلالة واضحة باحدى طرق الاستدلال ، فانها بمفردات أحرفها البسيطة ، وأعداد حـروفها تدل على معان من الأبواب الثلاثة وهى الاشـارة والارداف والتمثيل بطـريقى التضمن والالتزام ، وتدل بصورها المركبة على حدتها ، وتارة بما يأتلف معها من الأبواب الثلاثة أيضا بطريق المطابقة ، وتوجب لمعانيها مبالغة تامة وفى هذا أعظم دليل وأقوى برهان ، وأوضح حجة على فصاحة القـرآن وبلاغة معانيه ، وطلاوة نظمه ، وحسن تنسيقه ليس فى وسـع الفصـحاء • ولا فى مقدور البلغاء • لأنك اذا رأيت منه هذه الكلمات المفردات دون جمله المؤتلفة قد فضلت الآيات المتزنة • وهى فى أرقى درجات البلاغة ، وظهر لك اضمحلال ما يماثله بها بالنسبة اليها علمت أن المعارضة لم تكن فى قوى العرب •

والاشارة فى البلاغة العربية هى : اشارة المتكلم باللفظ القليل الى المعانى الكثيرة •

والارداف : هو أن يريد المتكلم العبـارة عن معنى ما فيعبر عنه بلفظ هو ردف لفظه الموضوع له ، ولم يعبر عنه بلفظه المخصوص •

والتمثيل هو : أن يريد المتكلم معنى فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له ، ولا بردف ذلك اللفظ القريب منه ، وانما يدل عليه بلفظ غير لفظه ومماثل له وهو أبعد من لفظ الارداف ، ويصلح أن يكون مثالا له يفهم منـــه .

وأصل الاشارة مأخوذ من اشارة المشير الى مايريد افهامه ، فانه يومى بيده مثلا الى مدينة بجملتها مرة واحدة ، أو الى السماء أو الى الأرض ، أو الى جيش خصم ، فلما كانت اشارة اليد وهى مدها الى بعض الأشياء مرة واحدة يفهم منها هذه الأمور العظام سمى اللفظ القليل الدال على المعنى الكثير اشارة ، وبهذا اتضح أن الاشارة هى التعبير باللفظ الواحد عن معـــان شتى ، واللفظ الواحد الدال على معان شتى هو غير اللفظ الموضوع لتلك المعانى ، اذ لو عبر عن تلك المعانى الكثيرة بألفاظها لاحتاجت الى ألفاظ كثيرة ، وفواتح السور القرآنية قد جمعت من الصفات البلاغية للكلام كثيرا كالسهولة والبعد عن التكلف ، والطلاوة والفصاحة ، كما أنها زادت عن هذا كله أن منها المتزن وغير المتزن ، وهذه الفواتح قد جمعت الكلمة الواحدة فيها معانى تضيق العبارة عن حصرها وتعى الألفاظ عن عدها ، واذا قسناها ببيت متخير من الشعر الفاضل سقط دونها فى دلالة ألفاظه على معان تماثل معانى هذه الفواتح كثرة ، وحينئذ نؤمن ايمانا قاطعا أن هذا النمط من الكلام لا يكون فى وسع البشر ، ولا يتأتى لمخلوق ، ولا يقدر عليه الا القادر المطلق الذى أعجزت قدرته القادرين .

وأعود الى ماكنت فيه وهو مقارنة بعض هذه الفواتح وما تفيده من الاشارة الى الصانع جلت قدرته ، ومصنوعاته التى لا تحصى ، ولا يمكن الاحاطة بها بأبيات لبعض فحول الشعراء الذين أجمع النقاد على تقديمهم ، وتفضيل أشعارهم ، وأحب أن أقول هنا قبل البدء فى المقارنة أن الصور الكلامية ، والجمل الخطابية فى البلاغة على ثلاثة

أقسام : قسم تساوى فيه اللفظ مع المعنى ، وقسم زاد فيه المعنى على اللفظ ، وقسم كان عكس الثانى ، والقسمان الأولان مجمع على استحسانهما ، وهما المساواة ، أو زيادة المعنى على اللفظ ، والقسم الثالث وهو الذى زاد لفظه على معاناه مختلف فى حسنه ، والاشارة من القسم الذى زاد فيه المعنى على اللفظ ، وأبلغ ما أنشدوا فيه مثالا قول امرىء القيس فى وصفه الفرس :

على هيكل يعطيك قبل سؤاله

أفانين جرى غير كزولاوان

فانه أشار بقوله : « هيكل » الى جمال خلق الفرس ، وتمام قوائمه ، وعرضه وغلظ جنبه ، وعظم عنقه ، وأشار بقوله : « أفانين جرى غير كزولاوان » الى جميع ضروب العدو الموصوفة بصفات الحسن ، ووصف هذا الفرس ببذل ذلك من نفسه طوعا من غير حث ولا ضرب ، ولم يكلف راكبه حركة يد ولا رجل ولا لسان ، فأثبت له جميع الأخلاق غير المذمومة ، والناظر فى ألفاظ هذا البيت يراه النهاية فى هذا الباب اذا قورن بغيره من الشعر ، ولكنه يتضاءل أمام فاتحة « ن » وما تشير اليه من المعانى ، فانها حرف واحد فى الخط ، وثلاثة فى النطق ، ولكنها أشارت الى أسماء الله تعالى ، وهى مائة اسم ، أما التسعة والتسعون فلو ذكرت وشرحت وفسرت لا حتيج فى التعبير عنها ، وعن معانيها الى ألفاظ كثيرة جدا ، وأما الاسم الأعظم واختلاف الناس وتباينهم فى كشف أسراره ، فلو تكلم عليه من جهتى علم الباطن والظاهر لا تسع الخرق على الراقع ، ولا حتيج فى ذلك الى ما يكاد يعجز المتكلم ، هذا اذا قسناه بفاتحة بسيطة من الفواتح المعجمة ، أما اذا قارنا بينه وبين فاتحة معربة ، فان الأمر يتضح أكثر وأكثر ، فلو قارنا بين فاتحة سورة النجم ـــ وهىفاتحة معربة مركبة ومصدرة بالقسم ـــ لا تضح لنا المغزى ، وظهر اعجاز القرآن لا سيما عند من يرى أن هذه الفاتحة قسم بجميع النجوم لكون الألف واللام للجنس ، والنجوم

فيها من الكواكب المسماة عند العرب ما يزيد على الألف حقيقة ، ومالا اسم له عندهم لا يحصى عددا ، وما يتضمن ذكر النجوم من صفاتها وصورها وحركاتها ومسافة مسيرها واتصالاتها وهيئات أفلاكها وجميع أحوالها ، وما تدل عليه بحركاتها من الحوادث الأرضية ، وما يحصل بها من الهداية ومعرفة الأجواء والجهات ، وما يستلزم من تعظيم صانعها ومبدعها ومنشئها ومخترعها الى غير ذلك ، وهذا مثال أوردته شاهدا على قول من يرى أن الفواتح القرآنية اشارات ، ومن أراد الزيادة فى ذلك فعليه بكتاب « الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح » لابن أبى الاصبع وأظن أننى قد أتيت على أكثر أقوال القدماء فى معانى فواتح السور القرآنية ، وسوف أترك القـدماء وآراءهم وأقوالهم لا تتبع المحدثين لنقف على رأيهـم فى ذلك ، ثم نرى مـدى تأثرهم بالسابقين ان كان فيهم أثر ، وسوف أعرج على موقف المستشرقين من هذه الفواتح .

المستشرقون والفواتح :

يرجع الفضل فى الكشف عن رأى بعض المستشرقين فى معنى فواتح السور القرآنية المعجمة الى أستاذنا الدكتور / محمد غلاب فى بحثه الذى نشر تحت اسم « هذا هو الاسلام » [١] .

اذ تكلم فيه عن فواتح السور ، وأبان فيه ما قاله القدماء من علماء المسلمين ، ولم أر غير ما ذكره عن القدماء لغيره ... أما الجديد فى هذه الدراسة فهو الكشف عن رأى بعض المستشرقين فى هذه الفواتح :

١ — يرى المستشرق « لوت » أن هذه الفواتح مدين بها محمد — صلى الله عليه وسلم — لتأثير أجنبى ، ويرجع « لوت » أنه تأثير يهودى ويدعم رأيه بقوله : ان هـذه الفواتح نزلت فى المدينة موطن اليهـود .

---

(١) كتاب الشعب رقم ٦٥ ص ١٠٦ — ص ١١٠ .

ولكن هذا الرأى باطل وكذب وهراء وتضليل ، اذ أن الفواتح المعجمة تسع وعشرون ، نزل بمكة منها سبع وعشرون ، ومكة لم تكن موطنا لليهود .

٢ — ويرى المستشرق « نولديك » أن هـذه الفواتـح رموز لمجموعات الصحف التى كانت عند المسلمين الأولين ، وليست من القرآن فى شىء ، فمثلا حرف الميم رمز لصحف المغيرة ، والهاء لصحف أبى هريرة ، والصاد لصحف سعد بن أبى وقاص ، والنون رمز لصحف عثمان .

وعلى ذلك فهى ليست سوى اشارات لملكية الصحف التى تركت فى موضعها بدافع النسيان ثم صارت قرآنا . وهو خطأ أيضا كسابقه .
ويوافق « نولديك » المستشرقان « هيرشـفيلد » و « بوير »
ولا شك أن هذا من أعجب الأعاجيب ، وأوضح الدلائل على التعنت .
كيف يستسيغ هؤلاء المستشرقون اضافة شىء الى القرآن ليس منـه ؟ !

ممن هذه الاضافة ؟ من حفظة القرآن وحملته وكتابه !! ، ثم كيف ينسون رموزا وضعوها لصحفهم ، ثم تصبح من بعدهم قرآنا وهم معـاصرون للخلفاء والصحابة ، الذين يقرأونه صباحا ومسـاءا فى صلاتهم وقيامهم وغدوهم ورواحهم ، ثم ينسون فيه ما ليس منه ؟
٣ — يرى المستشرق « اسبرانجير » أن « طسم » لكى تفهم يجب أن تقلب لتكون رمزا لقوله تعالى : **« لا يمسه الا المطهرون »** .
ولا شك أن هذا الرأى عرفه القدماء من علماء المسلمين ، وقالوا : أن بعض ألفاظ القرآن يجب أن تقلب لتفهم ، وهذا لا يؤدى المعنى المراد ولا يطرد فى كل الفواتح المعجمة .

٤ — يرى المستشرق « بوير » أن فى كل فاتحة من فواتح السور المعجمة رابطا يذكر فى سورتها ، فالطاء مثـلا من « طسم » تشير الى

الطور ، والسين تشير الى سيناء ، والميم تشير الى موسى ، لأن هذه السورة تتحدث عن موسى وطور سيناء •

ولا أقول تعليقا على هـذا الرأى أكثر مما قاله الدكتور غـلاب « من أنه رأى يستوجب الضحك حتى فى الأوقات التى يتعـذر فيها الضحك ، ويعز الابتسام » لأن هذا الرأى لو صح اعتباره فى فاتحة سورة القصص لا يصح أن نعتبره فى غيرها لأنه لا ينطبق عليها •

٥ — يرى المستشرق « بلاشير » الرجوع الى نظريات المسلمين وآرائهم ويفضل قول من قال : ان هذه الفواتح اختصارات لاسماء الله ، ثم يرى أن أفضل العلماء من رأى أن العبث فى محاولة سبر أغوار هذه الفواتح •

المحدثون والفواتح :

رأيت من الواجب أن أبين ما للمحدثين من أثر فى الكشف عن معنى فواتح السـور المعجمة تتميما للدراسة ، واعطـاء كل ذى حق حقه ما أمكن •

فالتقيت بالاستاذ المرحوم « رشيد رضا » فى تفسيره المنار فألفيته تكلم عن الفواتح المعجمة فى مكانين من التفسير :

١ — عند تفسيره « الم » البقرة[1] :

٢ — عند تفسيره « المص » الأعراف [2] • ورأيته فى استخراج معنى هذه الفواتح لم يزد على ما قاله القدماء أكثر من أنه تناول رأيين من آرائهم لعله مال اليهما وأخذ يوضحهما :

الاول : الرأى الذى يقول أصحابه بأنها اشارات الى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف للتدليل على اعجازه ، ويرى أن كثيرا من العلماء أخذ به كالزمخشرى والبيضاوى •

---

(١) البقرة تفسير المنار ١ : ١٢٢ •

(٢) المنار ٨ : ٢٩٦ •

الثانى : الرأى الذى يقول أصحابه : أن هذه الحروف للتنبيه ، وان كان القدماء لم يكشفوا لنا عن أسباب اختيارهم ، ولم يفصحوا عن مميزاته كالمرحوم : السيد رشيد رضا الذى أبان فضيلة هذا الرأى وميزه على غيره بما أضفاه عليه من الايضاح حيث قال :

يجب قراءة هذه الحروف مقطعة بذكر أســمائها لا مسمياتها ، فيقول :

ألف • لام • ميم • ساكنة الأواخر غير داخله فى تركيب الكلام فتعرب بالحركات ، وعدم اعرابها يرجع الى أن افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لمــا يأتى بعدها مبــاشرة من وصف القرآن ، والاشارة الى اعجازه وخاصة الى المكى منه ، لأنه كان يتلى على المشركين للدعوة الى الاسلام ، ودعوة أهل الكتاب اليه ، واقامة الحجج عليهم ، وهى فى نظره كأداة الاستفتاح « ألا » وهاء التنبيه فى اسم الاشارة •

ويدل على ذلك بأن الفواتح المعجمة كلها مكية ما عدا فاتحة البقرة ، وآل عمــران ، والفواتح المكيــة كلها تذكر الكتاب الا سورة مريم ، والعنكبوت والروم ، و «ن» ، وفى هذه السورة المستثناة معان تتعلق باثبات النبوة ، وصدق الكتاب • فسورة مريم ذكرت فيها قصة مريم ويحيى ، وزكريا ، وذكر فيها أيضــا رسالة ابراهيم ، وموسى ، واسماعيل ، وادريس مبدوءا كل منها بقوله : « **واذكر فى الكتاب** » والمراد به القرآن ، وذكر هذه القصص فى القرآن من دلائل الاعجاز — لأن النبى — صلى الله عيه وسلم — لم يكن يعرفها هو ولا قومه « **تلك من أنباء الغيب نوحيهــا اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبــل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين** » •

كما ختمت سورة مريم بابطال الشرك واثبات التوحيد ، ونفى اتخاذ الله — سبحانه وتعالى — للولد ، وتقرير عقيدة البعث والجزاء ، فهى فى ذلك بمعنى سائر السور التى كانت تتلى للدعوة الاسلامية •

أما سورة العنكبوت ، والروم ، فكل منهما افتتحت بعد « الم » بذكر أهم الأمور المتعلقة بالدعوة ، وهى : ايذاء الأقوياء للضعفاء ، ومن ذلك يعرف ضعاف الايمان من الأقوياء • وفى سورة الروم أمر هام هو تغلب دولة الفرس على دولة الروم فى القتال ، فأخبر الله رسوله بذلك بأن الأمر سـيدول وتغلب الروم الفرس ، وقد صدق الخبر ، وتم الوعد ، فكان كل منهما معجزة من أهم المعجزات ، ولو لم يحصل التنبيه لفات من أولهما شيء على المستمع ، ولما فهم ما يأتى بعده •

أما سورة « ن » ففاتحتها فى بيان تنظيم شأن الرسول صاحب الدعوة ، ودفع شبهة الجنون والصرع عنه ، وهى أول ما نزل من القرآن بعد سورة « العلق » فكانت الحال تدعو الى هذا ، فان رجلا أميا ، فقيرا وادعا ، لم يكن رئيس قوم ، ولا قائد جنـد ، ولا صاحب تأثير فى الشعب بخطابته ولا بشعره ، يدعى أن جميع البشر على ضلال الكفر ، وأنه مرسل من الله لهداية الخلق • ان رجلا كهذا لمن اليسير أن يرمى بالجنون •

ثم التقيت بفضـيلة المرحوم الشيخ : ابراهيم أطفيش : أحد المحققين بدار الكتب المصرية ومن رجال التفسير والزعماء الدينيين لأعرف رأيه فى فواتح السور القرآنية فتفضل قائلا :

ان فواتح السور من كلام الله العزيز فيها من المعانى ما تحار فيه ألبـاب أساطين العلماء ، فمع جمعها لعلوم شتى ، فان الفواتح المعجمة منها اذا نظرنا لكل سورة ابتدئت بحرف ، أو حرفين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة ، فاننا نستطيع ادراك معنى تلك الحروف المفردة فى أول السورة بالمعانى التى مضت فى السورة التى قبلها وبالتأمل فى هذه الحروف ترى أنها أسماء للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهذا الرأى قال به السيوطى[1] •

(١) الاتقان ٢ : ١١

فنجد قوله تعالى : ((**ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون**)) ان معنى الحرف ((ن)) نور ، وأنه نداء مرخم ، ونور من أسماء الرسول — عليه السلام — حيث يقول الله تعالى : ((**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**)) وان ذهب بعض المفسرين الى معان أخرى فى لفظ النور ، ولكن القسم ، والآية بعــده يدلان على أن المخاطب الرسول — صلى الله عليه وسلم — أما اذا رجعنا الى سورة ((الملك)) قبلها ، فاننا نرى فى أثناء تلك السورة ما يشــعر بتهديد المشركين للرسول — صلى الله عليه وسلم — وتكذيبهم له ، وفيها من الآيات المقرعة لهم ، المهددة بالعذاب فى الدنيا والآخرة — فما يجتمع لك من كل هذه المعانى العظيمة التى يؤكد أن الخطاب للرسول بالنور ليشعره الله بالأنس وارتفاع المكانة .

وكذلك فاتحة سورة ((ص)) ومعناها : يا صادق ، و ((طه)) ومعنــاها : يا طاهر ، و ((الم)) ومعناها يا أيها المرسل و ((الر)) ومعناها : يا أيها الرسول ، و ((ألمص)) ومعناها يا أيها المرسل الصادق.

وأما ((حم عسق)) فمعناها يتضح بعد قراءة سورة ((فصلت)) وما فيها من تهديدات متعددة لمشركى العرب ، ولمشركى قريش خاصة ، ثم ختم السورة بقوله تعالى ((**سنريهم آياتنا فى الآفاق**)) الآية ولو علمنا أن السورة نزلت فى مكة ، وكان بعدها غزوة بدر الكبرى التى انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما كسر شوكة المشركين فاننا نجد معنى حروف ((حم عسق)) يتضح ، ويدل على المعنى الآتى : —

يا أحمد — وهو من أسمائه — صلى الله عليه وسلم — عذاب الله سيأتيهم قريبا ، فتكون الحاء والميم اشارة الى اسم الرسول والعين اشارة الى عذاب الله ، والسين لاتيان العذاب مستقبلا والقاف للدلالة على اتيانه قريبا .

ومعنى ((كهيعص)) — بعد ما فى سورة الكهف من اشتداد الأمر

على رسول الله — صلى الله عليـــه وسلم — وكثرة همومه من أمر المشركين — الاشارة الى أن كمال هذا الأمر ، وهو النصر يقينى فعليك بالصبر ، فتكون الكاف اشارة الى كماله ، والهاء اشارة الى هذا الأمر ، والياء الى يقينى ، بدليل قوله تعالى : « **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** » وهو النصر قطعا ، والعين اشارة الى الصبر والمعنى الزم الصبر ، كما لزمه زكريا — عليه السلام — وأحب أن أقول هنا لفضيلة الشيخ ابراهيم اطفيش ان رأيك فيه طرافة وتحليل ، ولكن ليس بجديد ، وانما الجديد فيه ربط السور القرآنية برباط الوحدة الفنية التى توجد فى القرآن ، كما أن رأى سيادته قائم على أن ترتيب السور القرآنية ترتيب الهى بدليل قوله : « **ان علينا جمعه وقرآنه** » •

كما ألاحظ على رأى سيادته الاختلاف فى معنى هذه الحروف فمرة يجعلها اشارة الى أشياء ومرة يجعل الحرف الواحد اسما للرســـول ينادى مرخما أو غير مرخم ، كما أنه فسر العين بتفسيرين مختلفين ، ولكنه اجتهد فان أصاب فى اجتهـــاده فله حسن الثواب ، وان كانت الأخرى فأرجوا له وللمسلمين التوفيق •

ويقول الاســـتاذ مالك بن بنى فى « الظاهرة القرآنية » [1] :
« ولقـــد حاول بعض المفسرين أن يصـــلوا فى موضوع هذه الآيات المعلقة الى تفاسير مختلفة مبهمة ، ولكن أكثرهم تعقلا واعتدالا هم أولئـــك الذين يقولون فى حال كهذه — بكل تواضع — والله أعلم »
وأنا لا أوافقه على هذا •

ثم التقيت بالاســـتاذ المستشار رافع محمد رافع ، ولمـــا كنت أعرفه أنه ذو رأى فى تأويل بعض المشكل من آيات القرآن وتفسيره أحببت أن أقف على رأيه فى معنى هذه الفواتح فتفضل قائلا :

ان هذه الفواتح تدل على أمرين :

---

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٧١

١ — ان القرآن مركب من هذه الحروف ، وأنه سبحانه قادر على التكلم والافهام بالحـروف المفـردة كالتكلم والافهام بالجمل والعبارات ، فان الكلمات « ن » و « ق » و « ص » وان كانت حروفا مفردة الا أنها يجوز بها ما يجوز بالآيات الطوال المركبة من الجمل العديدة ، فتجزىء فى الصلاة ، وتسمى آية ، وهذا اشارة لاشعار القارىء بأن هذا القـرآن كلام غير عادى ، فلا تعيـه الا القلوب الطاهرة ، وهو بهذا لم يزد عما قال عنها القدماء .

٢ — أما الفواتح المعجمة المركبة من حروف « الم » ، « المر » و « المص » و « كهيعص » الخ ، فحروفها اشارات الى أسماء الله تعالىأو لغيره فالكاف من فاتحة «كهيعص» اشارة الىاسم الله ومعناها « كاف » ومنه قوله « أليس الله بكاف عبده » ، و « ها » ضمير يعود الى الله « ويا » للنداء و « ع » اشارة لله بمعنى الواحد وذلك عن التوحيد ، و « ص » للرسول الصادق والمعنى الاجمالى للفاتحة على هذا هو « الكافى الواحد يا صادق » ومما لا شك فيه أن الرأى الثانى للاستاذ رافع هو ما أشار اليه بعض العلماء السابقين فليس بجديد منه ، والجديد فى رأيه أنها للدلالة على أن الابانة بالحرف الواحد مع الافهام كالابانة بالجمـل والعبارات ، ويجوز بهـا ما يجوز بالآيات الطـوال .

ثم تقابلت مع الاسـتاذ محمد على الهندى والاستاذ « نصوح طاهر الفلسطينى » فيما كتبه عنهما استاذنا الكبير عبد الوهاب حمودة فى « مجلة رسالة الاسلام » فى العددين الثانى والثالث لسنة ١٩٥٩ ، واستخلصت من هذه المقابلة ان الاستاذ محمد على الهندى يخطىء الاستاذ نصوح فى رأيه الذى يقول فيه : « ان لهذه الحروف » قيما عددية على حساب الجمل تدل على آيات السور المفتتحة بها هذه الفواتح ، بل رماه بالجرأة على القرآن ، وفعله ما لم يفعله أعـداء

الاسلام ، اذ غير الاستاذ نصوح عدد آيات بعض السور لتتفق فى عددها مع رأيه ، ولا شك ان كان هذا حقا فانها جرأة ما بعدها جرأة .

وان كان بعض علماء الاسلام يفسر هذه الفواتح تفسير الاستاذ نصوح الا أنهم لم يقصدوا ما قصده من تغيير عدد الآيات ، أو جعل عددها الحسابى اشارة الى عدد آيات السور المفتتحة بهذه الفواتح . فابن أبى الاصبع دلل بهذه الفواتح — على طريقة حساب الجمل — على الصانع والمصنوعات ، واستنتج منها (المعجزات المعجزات) بأدلة علمية نقلية وعقلية ، وبذلك يدخل تحت قول الاستاذ محمد على الهندى « واذا صح هذا الرأى ، وصدق التأويل لكان بلا شك تفسيرا مقنعا كما فهمت أيضا مما كتبه الاستاذ محمد الهندى فى رده على الاستاذ نصوح وتعرضه لرأى الســابقين ، وتأويلاتهم والدلالة على صحة استعمال الحروف المقطعة فى اللغة العربية ، فليس بدعا أن تنهج اللغة العربية منهج اللغات الأخرى فى استعمال الحروف المقطعة مع افادتها ، ثم أبطل رأى القائلين بأن هذه الفواتح سر استأثر الله تعالى بعلمه ثم وافق القائلين من القدماء بصحة تأويلها ، وذكر القائلين بأنها أسماء للسور التى افتتحت بها ، وأرجعه الى ابن عباس ومن تبعه — رضى الله عنهم — جميعا ثم استطعت أن أبرز الرأى الذى ارتضاه الاستاذ محمد على الهندى فىمعنى هذه الفواتح وتفسيرها ، وهو تقســيمه هذه الفواتح مرة بحسب حروفها ، ومرة بحسب موضع نزولها ، فجعل منها فواتح اتحدت فى حروف فواتحها ، والى فواتح اختلفت فواتحها فى الحروف ، كما قسمها الى مدنية ومكية ، وبناء على هذه التقسيمات ، تكلم على معانيها وتفسيراتها ، وجعلها كمجموعات . المجموعة الاولى هى التى ابتدأت فواتحها بـ « الم » جعلها اختصارا لكلمات ومعناها « انا الله عالم » فالألف أول حرف من كلمة « أنا » واللام وسط كلمة « الله » والميم آخر حرف من كلمة « عالم » ، ثم يخرج من هــذا التأويل الى أنها اشارات أشير بها الى معان ، فالكلمات « أنا الله

عالم » ، تشير الى التنبؤ بانتصار الاسلام ، ثم « المص » تشير الى مبدأ التنبؤ بالانتصار ، و « المر » تشير الى ما أشارت اليه « الم » و « الراء » أما عن الفعل « رأى » ويكون المعنى « أنا الله أرى كل شيء يصنع معك » وأطلع على كل أفعال خصومك ، واما من الكلمة « راء » اسم فاعل من « رأى » والمعنى سأنزل من العقاب ما يقضى عليهـــم .

والمجموعة التى تبدأ بـــ « طسم » نزلت بعد أن ذاق الرســـول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الأمرين من اضطهادات المشركين وايذائهم ، فهل تدل كمانقل عن ابن عباس ـــ رضى الله عنه ـــ على صفتين من صفات الله تعالى عرف بهما ، وهما الرحمن الرحيم ، يشير بذلك الى أنه على الرغم من ايذائهم ، وسوء أفعالهم ، فانه فى معاملتهم رحيم .

والمجموعة التى تبدأ بـــ « طس » تشير الى « طور سيناء » وهو الجبل الذى تلقى عليه موسى ـــ عليه السلام ـــ الوحى ـــ والميم من « طسم تشير الى موسى ، وعلى هذا يكون كل ذلك تلميحا الى مشابهة الوحى الذى نزل على محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بالوحى الذى نزل على موسى بجبل سيناء ، وأيد ذلك بأن موضوع هذه السور تغلب عليه قصة موسى ، وأكدت المشابهة فى سورة القصص .

أما مجمـــوعة الفواتح التى ركبت من خمســـة حروف وهما « كهيعص » فاتحة مريم و « حم عسق » فاتحة الشورى ، ففاتحة مريم تشير الى صفات الله تعالى ، فالكاف تشير الى الكبير أو الكافى ، و » هـ » تشير الى الهادى و « ى » الى يمن أى منعم و « ع » الى « عالم » و « ص » الى صادق أما فاتحة » الشـــورى « فان الجزء الاول يشير الى ما أشار اليه قبل ذلك ، والعين والسين والقاف تشير الى وصفه تعالى بأنه عالم ، سميع ، قادر .

والمجموعة اتى افتتحت بحرف واحـــد ، وهى « ن » و « ق » و « ص » فالقاف تشير الى ما أشارت اليه فى فاتحة « حم عسق » ، والصاد تشير الى ما أشارت اليه فى فاتحة مريم ، والنون أول الفواتح المعجمة اذ هى من أوائل السور المكية ومعنى **« ن والقلم وما يسطرون »** أن الدواة والقلم هما اللذان يتوصل بهما الى لكتابة فالحرف « ن » له معنيان فى اللغة وهما « الدواة والحوت » ، الا أن السياق ، وذكر القلم بعد « ن » مما يساعد على تفضيل الرأى القائل بأن المراد من ذلك الحرف انما هو الدواة ، ومما لا شك فيه أن هذا التفسير الذى أراده الاستاذ محمد على الهندى لهذه الفواتح مما يدل على باحة التأويل ، وان هذه الحروف استعملت للدلالة على كلمات من مدلولاتها ، ولا أود مناقشته لأن ما أتى به من التأويل ليس جديدا الا فى بعض المعانى لبعض الحروف •

والكلمة الأخيرة التى أحب أن أقولها فى نهاية هذا المطاف بين العلماء القدماء والمحدثين والمستشرقين ، أن هذه الفواتح لم يصل بعـــد الى التحقيق من معناها ، وان كنت أفضل الرأى الذى يقول : انها أدوات للتنبيه ، وخاصة أن أغلب هذه الفواتح نزلت فى مكة ، والمشركون مجمعون على معارضة القرآن واللغو عنـــد سماعه ، حتى لا يخترق آذانهم الى قلوبهم فيتأثروا به ، فيؤمنوا باعجازه ، فهم فى حاجة الى تنبيه ، حتى لا يفوتهم منه شىء ، وان كانت هذه الفواتح غير ما عرفه العرب من أدوات التنبيه •

الفصل الثانى

البَلاغَةُ وَالقُرْآن

القرآن الكريم كتاب الوجود ، يعرفه من عرف نفسه ، وعرف الغاية من محياه ، ومن مبتدئه ومنتهاه ، **« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »** فمن آياته وحدها اهتزت الأجيال الهامدة اهتزازة الحياة ، وتخلصت بقوة وعزم من عقابيل الجاهلية الاولى ، لتنشىء نهضة جديدة متميزة بحقائقها وشاراتها ، نهضة لم تنبعث من نفس رجل وحده فتموت بموته ، بل نهضة تنبعث من أعماق النفوس التى آمنت عن يقين جازم ، واقتناع محض ، وكأن كل واحد من حملة هذه الرسالة هو الذى اختص بهذه الآيات **« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »** وقد يبحث الكثيرون عن السر وراء هذا الانقلاب السريع ، وكل منهم يرتاد طريقا ، أو يخط منهجا ، ولكنهم جميعا يلتقون على مائدة واحدة ليقرروا نتيجة أبحاثهم جميعا ، والتى تتلخص فى بلوغ هذا الكتاب المقدس ذروة البلاغة مما استحق به أن يكون معجزة البيان العربى ، ألفاظه اذا هى اشتدت فاذا هى أمواج البحار الزاخرة ، واذا لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، ومعان هى عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، ولا غرو فالقرآن الكريم قد سحر العرب وهم أرباب البلاغة وفرسان البيان منذ اللحظة الأولى ... نعم سحرهم جميعا ، يستوى فى ذلك المؤمنون والكافرون ... هؤلاء يسحرون فيؤمنون وهؤلاء يسحرون فيبهرون ، ثم يتحدث هؤلاء وهؤلاء عما مسهم منه ، فاذا هو حديث غامض لا يعطيك أكثر من

صورة المسحور المبهور ، الذى لا يعلم موضع السحر فيما يسمع من هذا النظم العجيب ، وان كان ليحس منه فى أعماقه هذا التأثير الغريب •

فهذا عمر بن الخطاب يقول فى رواية : « فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الاســلام » ويقال عنه فى رواية أنه قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » •

وهذا الوليد بن المغيرة يقول مرة : « لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلى وما يعلى عليه » هذا الكلام وما ينطوى عليه من شهادة العدو ألا يوحى بسرعة خاطفة بذكر قول القائل : —

والفضل ما شهدت به الأعداء

فعمر — قبل اسلامه — والوليد اثر سماعهما لهذا الكلام السماوى الخالد لا يقدران على احتجاز ما عرفا من حق داخل نفسيهما فيبادران ويصرحان •

وان بلوغ القرآن هذه الغاية من التأثير فى الأصدقاء والأعداء بعض أسرار الاعجاز التى نوه بها العلماء فى القديم والحديث ، وأيضا بعض أسرار الخلود التى كتبها الله لآياته البينات وان تعجب فعجب لشاق المــادية حين كرهوا أن تناظر بكتاب ما هــذه الآثار البيانية المعجزة فقالوا متطلعين **« ولو أن قرانا سيرت به الجبــال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى »** •

لا : هذا قرآن تسير به الجبــال وتصلح به الأرض ويكلم به الأحياء ، هذا كتاب يصوغ الحياة فى قوالب جديدة ، ويرد النفوس الى

نظراتها السليمة ويزود عن البصر فتن الشياطين ، ولوثات الأغنيـــاء وتقاليد الجاهلية الجاحدة .

فى الوقت الذى يضرب فيه المثل عاليا لسمو معناه ، وعلو مرماه ، وايجاز نظمه وسلاسة أساليبه ، أفبعد هذا بلاغة أم وراء ذلك بيان ؟!

* * *

بلاغة العرب :ــ

منذ فتح العرب أعينهم على هذه الثروة البيانية فى القرآن الكريم وهم ينهلون وردها ، ويتعللون جناها ووجدوا أن تربية ملكات البيان وتنمية الأذواق لن تكون الا بورود هذا النبع الصافى يقتبسون منه ويأخذون عنه وكان لهم ما أرادوا من التوفيق والاصابة حين اطردت البلاغة تنمو فى ظل القرآن الكريم .

ولكن هذا التوفيق وتلك الاصابة كانا الى حين ، فقد غلبهم الزمن على أمرهم ، وغالبتهم مزايا الحضارة فى العصر العباسى حين ازدهرت الترجمة وقوى تيار الجدل وأمدت الثقافات الأجنبية الثقافة العربية بوفير من اللجاج العقيم ، والجدال فى كل من العلم والفلسفة .

ولا ننسى الكثرة الكاثرة من الموالى وغيرهــم الذين اعتنقوا الاسلام دينا منذ ذلك الحين ، فكان ثمة مزج للمجتمع الاسلامى العربى بعناصر غريبة لم يلبث هذا المزج فترة وجيزة حتى أحدث انصهارا فى لغة هذا المجتمع كله ، ومما ساعد عليه نقل بلاغة الأمم الأخرى فيما نقل الى العربية ، ففتن بها كثير من الباحثين فى البلاغة العربية كقدامة ابن جعفر وابن وهب وغيرهما .

ومن يومها لم يكن القرآن الكريم — كما كان فى القرن الثانى للهجرة هو المشرع الوحيد الذى ترده أبحاث البلاغة ، بل كانت بلاغة العلماء منهلا آخر يرجع اليها فى البحث البلاغى •

واذا كان لكل عصر بدعة جديدة ، فقد لبست بدعة هذا العصر الذى نتحـــدث عنه ثوب نظرية جـــديدة ترمى الى الاجابة عن هذا السؤال :

هل بلاغة العرب ترد الى منبع عربى أم ترجع الى نزعة يونانية ؟ وتعددت الاجابات وكثر القيل والقال حول هذا السؤال •

ولئن كان من هدفنا هنا عدم الخوض فى أمثال هذه الأشياء فاننا نستطيع أن نقرر — فى طمأنينة علمية تاريخية — أن الصور البلاغية عند العرب ترجع الى مصدرها الثرى وأصلها العربى ، وأن هذه البلاغة فى فطرة اللغة وتكوينها ولقد كان القرآن الكريم لها مثلا أعلى •

فمن قال غير ذلك فهو مكابر أو جاهل يقحم نفسه فى صفوف العلماء ، ونحن لا نقرر هذا جزافا كما لا نلقى القول على عواهنه لأنه لا يعوزنا المثل للتدليل على صحة ما نقول •

فهل أتاكم — أيها المفتونون — نبأ كل من أبى عبيدة فى مجاز القرآن ، والجاحظ فى نظم القرآن ؟ ألم يكشف هؤلاء الباحثون عن أصول قواعد البلاغة العربية قبل أن يعرف الناس بلاغة أرسطو أو يسمعوا بها أو حتى يقرأوا عنها ؟

على أية حال : فان هؤلاء المفتـــونين ببـــلاغة غير العـــرب قد أساءوا الى أنفسهم من حيث لا يشعرون ، وأساءوا الى البلاغة العربية وهم لا يدرون ، فقد حملوا البلاغة العربية مالا تحتمل من اصطلاحات

وتفريعات ونظريات ناءت بحملها البلاغة ، وأصبحت فى بعض فنونها لا ترجع الى الذوق الفنى الأصيل بقدر ما ترجع الى الأصول الفلسفية والمنطقية •

وما كان أغنى البلاغة — وهى منطق الذوق والاحساس والشعور أن تنأى بنفسها عن جفاف الفلسفة وبرودة العلة والمعلول كما رأينا عيانا فى بلاغة المتأخرين •

وماذا عليهم لو أرجعوا البصر الى بلاغة القرآن فاستقوا منها أصول هذا الفن ؟

أكان ذلك يضرهم فى شىء ؟

رب انهم أخطأوا فهل لنا أن نضطلع بحمل هذا العبء فننظر فى البلاغة من جديد مدركين ما فات القدماء مصلحين ما بدر منهم حتى لا ينحرف بنا السبيل من غير هذا السبيل ، وددت لو ردت أصـــول الفن البلاغى الى هذا المثال المعجز فنكون قد رددنا الاشياء الى حقائق الأشـــياء •

وربما دار فى خلد الناس أن هذه الأمنية ضرب من الأحلام ، أو وهم من المحال ، فكيف يكون القرآن المعجز فى بيانه أصـــلا لقوانين البلاغة التى نريد حمل الناس عليها ؟

أقول : — وهل فى هــذا عار أو مذمة ؟ لكأننـــا نقول للأدباء والشعراء : أبدعوا فنكم على هذا المنوال والا سقط كلامكم من كل اعتبار ، نحن نعلم يقينا أن الأدباء مهما جهدوا وحشدوا أبدع ما فيهم من ملكات لا يمكن أن يتأتى لواحد منهم ، أو لجماعتهم أن يأتوا بكلام يوازن هذا الكلام ، ، فكلامهم مهما حسن وجاد كلام بشر بيد أن الكلام

القرآنى صدر عن مشكاة واحدة : قائله الله رب العالمين ، ومبلغه محمد البشير النذير ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجنده السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان الى يوم الدين •

« **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** »نحن نعلم أننا لا نقصد من وراء احتذاء بيان القـــرآن واســـتفاء نبعه أن يكون بيانا كبيانه فما شاء الله ، وشتان ما بين عبد ورب •

اننا نريد أن نتعرف على هذا المستوى العالى من بيان القرآن ونقول للناس هذه هى القدوة الطيبة ، والأســـوة الحسنة ، فترسموا خطاها ، وأنسجوا على منوالها حتى تصلوا أنفسكم بطبقة من البيـــان تستضىء بهذا النور المشرق الوهاج •

يجب أن نجدد فى النظرات البلاغيـــة القديمة وذلك بأن نبحث البلاغة على أساس من مقاييس جديدة نستوحى فيها بلاغة القرآن فهو المثل الأعلى للبلاغة ، وفى ظله ينبغى أن يشرع السبيل لوارد البيان

يجب أن نضع نصب أعيننا أن روح المنطق والمقاييس الافتراضية الذهنية التى أوغل فيها السكاكى وأشباهه كانت ضربة قاصمة للبلاغة وبعدا بها عن ميدانها التذوقى الأصيل ، فاذا أدركنا هذا حق الادراك فهل لنا أن نستحث الخطى نحو منهاج جديد ؟ عسى أن يكون ذلك قريبـــا •

ولكى نسعى للحل جاهدين يجب أن نقدر المشكلة حق قدرها ، ولن يكون هذا الا بأن أعرض عليك مثلا لسوء الدرس وانحراف البحث •

فقد قسم البلاغيون الكلام الى مساواة وايجاز واطناب ، وعرفوا المساواة بأنها أداء المعنى بلفظ على قدره .. ، والايجاز : أداء المعنى بلفظ ناقص عنه واف به ، والاطناب : أداء المعنى بلفظ زائد عنه لفائدة .

وقد جعلوا المقياس الذى تضبط به المساواة هو المقدار الذى يتكلم به أوساط الناس فى محاوراتهم ومتعارف كلامهم ، وهو القدر الذى لا يحمد فى باب البـــلاغة ولا يذم فيما نقص عنه مع الوفاء به فهو الايجاز وما زاد عنه مع الافادة فهو الاطناب .

ولا شك أن هذا التقسيم معيب لأن بناء «المساواة» على العرف فيه رد الى الجهالة ذلك لأن تعبير العامة عن المعنى قد يختلف فى غالب الأحيان ، فيكون مرة مجملا ومرة مفصلا .

وقد ترتب على هذا التقسيم أن مال التفاضل البيانى بالطبع الى أحد الطرفين : اما الايجاز واما الاطناب . اذ لا بلاغة فى المساواة . مع أن الفضيلة فى كل شىء هى الوسط .

ولكن تحكم التقسيم قد أخرجنا عن القواعد الفطرية المألوفة بل أوقعهم فى اضطراب وبلبلة .

أرأيت كيف أنهم اعتبروا الفضيلة البيانية فى طرف : الايجاز والاطناب . واذن فلافضل للبيان فى المســـاواة فكيف يعودون ثانية لينقضوا ما قالوه ، ويعتبروا المساواة من البلاغة ، اذا كانت خطابا للعامة . بل لقد اعتبروا « المساواة » من أساليب القرآن ومثلوا لها بالآية الكريمة : **« ولا يحيق المكر السىء الا بأهله »** مع أن القرآن خطاب للخاصة والعامة على السواء . أفلا يرد ذلك جهالتهم ؟ ربما .. على أن فى الآية ايجازا بالحذف وتقديره فى الآية : **« ولا يحيق ضرر المكر السىء الا بأهله »** .

وعلى هذا النحو نرى اضطراب المقاييس والبعد عن أحكام الفطر فى بيان القــرآن مع أنه من الخير للبلاغة والبــلاغيين أن يستوحوا أسلوب القرآن • فهو قمين بهدايتهم الى أفضل المقاييس البلاغيــة التى لا تضل ولا تحيد •

انه فى الامكان أن نجعل مقياس الايجاز كما جعله الدكتور دراز فى كتابه « النبأ العظيم » من أنه : « المقدار الذى يؤدى فيه المعنى بأكمله بأصله وحيلته على حسب ما يدعو اليــه المقام من اجمال أو تفصيل • بلا اسراف ولا اجحاف ، هذا المقدار الذى من نقص عنه أو زاد عده البلغاء حائدا عن الجادة بمقدار ما نقص أو زاد ، هو الميزان الصحيح الذى لك أن تسمى طرفيه بحق تقصيرا أو تطويلا ولا مانع أن نسميه الايجاز » والايجاز بهذا المقياس هو الفضيلة البيانية والذى قد يكون اجمالا أو تفصيلا : « فالكلام الطويل ان حوى كل جزء منه فائدة تمس اليها الحاجة فى الموضح ، ولا يسهل أداء تلك الفائدة بأقل منه كان هو الايجاز المطلوب ، وان أمكن أداء الأغراض فيه كاملة بحذف شىء منه ، أو بعبارة أقصر منه كان هو حشوا أو تطويلا معيبا ، والكلام القصير ان وفى بمقاصده الأصلية والتكميلية المناسبة للحال كان هو التوسط المطلوب ، وكان ايجازا والا كان بترا أو تقصيرا معيبا » •

ولو اعتبرنا هذا المقياس لم تكن الآية الكريمة : « **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » لم تكن هذه الآية اطنابا لأن كل كلمة فيها قد قصدت فى وضعها المناسب ، وهى أوجز كلام اذا قصد التفصيل الذى أراده القرآن فى هذا المقام ، وبهذا المقياس أيضا تكون

الآية الكريمة « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** » •

أوجز كلام فى باب الاجمال المقصود ، وبذلك الاعتبار يكون القرآن كله ايجازا ••

ان البحث فى البلاغة على أساس من المنهج الجديد بترسم بيان القرآن سيدعونا حتما الى البحث فى الاعجاز وفنونه ، وفنون الاعجاز وأبوابه شتى ، ولو تتبعنا مناط الاعجاز فى بيان القرآن لرأينا وجوها عدة وصورا جمة •

* * *

فمن حيث النظم الفريد الملتئم المحبوك نرى صورة عجيبة تعلو فوق آفاق البلغاء ، وتسمو على مناط فنهم ، ومن حيث الموسيقى نرى فنانيها يتأثرون بالقرآن • ومن حيث التصوير نرى فنا عجبا يسحر اللب ويسيطر على منازع النفس وأهواء القلوب • هذا بالاضافة الى ما فى قصصه من فن باهر ، وما فى اتساق معانيه وائتلاف أغراضه — فى السورة الواحدة — من نظام مدهش رائع يسمو على قدرة البلغاء ويعلوا على آفاقهم ، فالسورة الواحدة وحدة ونظام مؤتلف مهما كان فيها من كثرة تصريف الحديث وتلوين الخطاب سواء فى ذلك الطويلة والقصيرة كأن السورة فى ائتلافها وتناسق أوضاعها بناء هندسى قد أحكم فنه وزاد اتقانه حتى صار كلا لا يتجزأ ، اذ ليس هناك فجوات أو ارتجال فى التنقل بين المعانى والأغراض •• فالآية اللاحقة تشد بعروة السابقة برباط محكم لا انفصال فيه ولا انفصام ، والسورة كلها بناء حى متماسك •

ويبهرك هذا اذا علمت أن نزول الآيات فى كثير من السور جاءت منجمة مفرقة على حسب الحوادث وظروف التنزيل ، فأى أحكام جعل من

السورة التى نجمت آياتها ــ لدواع كثيرة من حوادث الوحى ــ بناء حيا متماسكا يشد بعضه بعضا ويأخذ بعضه بعجز بعض ؟

ان الاعجاز فى نظم الآية الواحدة وتناسق وحداتها هو بعينه فى تناسق الآيات جملة فى سورة واحـــدة ، **« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيـــم خبير »** ، وصـــدق الله العظيم الذى أنزله : **« قرآنا عربيا غير ذى عوج »** .

ترى : لمـــاذا جاء بهذه الصبغة وعلى تلك الطريقة ؟ ألست معى فى أن ذلك كله دليل قاطع على الاعجاز ، ولمـــا كان الاعجاز ذا فنون عدة فقد برزت لنا منها الوحدة الفنية لتدلنا على هذا الترتيب العجيب فى سور القرآن ، هذا الترتيب الذى انتظمته الوحدة الفنية من أقصاه الى أقصاه انتظاما لا داعى لانكاره ، أو الغض من قيمته ، وسنختار هنا سورة البقرة لنضرب منها المثل ويكون بها الدليل .

سورة البقرة هى أطول سور القرآن الكريم وقد نزلت منجمة لدواعى الظروف وأسباب المناسبات ، وكان ذلك فى تسع سنين ، ثم هى قد حوت الكثير من المعانى والأغراض ، ومع هذا كله ... فانه يثبت لها ما يثبت لجميع القرآن من وحدة فنية ربطت بعضه ببعض وجعلته بنـــاء لا خلل فيه ولا اضطراب ، وكثير من ســـور القرآن قد نجمت أيضـــا ــ كسورة البقرة ــ فجمعت آياتهـــا المكى والمدنى بل اتفق أحيانا أن بعض الآيات كانت تنزل فى مناسباتها ، وتوضع فى ترتيب متأخر من السورة بعد آية تتلوها فى النزول أو تتأخر قليلا ، ولكنها توضع فى ترتيب متقدم من السورة نفسها بل كانت بعض السور لم يكتمل نزول آياتها ، ثم تنزل آية أخرى فلا توضع فى السورة التى لم يكتمل نزول آياتها بل توضع فى سورة أخرى وفى مكانها المناسب فى

أول السورة أو آخرها • وهنا يجب أن ننبه الى مسألة جديرة بالاعتبار تلكم هى التوقيفية فى ترتيب الآية اذ لا مجال للرأى فى هذا الترتيب •

ومن هنا ولمـا بسطنا فى طريقة ترتيب الآى فى النزول ينفسح أمامنا حديث الاعجاز ، ويتسع فى وحدة السور الفنية وتنـاسق آيها تناسـقا مطردا مما يصعب معه ملاحظة أى اختـلاف فى الآيات من ناحية تنجيمها ونزولها على دفعات ، ولو أنك تفحصت السور بعد هذا الاستواء الكامل فى ترتيب الآى لم يدر بخلدك الا أنها بناء واحـد مرصوص • قد شد بعضه الى بعض لأن بعضه يريد بعضه فى تماسك واحـكام •

وحتى لو تصورت أن سور القرآن ـ بعد ما عرفت من ظروف نزولها قد نزلت جملة واحدة لمكان التناسق والاضطرار والاحكام فى سياق آياتها ـ لو تصورت هذا لم تكن واهما ولم يكن ظنك مخدوعا وانما هى أس الحقيقة وعين الصواب •

نعم : كنت مصيبا لأنك قد بنيت تصورك على أساس متين من ملاحظة التناسق الكامل فى سياق الآيات فى السورة الواحدة •

وليس سهلا على النظر العابر أن يستجلى هذه الحقيقة ويدرك مدى التناسق التام فى سياق الآيات بل ان استجلاءها يكلف دقة فى النظر وامعانا فى الفكر • وكم سمعنا من بعض أصحاب النظر السطحى أن بعض الآيات لا تلتئم والتى قبلها ، أو ما يتلوها فى سورة واحدة ولو أن هؤلاء دققوا وأمعنوا وبحثوا وفتشوا لتجلت لهم هذه الحقيقة فى جوهرها الكامل وأصالتها الحقة •

ونحن من جانبنا لا نرى لهؤلاء السـطحيين مثلا سوى قول القائل : ـ

وليس يصح فى الأذهان شيء

اذا احتــاج النهار الى دليــل

فاذا راعينا الرحمة بالبعض منهم وهم الخفافيش الذين لا يرون فى وضح النهار فهل لنا أن نهمس فى آذانهم بما نراه ؟ ربما ..

ان العجيب فى أمر هذه الوحدة الفنية فى القرآن الكريم أنها تبدو فى أشكال شتى ومظاهر متعددة وقد درسنا عدة ســور من الطوال والقصار فوجدناها ــ فى هذا وذاك ــ تبدأ باجمال للمقاصد والأغراض ثم تفصل هذه المقاصد وتلك الأغراض ، وأخيرا تختم آياتها باجمال ما فصلت من معان وأغراض .

كما لاحظنا أن الوحدة الفنية تظهر فى اتباع أسلوب موحد يسود جو السورة ملتزمة موسيقى تعبيرية معينة تتناسب وجو السورة العام كما يتناسب الأسلوب الواحد المختار فيها ليناسب المعانى والأغراض هذا فضــلا عن ترابط المعانى المتسلسلة فى الســياق ترابطا شديدا لا انفصال فيه ولا انفصام ، وقد لاحظ الباحثون هذا التناسق العجيب فى ســياق آيات القرآن الكريم وخاضــوا فيه بأبحاثهم مقــدرين ومعجبين .

يقول الرافعى فى كتابه « اعجاز القرآن » من أعجب ما اتفق فى هذا القــرآن من وجوه اعجازه أن معانيه تجرى فى مناسبة الوضع واحكام النظر مجرى ألفاظه على ما بيناه من أمرها ، ولا يعدم المفكر وجها صحيحا من القول فى ربط كل كلمة بأختها ، وكل آية بضريبتها ، وكل سورة بما اليها ، وهو علم عجيب أكثر منه الامام فخر الرازى فى تفسيره وقال فيه : « ان أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط . ويقال : ان أول من أظهر هذا العلم هو الشيخ « أبو بكر النيسابورى »

وكان غزير المـادة فى الشريعة والأدب فكان يقول اذا قرىء عليه : لم جعلت هذه الآية الى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة الى جانب هذه السورة ؟ وكان يزرى على علماء بغداد لأنهم لا يعلمون هذه المناسبات » .

وقد قال ابن العربى فى بعض كتبه ما يؤيد هـذا الكلام الذى يقوله الرافعى وهو ما ينبغى بيانه وتوضيحه يقول الرجل :

« ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة منسقة المعانى منتظمة المبانى علم عظيم لم يتعرض له الا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له جملة ختمناه وجعلناه بيننا وبين الله » .

وللامام برهان الدين بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ كتاب سماه : « نظم الدرر فى تناسب الآى والسور » وكان جل مقصوده من هذا الكتاب . بيان ارتباط الجمل بعضها ببعض .

وللامام السيوطى مباحث عـديدة ومتنوعة فى هذا الباب وقد تناوله أيضا الاستاذ الامام محمد عبده سقى الله أجـداثهم جميعا وطيب ثراهم .

ومما يؤيد سمو الناحية الفنية أيضا فى هذا الكتاب المعجز ما قاله الدكتور زغلول سلام فى كتابه « أثر القرآن فى تطور النقد العربى » « من أهم ما يسترعى النظر فى منهج الباقلانى لدراسة اعجاز القرآن : اعتبار الوحدة الفنية التى تتضمن موضوعا واحـدا ويظهر هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها يتدرج فيها ليظهر ما تنطوى عليه من خصائص فى النظم لا تقتصر على مجرد روعة استعارة أو بلاغة تشبيه يرد فى آية ، أو عبارة قصيرة ، وانما اعجازه منصب عليه جملة لا تفصيلا

فالسورة — لا الآية — أصغر وحدة فنية موضوعية فى القرآن يمكن الحكم عليها باعجاز النظم أو البلاغة وروعة البيان » •

ثم يقول الدكتور سلام فى موضع آخر :

« يحلل الباقلانى سورة من القرآن باعتبار السورة وحدة فنية موضوعية فيتناولها تناولا طريفا — لعله لم يسبق اليه — فيحللها من ناحية النظم متعرضا لألفاظها ومعانيها وتآلف الألفاظ والمعانى فى نظم رائع ، وصلة الفاصلة بالنظم ويقوم بتقريب معانى السورة وشرح مواطن الجمال فيها » •

ثم يقول : « يتناول الباقلانى سورة النمل جملة وقد اعتاد غيره الوقوف عند الآيات المفردة : يفسر غريبها ويبين ما فيها من جمال اللفظ والمعنى فى حدود البديع والبلاغة ، ويرسم المنهج قبل بدء رحلته فيقول : ثم اقصد الى سورة تامة فتعرف فى معرفة قصصها وراع ما فيها من براهينها وقصصها ، وتأمل السورة التى يذكر فيها النمل وانظر فى كلمة كلمة وفصل فصل » •

هذا وقد تبدو أهمية البحث فى وحدة القرآن الفنية اذا عرفنا أن كثيرا من الخلط والتلبيس قد وقع فيه بعض المفسرين نتيجة هذا التناول « المجزأ » الذى أخذوا أنفسهم به مقلدين من سبقهم فى دراسة آيات القرآن الكريم •

ولكنا نقول : ان المنطق الصائب هو مراعاة النظرة الكلية للموضوع بمعنى أن ينظر الى آى الكتاب باعتبارها حلقة فى سلسلة تشمل السورة بأسرها ، أو بتعبير آخر لابد أن يلاحظ السياق الذى ترتبط به الآيات •

نقول هذا ونلح عليه لأنه محور الموضوع كله ففهم الآية بعيدا عن سياقها قد أوقع فى لبس بل فى تحيف ظالم وخذ لك مثلا لمـا نقول :

قال تعالى : « **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم** » وقد قال بعض الباحثين المحدثين ومن يكرهون القرآن على النظريات العلمية فى تفسيره لهذه الآية ان الدخان المبين ما ظهر فى هذا العصر من الغازات السامة ، والغازات الخانقة التى أنتجها العقل البشرى كوسيلة من وسائل التخريب والتدمير .

أرأيت هذه الجرأة الجاهلة فى تجنيها على القرآن الكريم ؟

انظر معى لترى أن هذا التفسير قد أغفل السياق الذى يكشف عن معنى الآية كشفا صحيحا دقيقا . ان السياق يقول بعد تلك الآية . « **ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** » .

السياق كما ترى بمثابة قبس يكشف عن وضع الآية وضعهـا الصحيح . فالآية تهديد لقريش الذين أعرضوا عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذبوا دعوته ورموه بالجنون ولمـا آلموه وضيقوا خناقهم قال داعيا عليهم : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » وأجيب الرسول لقوله فأصيبوا بالقحط والجوع ، فكان الرجل ينظر الى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان لمـا أصيب به من غشية الجوع والجهد . فالتوعد فى الآية بيوم شديد على الكافرين قد وقع فعلا لهم . ومراعاة السياق وجو الآية يرشد الى هذا المعنى فيجذبنا نحوه بل ويدلنا عليه .

« روى أن رجلا جاء الى ابن مسعود وقال له تركت بالمسجد رجلا يفسر القرآن برأيه ، يفسر قوله تعـالى : « **فارتقب يوم تأتى**

السماء بدخان مبين » ان النـــاس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخــذ بأنفسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام فقال ابن مسعود : « من علم علما فليقل به ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم » •

انما كان هذا لأن قريشا استعصت على النبى – صلى الله عليه وسلم – فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجدب حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان • وانى قد ذكرت ذلك كله مع أن بحث هذه المسألة وأهميتها قد يخرج عن دائرة البحث البلاغى الذى نحن بصدده لأؤكد قيمة بحث سور القرآن من حيث الوحدة الفنية التى تشمل السورة كلها برباط واحد • وتبدو هذه الأهمية اذن من ناحيتين :

الناحية الأولى :

أنها سر من أسرار اعجاز القرآن خاصة بعد ما عرفنا من تفريقه على حسب الحوادث والملابسات المختلفة •

الناحية الثانية :

أن القرآن كتاب الهداية والتشريع يعوزنا فى اســتجلاء معناه واستبطان مراميه أن نراعى سياق آياته وارتباط بعضها ببعض •

الوحدة الفنية فى سورة غافر أو سورة المؤمنون :

اذا كان هناك من لا يزال يدين بأنه لا وحدة ولا ترابط بين الآيات فى سورة القرآن وأن التنقل ارتجالى لا أثر فيه لاتساق أو احكام – اذا كان هناك من يقول هذا فاننا لن نقول له : حسبك ما قلناه وقررناه وانما سنزيده بيانا وسنكفيه ايضاحا عله يرجع ويثوب فاليه الحديث :

ان القرآن الكريم هو آية الله المعجزة وحجته البـــاهرة وقــد كذب به الكافرون ، وكان تكذيبهم مشـــارا لقضية كبيرة وخطيرة فانه

كسائر آيات الله فى كونه لا ينبغى أن يكذب به أحد ، كما لا ينبغى أن يشك فى آيات الله الكونية انسان يلبى عقله ويصيخ لداعى تفكيره حتى ولو كان فطريا ، وعلى هذا فالكافرون بالقرآن لهم عقاب شديد كالكافرين بكل آيات فى الكون . هذه القضية قد فصلت فى السورة بعد اجمال ثم أجملت بعد تفصيل متخذة أسلوب المقابلة الذى يزيد أمر البيان وضوحا واليك البيان :

« **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** » آية باهرة ومعجزة ككل آيات الله فى الكون ، ولا يجادل فيها مؤمن منصف لنفسه « **ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا** » ، وقد سبق الكفار بالقرآن كفار آخرون بمثل القرآن من الآيات المنزلة على الرسول وهموا بالرسل ليقتلوهم « **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم** » وعوقب الآخرون كما عوقب الأولون على التكذيب بآيات الله « **فأخذتهم فكيف كان عقاب** » . « **وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** » أما المؤمنون بآيات الله وبالقرآن فهم فى رحمة الله تدعو لهم الملائكة بالرحمة وبالرضوان فى جنة عرضها السموات والأرض ، وتدعوا لهم بغفران الذنوب . والملائكة يشتركون معهم فى هذا الايمان الصادق بالله رب العالمين « **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم** » والملائكة الذين يستغفرون للمؤمنين بالقرآن ينادون بالمقت للكافرين بهذا القرآن لأنهم اذ يكفرون به يمقتون أنفسهم . وغضب الله عليهم أشد وأعتى فهم يطلبون الخروج من العذاب فلا يخرجون .

« **ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون** »[1] وان الله يطلع الناس على آياته فى الكون كما يطلعهم على معجزة القرآن ولا يهتدى بها الا المؤمنون

---

(١) الآيات (١٠ — ١٢) .

« **هو الذى يريكم آياته** » • وآيات الله انما تنزل بأمر الله على من يشاء من عباده ، ينزلها رفيع الدرجات ذو العرش فلا يطمع فيها طامع ومهمة الآيات أن تنذر الناس بيوم يتلاقون فيه ، ويحشرون الى الله وينفرد الله بالملك وحده فيحاسب الناس فى هذا اليوم على ما استقبلوا به آياته فى الدنيا فلا يضيع شىء مما قدمه الانسان لأن الله « **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور • والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء ان الله هو السميع البصير** » [1]• والى هنا ينتهى الحديث مجملا ثم يستأنف التفصيل • كذبت الأمم من قبل بآيات الله فأخذوا جزاء تكذيبهم ، وهذا موسى ومن أرسل اليهم مثل يؤيد ذلك ، أرسل الى فرعون فكذبه قومه ولم يؤمنوا بآياته ومعجزاته ، وقالوا : ساحر كذاب وقابلوا آياته بالطغيان ، « **وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه** » والتجأ موسى من طغيان فرعون الى الله ، وظاهره ونصره رجل مؤمن بالله وآياته ، وتوجه هذا المؤمن الى قومه بالنصح قال لهم : اتبعون أهدكم سبيل الرشاد أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب : أخاف عليكم يوم التناد ، وذكرهم بقصة موسى ومن فرطوا كذلك فى آياته البينات ، وقال لهم : لا تجادلوا فى آيات الله فالذين يجادلون فى آيات الله بغير برهان عليهم غضبه ونقمته ولكن الضالين قد طبع على قلوبهم فهم لا يستجيبون لموسى الرسول فأولى ألا يستجيبوا لمؤمن آمن بآياته وصدق به وبالغ فرعون فى طغيانه قال : « **يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى** » « **يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد** »[2] « **مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار** » يا قوم لا تتركوا جانب الله ولا تسرفوا فالمسرفون هم أصحاب النار • وبعد أن يئس منهم فوض أمره الى الله « **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله** » ودفع فرعون المكذب بآيات الله فى العذاب

---

(١) الآيات (١٨ ـ ١٩) .
(٢) الآيات (٢١ ـ ٢٩) .

« **النـــار يعرضون عليها غدوا وعشيا** » ووقع التابعون كالمتبوعين • « **انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد** » ، وهنا نقطة بارزة للمقابلة الرائعة فى أسلوب القرآن الكريم • الكافرون يعذبون بتكذيبهم آيات ربهم يقولون لخزنة جهنم : « **ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب** » فتعرض عنهم الملائكة مبكتين : « **أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات** » لقـــد كذبتم بآيات الله على أيدى الرسل وهى دلائل صدق وشواهد عدل فادعوا الله أنتم أيهـــا الكافرون • فان دعاءكم مردود عليكم : « **فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال** » •

ولاحظ أنت فى صدر السورة قوله تعـــالى : « **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا** » ، أى بالقرآن وآياته : معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم •

وجهان متقابلان للمؤمنين بآيات الله شأنٌ مع الملائكة ، وللكافرين بها شأنٌ آخر • والنتيجة الحتمية للرسل وللمؤمنين بآيات ربهـــم : النصر فى الدنيا والآخرة على المكذبين فهؤلاء « **لا تنفعهم معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** » •

وختمت قصة موسى بآيتين فى اجمال : « **ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى اسرائيل الكتـــاب** » • ثم اقرأ هذا الســـياق المتسلسل المتماسك فى الآيات (٢١ ــ ٥٤) وطبيعى أن يكون بعد طمأنة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالنصر أن يصبر ولا ييأس لتكذيب المكذبين بالقرآن فوعد الله حق ، ولينصرف الرسول الى عبادة الله فما عليه من ضلالة الكفار ، فليس من شأن هؤلاء رجوعهم الى الحق لأنهم جاهلون مجادلون « **فاستعذ بالله انه هو السميع البصير** » •

والذين لا يؤمنون بالقرآن ، والذين يكذبون ما جرى على أيدى الرسل من آيات لا تنفعهم الدلائل فى السماء ، والأرض ولا فى أنفسهم فهم يمارون فى الساعة والبعث : « **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** » والساعة آتية لا ريب فيها ، والذين لا يؤمنون ويستكبرون عن عبادة الله سيدخلون جهنم داخرين •

وآية خلق السموات والأرض كافية للنظر والايمان مع دلائل الرسل ، ولكن لايستوى الأعمى والبصير كما لايستوى المؤمن والمسىء •
وآية أخرى فى كون الله الفسيح الرحيب « **جعل الليل لتسكنوا فيه والنهــار مبصرا** » وثالثة من الآيات موجهة للنظر والتــأمل : « **جعل لكم الأرض قرارا والسماء بنــاء** » • ورابعة : « **وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات** » •

وكيف ينصرف النــاس عن عبادة الله وقد جاءتهم البينات على أيدى الرسل ، وآيات الله الدالة عليه تملأ الآفاق ؟ خلقكم من تراب ثم من نطفة • يحيى ويميت •

أفلا تكفى هذه الآيات وغيرها لصرف المجادلين فيها واعادتهم الى حظيرة الحق ؟ « **ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون** » « **ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا** » ، « **الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون** » سوف يعلم المكذبون مصائرهم غدا فى الحميم ، والنــار المسجورة ، لا ينفعهم شركهم لأن بطــرهم وغرورهم هو الذى زين لهم ما ساروا فيه •• « **ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون** » •

فلتصبر يا محمــد مرة ثانية على المكذبين فوعد الله حق ، فان رأيت عذابهم الذى توعدناهم فى الدنيا كان بها ، وان كانت الأخرى ، وتوفيت قبل ذلك ، فانهم الينا لراجعون ، فمصائرهم موكولة الينا •

وقد أرسل الله الرسل مظاهرين بالآيات من عند الله لا يأتونها من عند أنفسهم ، فاذا كذب بها الكافرون جاء أمر الله وخسر المبطلون •
وتنتهى السورة بعد هذا كله •• بعد أن تشير لك فى صراحة ووضوح على ما ذخرت به جميع آياتها من تناسق والتئام ••أجزاء قد ضم بعضها الى بعض فجمعها جو عام من السياق لفها وأحاط بها فكانت السورة ، وكانت الوحدة الفنية فيها •

ولا غرو فجميع سور القرآن الكريم نلمح فيها هذه السمة الفنية التى تلم شمل الموضوع ، وتجمعه من أقطاره ، فاذا به وقد وقع بين يديك فى نظام والتئام ، لا ظل لفجوة ، ولا مكان لثغرة ، وانما هو الترابط وانما هو التسلسل والاتحاد أو قل أخيرا : انها الوحدة الفنية فى سور القرآن • ولن أقف ببلاغة القرآن عند هـذا الحد الذى بينته سابقا بل سأتحدث بعد ذلك عن معنى القرآن وعن التصوير البيانى فى القرآن الكريم ، وأهمهذه الصور حسبما توقفناعليه بلاغتناهو التصوير بالتشبيه والتصوير بالاستعارة ، والتصوير بالكناية وغيرها مبينا مدى وجود ذلك فى القرآن والسر فى خلود كل صورة بيانية ثم اتبع ذلك كله بالشواهد التى يتضح منها ذلك ، وليس ذلك على سبيل الحصر وانما على سبيل الاستشهاد ، ثم أعقب ذلك بالكلام على نظم القرآن متوخيا الناحية التطبيقية لأنها هى التى توقفنا على بلاغة نظمه •

الفصل الثالث

معانى القرآن

تكلمت فيما سبق عن الألفاظ واختيارها ، وحسن وقعها ، وائتلافها مع جاراتها ، وانسجامها مع معانيها ، وتمكنها فى مكانها بحيث لا يؤدى غيرها ما أدته من المعنى ، وصلة ذلك باعجاز القرآن الكريم ، كما أبنت الحديث فى فواتح السور القرآنية معجمة ومعربة لأنها من الألفاظ والوحدة الفنية فى السورة وحدها وفى القرآن كله •

وسوف أتكلم هنا عن بعض المعانى التى تضمنها القرآن ، ولا أقصد الاستيعاب لأن هذا غير مستطاع ، فالقرآن بحر لا ساحل له ، ولم يترك شيئا الا أشار اليه ، أو تحدث عنه « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** » ولأن القرآن دستور الحياة ، وميثاق العمل فى الدنيا ، فذكره للمعانى والأفكار ان لم يكن تصريحا كان تلميحا •

فقد صور القرآن رب العالمين المثل الأعلى لجمعه صفات الكمال • فهو الواحد القادر القوى الشديد السميع البصير العزيز الحكيم الغفور الرحيم الغنى الحميد : عالم الغيب والشهادة يسبح له ما فى السموات والأرض لأنه الأول والآخر ، الصمد الذى لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد •

كما أبرز القرآن نعم الله وفضله على عباده ، فأنعم عليهم بالرزق والهدوء والسكينة ، وخلق لهم الشمس والقمر وسخرهما لهم ، وجعل الأرض ذلولا يمشون فى مناكبها ويأكلون من رزقها ، وخلق لهم الليل للدعة والراحة ، والنهار للسعى والعمل « **ان فى خلق السموات والأرض**

واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » وغير ذلك من المعانى التى تحدث عنها القرآن من هذه الناحية ، وما كان احتفاء القرآن بذكر هذه المعانى الا لتوجيه الأنظار ، والتدليل على أن الخالق الذى له تلك الصفات — وهذا شأنه — جدير بالعبادة والتقديس ، ولاسيما اذا كانت هـذه النعم ليست فى طاقة البشر ، فليس اذن له شريك ، وليس له ولد حتى أكد ذلك القرآن باثبات موقف الطبيعة الساخطة من نسبة الولد الى خالق البشر ، حتى تكاد لشدة غضبها أن تنفجر غيظا ، وتنشق ثورة ، وتخر الراسيات لهول هذا الافتراء ، وضخامة تلك الفرية فصور القرآن هذا المعنى تصويرا عجيبا بقوله : **« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً ادا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا »** .

وعلى هذا المنوال وذلك التصوير رد على من زعم ألوهية عيسى — عليه السلام — حتى جعله هو نفسه يتبرأ من هذا بقوله : **« واذ قال الله : يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته »** .

وكثيرا ما تعرض القرآن لهذه الدعوة وقوضها من أساسها ، وهاجم بكل قوة الاشراك بالله ، هاجم العقـل والوجدان ببلاغته فى نقاش المشركين ليتـدبروا ويصلوا بأنفسهم الى الحق ، ويلزمهم الحجة ، ويقودهم الى الصواب بترتيب معنوى ، فيسألهم عمن خلقهم ورزقهم ، وعمن يملك سمعهم وأبصارهم ، وعمن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر أمر هذا العالم ، ومن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يهدى الى الحق ؟ وبهذه الطريقة ، وبذلك الترتيب الفكرى يجعل

المشركين يعترفون بالحقيقة ويقرون بأن ذلك انما هو من أفعال الله اذن فلا قيمة لهــؤلاء الشركاء « **قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون : الله فقل أفلا تتقون • فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون** » ؟ !

وكثيرا ما تعجب القــرآن من شركهم وعبــادتهم مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويبعث فيهم الخوف من سوء المصير : « **انما أمره اذا أراد شــيئا أن يقول له كن فيكون** » فذلك تصوير رائع لقدرة الله الباهرة التى لا يعجزها شىء ، والتى يستجيب لأمرها كل شىء • وبذلك التصوير وبهذه المعانى أثبت الألوهية والوحدانية لله سبحانه •

ولم ينس القــرآن علم الله ما دام قد أثبت قدرته ووحدانيته فأورد كثيرا من الآيات التى تدل على علمه ، وأنه لا تخفى عليــه فى الأرض ولا فى السماء خافية ، كل ذلك لدعوة الانســان الى العمــل والتفكير فيه كى لا يغضبه لأنه أقرب اليه من حبل الوريد ، ولأنه « **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** » •

وبعد أن أثبت القرآن لله سبحانه تلك الصفات التى يتصف بها اله البشر كان لابد من رسوليبلغ أوامره ويحمل رسالته ، فرسم القرآن فى معانيه صورة لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ محببة للنفوس فيها رقة ولين ، وفيها خلق مثالى ، فيها قلب رحيم ، ونفس وداعة مطمئنة « **وانك لعلى خلق عظيم** » « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** » •

لأنه لم يكن الا مبلغا ومرشدا ، وهاديا الى الله باذنه وسراجا منيرا « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » بل أمره ربه بجعل الأمر شورى

بينهم ، وخفض الجناح حتى لا ينفروا منه ويبتعدوا عنه ، ويعف عنهم ويستغفر لهم « **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر** » ويقول : « **واخفض جناحك للمؤمنين ، وقل انى أنا النذير المبين** » .

ومع ما أسبغه الله على رسوله من الصفات لم يسلبه البشرية حتى لا يفر منه الناس ، فلو كان ملكا أو جنا ما ألفه الناس ، ونفروا منه « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد** » وهو لهذا لا يملك لنفسه أمرا ، ولا يدرى من الغيب شيئا « **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون** » .

كما وصفه بجانب ذلك بالأمية حتى لا يتهموه باتهامات هو منها براء ، وعظم أمره وصلى الله عليه وأمر الملائكة والناس بالصلاة عليه ، وحث على مبايعته وما تخلى عنه ، ولذلك أوجب حرمته وعلو منزلته الاجتماعية ، واحترامه ومناقشة من أنكر رسالته وأنذر المكذبين له المستهزئين به .

هل القرآن بعد أن بين وحدانية الله ووجوب عبادته ، وصفات محمد — صلى الله عليه وسلم — وصدق رسالته نسى الناس — حاشا لله — فقد دارت كثير من معانيه حول هداية الناس الى الحق وطريق الصواب وتبشير المهتدى ، وانذار الضال « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما** » فكان القرآن شفاء ودواء لعلل النفوس « **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** » وكان نورا يخرج الناس من الظلمات الى النور لأنه من عند الله « **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** » ولذلك عجزت الجن والانس عن أن يأتى بمثله معنى ونظما ، أو حتى بمثل أقصر سورة منه ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . كما بينت معانى القرآن أنه محفوظ لا يزيد

فيه أحد أو ينقص ، بل توعد وهدد وأنذر بالجزاء الأوفى لمن أحدث ذلك « **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين** » •

وما كان ذلك الا لأن محمدا عليه السلام ــ رسول مبلغ ما عهد به اليه فى أمانة وصدق ، والمتأمل فى القرآن يحس احساسا كاملا أن معانيه متكاملة فى منهج متــكامل يربط بين الأساس الاعتقــادى ، والنظام الأخلاقى والاجتماعى • وبينت معانى القرآن أن الأساس الاعتقادى يقوم على توحيد الله ، وافراده بالعبادة ، والايمان بالغيب الذى يجاوز نطاق الحس ، والايمان بيوم آخر يجد الناس فيه جزاء أعمالهم « **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » « **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** » وسماه القرآن مرة باليوم ومرة بالآخرة عند مقابلته للدنيا « **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة** » وسماه مرة ثالثة بيوم القيامة ليثير فى النفس هذه الحركة المائجة المضطربة التى ينبعث فيها الأموات من أجداثهم كالجراد المنتشر أو المبثــوث ، وسمى بيوم البعث لأنه يوم الحياة بعد الموت ، وسمى بالساعة ليلبسه عنصر المباغتة والمفاجأة ، وبالحاقة لتحقيق وقوعه ، وبالقارعة لشدة هول ما فيه ، وبيوم الآزفة لشدة قربه ومفاجأته •

كما حذر القرآن كثيرا من عــدم الايمان به ودلل بأدلة واضحة وبراهين ساطعة لأنه آت لا محالة ، ولا فرار منه ، وقربه الى نفوس الناس بتوجيه أنظارهم الى الأرض الميتة ينزل عليها المــاء فتنبعث فيها الحياة وتنبت من كل زوج بهيج •

وحفل القرآن بكثير من صور هذا اليوم ، ففيه تميد الأرض تحت الأقدام ، وتنشق مخرجة أثقالها ، وقال الانسان : مالها يومئذ تحدث أخبارها ، وتكون فيه الجبال كالعهن المنفوش وتنسف نسفا ، وتصبح

مستوية لاعوج فيها ولا أمتا ، وتنفجر البحار وتتبعثر القبور ، وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات تطوى وتمور ، ويلف الكون ظلام دامس ، والكواكب تنتثر والشمس تمحى ، ويخرج الناس فى هذه الظلمة سراعا وفرارا متهافتين كما يتهافت الفراش المبثوث .

ولذلك كان اهتمام القرآن بعبادة الله وتوحيده لكونه منقذا للانسان من الولاء المشتت ، ومن سلطان الخلق أجمعين **« وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »** **« فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين »** ومنجيه من هول هذا اليوم لأن الله وحده هو الذى لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، وهو الذى وحده يعلم وهم لا يعلمون ، فكانت الخطوة الأولى التى اهتم بها المنهج والفكر فى القرآن غرس عقيدة الايمان بالله وتوحيده ، لأنه بقدر استقرار العقيدة فى النفس يكون انطلاقها الى سائر الفضائل الخلقية ، ويكون استعدادها لاقامة سائر أحكام الاسلام ، ولهذا لم يكن غريبا أن يستمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة عشر عاما فى مكة يعلم الناس التوحيد دون أن تنزل آية واحدة من آيات التشريع حتى يستخلص مشاعر النفس وملكات العقل ومحركات الجوارح فتسلم كلها لله .

ولكن هل معانى القرآن وقفت عند العبادة والتوحيد ؟ لا ، لم تقف المعانى فى القرآن عند هذا الحد . فاهتم بالفرد والجماعة والمعاملات والعلوم بمعنى أنه يشتمل على رءوس المواد العلمية ، أما الأشياء التفصيلية التى هى من خصائص الانسان فلا علاقة لها بالقرآن ، ولا يصح ربط معانيه بالعلم لأن العلم يتجدد ويتطور ، وتطوره وتجدده يثبت اعجاز القرآن ، ولنا فى علم الأجنة خير مثال على ذلك ، فالعلم الحديث مهما تقدم لا يصل الى ما وصل

اليه القرآن فى هذا الموضوع وكل ما فى الأمر أنه كلما تقدم أثبت صحة القرآن واعجازه ٠

أما المعاملات ففيه كثير من المعـانى التى تتصل بالبيع والشراء والدين والربح والمنافسة ففيه الاشتراكية السليمة ، فيه المساواة ، فيه حسن المعاملة للناس ، ونحن اذا عملنا بما فيه من هذه المعانى كلها نكون قد وصلنا الى قمة الاشتراكية الحقة ٠ فيه النظرة الى الانسان فردا وجماعة التى ترتكز على طريقة التعامل بالقيم الاخلاقية ، علما بأنه ليس ملاكا نورانيا متحررا من ضغط الحاجات المـادية ، ودفعـات القوى الحسية ، كما أنه ليس حيوانا خاضعا للبيئة محكوما بمؤثراتها وانما هو مزيج من هذين العنصرين ٠ فيه عناصر قوة من روح الله هى التى تفسر مطالبته بالنزوع والتصعيد « **فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له سـاجدين** » « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة** » وقوله : « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان** » وهذه العناصر هى التى بوجودها صح تكليف الانسان وحده من بين المخلوقات وبجوار هذه العناصر عناصر ضعف ونقص وقصور ، ولذلك رأى الاسلام فى منهجه ، والقرآن فى معانيه الاقتصار على طبيعة الانسان « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » « **لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها** » ٠

كما أن القرآن أراد أن يفهم الناس أن الايمان ليس وقفا على العبادة والتهالك فيها ، والوقوف عليها وعلى الحياة الخشنة ، والبعد عن زينة الحيـاة وطيباتها ولذائذها ، بل بين القرآن أن الايمان فيه ايجابية والتقاء مع الحياة ، فلم يسرق الانسان من الدنيا ، ولم تسرق الدنيا منه ، ولم يضعه مع قواها فى معركة خاسرة ، فالدنيا هى دنيـا الانسان ، والحياة حياته ، ولم يحرم القرآن التمتع بهـا والزهد فيها « **خلق لكم ما فى الأرض جميعا** » « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة**

ولا تنس نصيبك من الدنيا » فكانت اساءة كثير من الناس لأنفسهم ولقرآنهم حينما رأوا أن الانسان فى دنياه قاصر على العبادة المحضة التى تتضمنها أركان الاســـلام والوقوف من ضروب النشاط الحيوى للفرد والمجتمع موقفا معاديا على أساس خروجها من نطاق العبادة واعتبارها لعبا ولهوا .

فالقرآن فى معانيه يبين أن العبادة فوق الأركان والشعائر ، لأنها تشمل كل عمل ينفع الناس ويبتغى فيه الخير ووجه الله .

فقد روى أن الصحابة رأوا فى مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شابا قويا يسعى فى نشاط فقالوا : لو كان ذلك فى سبيل الله ، فصحح لهم الرسول مفهوم العمل فى سبيل الله قائلا : ان كان خرج يسعى على أولاد صغار فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وان كان قد خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو فى سبيل الله .

فالقرآن دستور الاســـلام معانيه لا تجيز الرهبانية ، وتجعل الحياة الانسانية تتعانق فيها مشاعر التمتع بالحياة مع مشاعر العبادة التى تدرب النفس على صناعة الحياة ، وشعار القرآن العام فى هذه القضية الحيوية قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** » وقوله تعالى : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** » ويطلب من المؤمنين أن لا تصرفهم اقامة الشعائر عن الضرب فى الأرض واقامة شئون الحياة : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** » .

فمعـــانى القرآن حركة تدعو الانسان الى الدخول فى معـــركة فدائية من أجل ســـيادة القيم التى ينادى بها القرآن ، ويصلح بهـــا

المجتمع ، وهذه المعركة تحكمها موازين الدين وشرائعه • نزل القرآن والنـــاس تعتقد أن الايمان بالله يحتـــاج الى ايجاد معجزات حسية تسكت شكوكهم وتنهى على قدرتهم ، فجاء القرآن بمعانيه رافضـــا ذلك ، ومصرا على معالجة الاسلوب القديم بالتغيير ، وعاملا على تعليم الناس الايمان بعقولهم ، واحلال الدليل والبرهان محل المعجزة فكان بذلك القرآن ثورة فكرية يدل على ذلك ويؤيده الحوار الذى دار بين نبينا عليه السلام وبين الناس فى قوله تعالى : « **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه** » • فيرفض محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذا التحدى ويقرر لهم حقيقة الموقف فى تواضع وأمانة موضـــوعية « **قل : سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا** » كما أن المعجزة التى قد يعتبرها بعض الناس أنها من المعجزات الحسية وهى الاسراء لم تكن كذلك بشهادة القرآن نفسه وانما كانت كما تقول الآية : « **لنريه من آياتنا انه هو السمع البصير** » •

فمنهج القرآن فى سياق معانيه ، الاعتماد على العقل وعرض الأدلة عليه « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** » كما حارب القرآن بمعانيه نزعة التقليد والمتابعة العمياء لأنها تهدد منطق العلم وسلطان العقل ، ولذا أمر بالدعوة الى عقيدة الاسلامومبادئه عن طريق مخاطبة العقول فى محاورة جادة مخلصة يبغى فيها وجه الحق دون تعصب ولا هوى « وجادلهـــــم بالتى هى أحسن » وقولـــه : « **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن** » وقوله : « **قل فلله الحجة البالغة** » وقوله : « **وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه** » •

كما أن القــرآن بمعانيه يعمل على اثبات أن التكافل والعــدل الاجتماعى أساس العلاقات ، الاجتمــاعية ، وذلك بتأكد ذات الفرد واستقلاله بتقريره مبدأ الجزاء وهو بطبعه جزاء فردى « **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** » وقوله : « **ولا تكسب كل نفس الا عليها** » .

وتنتظم حياة الانسانية باعتبارهم كائنات حيــة تعيش فى أمم مختلفة ، ويعتبر القرآن لقاءهم وتعارفهم ، ونشوء العلاقات الاجتماعية بينهم أمرا واقعيا بحكم الضرورة « **وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » ولذلك كانت معانى القرآن مؤكدة ذات الفرد مراعية حقوقه مهيئة له المناخ الفكرى والحياة اللذين يعينان على انطلاق ملكاته ومواهبه ، ومراعية لصالح الجماعة ، والحفاظ عليها وتقديسها فى الرعاية على مصالح الفرد الواحــد ، وكثير من آيات القــرآن تحث على التكافل الاجتمــاعى « **وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » وقوله : « **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** » ثم هو يقرر بمعانيه أن الثروة لا يجوز أن تحتجز فى بعض الأيدى وانما توزع حسب الاحكام المالية فى التشريع الاسلامى التى منع تكديسها فى الأيدى القليلة حتى يندفع تيار الحياة الاجتماعيــة متحررا من الظلم والاستغلال ، فيستطيع أن يفعل الانسان شيئا فى معرفة القيم التى هى رسالة الانسان فى هــذا الكون ، ولذلك ينظم القرآن تحرك المال « **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** » وبعد أن بينت المعانى القرآنية واجب الفرد والجمــاعة فى الحياة حثت على الجهاد والتأمين الاجتماعى ، وان وصف الجهاد بأنه ثقيل على النفس لا تتقبله فى يسر وسهولة لأن غريزة حب الذات لها أثر قوى فى حياة الانسان وتوجيه أثقاله .

كما اهتم بالحديث عن الانسان الخائن لوطنه والخائن لأهله ، وولى الأمر فى بلده وحث على تطهير المجتمع منهم لأنهم آفة يبثون

الضعف فى الأمة ، ويبذرون بذور الوهن فى النفس ، ويقودون أممهم الى الانهيار والهزيمة كما يحث على محاربة المناوئين للدين الخارجين على العقيدة ، المـــارقين فى أممهم ، والقضاء عليهم ، وبذلك يعمل القرآن على ايجاد الانسان الكامل الذى يبذل جهده فى خدمة وطنه ، ويعمل على النهوض به فلا يعيش كلا على غيره ، ولا يغتر بسماع ثناء على ما لم يفعل ، أما هؤلاء الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا مفر لهم من العذاب فى الآخرة والانتكاس فى الدنيا ، فأوجب القرآن على الانسان أن يقول الحق ولا تصرفه عنه قرابة أو عداوة « **واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** » كما أوجب عليه أن يعتدل فى حياته الخاصة فلا يكون مسرفا فتضيع أسرته ويتعطل دولاب العمل فى أمته « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » « **ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا** » « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** » .

أراد القرآن الانسان المثالى الذى وصفه بقوله : « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . انها ساءت مستقرا ومقاما ... والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ... والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما** » .

هذا قليل من كثير من معانى القرآن[1] التى لم يترك منها ما يصلح الدين والدنيا ، ويصلح الفرد والمجتمع نراها كلها مؤتلفة بعضها مع بعض كالبنيان المرصوص فى نسيج وحده ، ولا يمكن أن تكون هذه المعانى من صنع البشر ، وانما هى من صنع خالقه ، ولذلك عجزوا عن الانتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** » وبذلك كانت معانى القرآن وتناسقها وائتلافها واحاطتها من اعجاز القرآن البيانى • ولمـا كان القرآن يعلم ما لحوادث التاريخ من الأثر فى النفوس أكثر منه فى معرض الأمر بطاعة الرسول بتوجيه أنظار الناس الى نتيجة تكذيب الأمم السابقة لرسلهم ، وكيف كانت عاقبتهم ، ولذلك سأتحدث عن القصص القـــرآنى مبينا مكانته من الاعجـــاز •

القصص القــرآنى

بعد أن بينت فيما مضى ألفاظ القـــرآن وفصاحتها ، ومعـــانيه وبلاغتها ، أتكلم عن قصصه كما وعدت القارىء قبل لأنه مما يزيد المسلم بصرا بدينه ، وثباتا على ايمانه ويقينه ، وثقته بوعد الله ووعيده من أن يستعرض تاريخ القرون التى سلفت ، وتشاهد آثار الملوك التى خلت لينشرح صدره بعاقبة المؤمنين ، وتتعظ نفسه بمن جعلهم الله سلفا ومثلا للآخرين ، وليعلم أن الانسان مهما عظم فهو عبد الله ، وان قوة البشر جميعا لا تحمى من الله شيئا ، وان ثقافات الدنيا بأكملها لا تغنى عن دين الله •

---

(١) من أراد الزيادة فليرجع الى ما كتبه القدماء كالزركشى والسيوطى وما كتبه المحدثون كالاستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز والاستاذ الدكتور أحمد بدوى والخطيب فى الفـــرقان ودروزة فى القرآن المجيـــد وجميع الذين اهتموا بدراسة القرآن ومعانيه وتصويره .

ولمثل هذا قال الله تعالى : « **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** » وقال أيضـــا : **يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون** » وقال : « **أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبـــة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض انه كان عليما قديرا** »وقال :« **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة واثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق** » وقوله : « **افلم يسيروا فىالأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** »وقال : « **الم تر كيف فعل ربك بعاد • ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد • وثمود الذين جابوا الصخر بالواد • وفرعون ذى الأوتاد • الذين طغوا فى البلاد • فأكثروا فيها الفساد • فصب عليهم ربك سوط عذاب • ان ربك لبالمرصاد** » •

ولا شك أن القصص القرآنى كفانا مؤنة السير فى هذه الأرض ، فنحن وان رضينا الاسلام دينا ، فقد آمنا بكل ما جاء فى القـــرآن الكريم ، ولذلك اذا ما درسنا قصص القرآن مؤمنين مؤملين الرشاد ، نكون قد حققنا بذلك الهدف المنشود ، وهو اعجاز القرآن البيانى، علما بأنه من الواجب أن نلفت الأنظار الى قصص القرآن كسر من أسرار هذا الاعجاز ، ونحن اذ نتجه لهذا السر العظيم بالبحث والدراسة • فانه لا يسعنا الا أن نقدر فى طمأنينة دينية حقيقة علمية بأن قصص القرآن كان سرا من أسرار هذا الكتاب الكريم ، وبجوار هذا كله فهو غاية من غاياته السامية ، ومقصد من مقاصده الشريفة ، فقد اشتمل على فصول عدة فى الأخلاق الفاضلة ، والمحاسن النبيلة مما يهذب

النفوس ويجمل الطباع ، وينشر الحكمة والآداب بين الناس أجمعين ، وأيضا يشـــتمل على طرق شتى فى التربية والتهذيب تســـاق مساق الحوار طورا ، وطورا مسلك الحكمة والاعتبار ، وتارة مذهب التخويف والانذار .

كل هذا قصه الله فى أسلوب بين ، وقول حكيم وافتتان عجيب كما هى طريقة القرآن فى كل ســـورة ليدل الناس على الخلق الفاضل والسلوك القويم ، ويدعوهم الى الايمان الصحيح ، ويرشدهم الى العلم النافع بأحسن بيان وأقوم سبيل ، وليكون مثلهم الأعلى فيما يسلكونه من طرق التعليم ، ونبراسهم المضىء فيما يصطنعون منوسائل الارشـــاد .

فلا عجب بعد هذا كله — أن نقول فى صراحة ويقين : أننا حيننتكلم عن القصص فى القرآن الكريم فاننا نفيد فى الوقت نفسه ، ونبين سرا من أسرار الاعجاز البيانى الذى ثبت لهذا القرآن الكريم ، غير مقتصر على زمن النبى — صلى الله عليه وسلم — بل وأثره مع الأيام مدى الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وان الدارس لقصص القرآن يلمح فكرة ذات ظاهرتين :

الأولى : ان هذا القصص بعض القرآن فيثبت لها ما يثبت لجميعه من اعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويرى المعجز فى وحدة فنية رائعة .

الثانية : فى كون هذا القصص سر اعجاز لاخبارهم عن أمم بادت وقرون خلت .

وقبل أن أتكلم عن القصص كصورة ، أعرض لمعنى القصة عند

كل من اللغويين والبلاغيين وعلماء التفسير ، ثم ننظر بعد ذلك فى ضوء أقوالهم بالنسبة للقصص القرآنى • هل تشفى العلة أم لا ؟

— ان علمـاء اللغة قد اكتفوا من الحديث عن القصـة بتحديدات مبهمة ، وتعريفات ناقصـة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، اذ أنهم اكتفوا بما يثيره لفظ القصة فى الذهن من معنى ، وذلك ليس بالغريب عليهم فيما نرى فشأن علماء اللغة أن يذكروا لنا معانى الألفـاظ أو ما تثيره الألفاظ فى الأذهان من صور ، وليس من شأنهم أن يذكروا الحدود الفنية ، والتعريفات العلمية ، وما يتبع ذلك من حديث تام شامل عندما تكون الألفاظ من المصطلحات العلمية أو الفنية •

والمعانى التى وقف عنـدها علماء اللغة عنـد حديثهم عن مادة « قصص » كثيرة ولعل أقربها الى ما نحن بصـدده من حديث أدبى ما رواه اللغويون عن الأزهرى ، وعن الليث يقول الأول : « القص : فعل القاص اذا قص القصص والقصة معروفة •

ويقول الثانى : القص اتباع الأثر ويقال : خرج فلان قصصا فى أثر فلان ، وقصا ، وذلك اذا اقتفى أثره ، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر ، وسوق الكلام سوقا [١] •

— أما المفسرون : فيخطون بالمسألة خطوة الى الامام ، ذلك لأنهم ينظرون الى المسألة باعتبارين ! اعتبار لغوى يعتمدون فيه على ذلك التحصيل اللغوى الذى صورنا منه طرفا • واعتبار دينى : ينظرون فيه من وجهه نظر خاصة ، وهى قصد القرآن الكريم من قصصه • وأهدافه التى ترمى اليها •

---

(١) اللسان والقاموس مادة قصص .

والامام الرازى — رحمه الله — يجمع بين الاعتبارين • ويقرب بين الاتجاهين ، وذلك عند تفسيره للآية الكريمة : « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين** » يقول — رحمه الله — : « المسألة الثانية : القصص اتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة المتابعة قال تعالى « **وقالت لأخته قصيه** » أى اتبعى أثره ، وقال تعالى : « **فارتدا على آثارهما قصصا** » أى اتباعا • وانما سميت الحكاية قصة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا شيئا •

والرازى اذ يذكر هذا انما يحاول التقريب بين المعنى اللغوى والاصطلاح الأدبى وذلك حين يربط بين الاثنين باستعماله لفظ الحكاية ، واطلاق لفظ القصة عليها •

ويقول أيضا عند تفسيره لقوله تعالى : « **ان هذا لهو القصص الحق** »والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى الى الدين ، ويرشد الى الحق ، ويأمر بطلب النجاة ، وهو قول يشرح معنى القصص شرحا دينيا بحتا كما ترى •

فاذا انتقلنا الى البلاغيين قديما فنعجب حين نراهم لم يلتفتوا الى القصة على أنها لون من ألوان الفنون والآداب فضلا عن الوقوف عندها لبحثها ودرسها وتقعيد قواعدها ، ومن هنا جاءت كتبهم خالية من أى حديث عن القصة حتى ذلك الحديث الذى يحددها ويعرف بها • وقد يقال : كيف تقول هذا وعلماء البلاغة قد درسوا مسائل التوسع واللزوم والتمثيل وكلها أبواب تعين على شرح وتفسير عنصر الحوار الفنى والأحداث وصلتها بالواقع أو بالخيال ؟ ! وأيضا اســتخراج التيارات الفكرية من جو القصة •

أقول هذا جميل وأنا لا أنكره ، ولكن ذلك كله لا ينهض دليلا على أنهم أحلو القصة مكانها المرموق بين الفنون •

أما القصة فى العصر الحديث فاننا نجد شأنا أى شأن لها وبخاصة القصة الفنية • وكيف يعتمد عليها فى التربية والتكوين ، فلا غرابة أن رأينا العناية بها فى مدارسنا ومعاهدنا من المدرسة الابتـدائية الى الكليات الجامعية ، بل أصبحنا نعتمد عليها كعنصر ضرورى من عناصر الأدب الرفيع له جمال ، وفيه متعة ، ويشغف به الصغار والكبار اذا أجيـد انشاؤه ، وأجيـدت وساطته ، وأجيد تلقينه وطفق الأدباء وأنصاف الأدباء يقرعون بابها ، وينزلون بساحتها فيؤلفون ويقصون ، وقد يقولون الحقيقة ، كما يسردون الخيال وهذا هو الفرق الجوهرى بين القصة الحرة والقصة القرآنية فالأولى افتعـال أمور والخيال يسكبها ، والثانية عرض أجزاء من واقع الحيـاة التى لاريب فيها ، وغالبا ما تخضع الروايات المؤلفة لعاطفة صاحبها وفهمه للأشخاص ، وادراكه للأشياء بل وفى حكمه على القضايا كلها — خاصة وعامة — ولذلك فهى أسلوب للتوجيه متأثر بألوان الرغبات ، فالبون شاسع بين شطحات الخيال فى القصص الحر ، وبين الحق الثـابت المستقر فى قصص القرآن بين قصة يبدو لمؤلفها أن يقتل البطل أو ينجيه حسبما يقربه من تصورات ، وبين تتبع لقوانين الله فى كونه وفى عباده • تلك القوانين التى تدور بين الناس على أساس من الحكم البالغة ، والقدر العادل والاحصاء الدقيق لأحوال البشر على اختلاف الليل والنهار •

وسيأتى لذلك زيادة بيان بعد العرض العـام لقصص القرآن وذلك حين نتناول أغراض القصص القرآنى بالحديث •

اشـتمل القرآن الكريم على وفرة غزيرة من القصص الواعى المحكم ، يدل على حقيقة الدين ، ويحدد تحديدا الطريقة الوحيـدة

لمرضاة رب العـــالمين ، فى الوقت الذى يشرح للناس طبـــائع الناس ووسائل علاجها ، وسنن الله فى عقابها أو معافاتها •

ولم يكن هـــذا القصص سردا مجردا لبعض الروايات القديمة يتسلى بها السامعون ، ثم يغفلون عن حكايتها أو يتعظون •• لا •• ان هذا القصص كان تاريخا لسيرة الدعوة الدينية فى الحكاية ، وكيف خطت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة ، وما هى العقبـــات التى اعترضتها ؟ وهل وقفت عنـــدها أو تغلبت عليها ؟ وما صنع الأنبيـــاء بازائها وكيف قبلت الأمم المدعوة رسالات الله ؟ ، أو صدت عنها ، بم انتهى الصراع بين الغى والرشد •

والحكمة المنشودة من وراء هذا القصص المترسل المكرر نقرؤها فى قوله تعالى : **« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »** •

فالقرآن كتاب الدعوة وتاريخها ، وفى تضاعيف السرد التاريخى لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحا ويستبين منهجها الذى تحدو البشرية اليه لا يختلف وان اختلفت العصـــور وكرت الدهور • وانك لتسمع اليهم واحدا بعد الآخر ــ فيما سجل القرآن من وصاياهم ونصائحهم وارشادهم لأممهم فنجد كلاما منسقا ، وهديا منســـجما صدر من مشكاة واحدة ، وانساق الى هدف واحد ، يمهد أوله لآخره وتصـــدق نهاياته بداياته ، وكأنهم خطباء فى حفل واحد اجتمعوا فى أمسية موعودة أو ليلة مشهودة ليسوا رجالا توزعتهم أكناف القرون المتطاولة ، فبين النبى والنبى أزمان وأزمان ، وبين الامة والامة غيرت قرى وبادت أمصار ، هذا وقد عرض القرآن الكريم قصصا أخرى لم يكن

أبطالها أنبياء ، ولا مرسلين ، وانما أقوام من هنا أو من هناك ممن طواهم الدهر فيمن طوى ، وأحناهم الزمن فى مساربه ولكن بقيت ذكراهم — ان خيرا أو شرا باقية أمام الناس ماثلة أمام أعينهم علهم يثوبون الى دينهم ، وهذا اذا فهمنا المعنى الحقيقى لكلمة الدين ، وأنها صلاح المعتقد ، وتدبير حياة الانسان على الوجه الأتم ، فليس الدين بمعزل عن الحياة ، وبذلك تكون القصة فى القرآن احدى وسائله الكثيرة الى أغراضه الدينية ، والتى تتمثل فى ابلاغ هذه الدعوة وتثبيتها ، شأنها فى ذلك شأن الصور التى رسمها القرآن ليوم القيامة ، وللنعيم والعذاب ، وشأن الأدلة التى يسوقها على البعث وعلى قدرة الله ، وشأن الشرائع التى يفصلها ، والأمثال التى يضربها الى آخر ما جاء فى القرآن من موضوعات ، كما يجب أن يعلم أن هذه الدينية لم تكن وقفا على القصة وحدها ، بل انها تتسرب الى جميع الأغراض القرآنية الأخرى ، ولا غرو فما القصص الا بعض من هذا الكل الذى يمثله القرآن ويحتويه ، وما دمنا نتحـــدث عن أغراض القصص القرآنى فتحسن الاشارة الى الظروف التى أوحت بهذا القصص ، لأن القصة فى القرآن كانت الوسيلة التى يلجأ اليها لمعارضته حين يحاول الكيد للنبى — صلى الله عليه وسلم — والتحدى للقرآن الكريم ، فقد جاء أن النضر بين الحارث كان يجلس الى الناس كما كان يجلس الرسول عليه السلام ، وكانت قريش تستملح حديثه ، وتنصرف عن النبى فكان طبيعيا — ومحمد — صلى الله عليه وسلم — بصدد البرهنة على أن ما جاء به حق — أن يعلمه الله سبحانه وتعالى مثل هذا القصص ليبلغه الى قومه عساهم يؤمنون ، وعن غيهم الفاســـد يرجعون ، وما كان لهم — لو أنهم أرادوا وجه الحق — الا أن يؤمنوا به ، ويصدقوا دعواه ذلكم لأنه لم يكن كاتبا ولا قارئا ، كما لم يعرف عنه أنه يجلس الى أحبار اليهود والنصارى يسمع منهم ويأخـــذ عنهم ، فاذا جاء هذا النبى الأمى وأخبر عن أمم بادت وقرون خلت ، أفلا يدل ذلك على أن

ما يقوله حق ، وما جاء به وحى يوحى ؟ والقرآن يدعم هذه الحقيقة اذ يقرر بعد قصة نوح **« تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا »** فان استعنا بالله وأكملنا الآية : **« فاصبر ان العاقبة للمتقين »** برز لنا غرض آخر من أغراض القصص القرآني ، وهو ازالة الضيق النفسى عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فلقد كانت أقوال المشركين وأعمالهم التى يكيدون بها للنبى والقرآن والدعوة وأصحابها هى السبب فى ضيق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأمله ، فاذا عرض سبحانه وتعالى على نبيه ذلك الشريط الطويل من خط سير أصحاب الدعوات مع أقوامهم ، وما لاقوا من متاعب ، وما صادفهم من أزمات انكشف همه وانزاح غمه ، وثبت على دعواه أحسن ما يكون الثبات وأقواه ، والقرآن الكريم يبرز هذا الرأى الذى نقرره حين يقول :**« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »** والرازى يدعم هذا بقوله فى تفسير الآية : « ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف ، وعلى هذا فقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجد فى هذا القصص صدى نفسه .

كما فى القصص القرآنى من الدلالة الواضحة على أن كله من عند الله ـ من عهد آدم الى عهد رسولنا ـ عليه السلام ـ أمة واحدة والله الواحد رب الجميع**« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »** ويكاد هذا الغرض أن يكون هو الأصيل من بين أغراض القصص القرآنى ، كما أن من الأغراض استنباط الأساس للدين كله فضلا عن أنه كله من عند اله واحد ، وتبعا لهذا نرى كثيرا من قصص النبيين وقد كررت فيها العقيدة الأساسية ، وهى الايمان بالله الواحد ، ففى سورة الاعراف : **« لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »** ، **« والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »** . وهكذا فهذا التوحيد الأساسى

للعقيــدة قد اشترك فيه جمع كبير من الرسل ، وقد وردت قصصهم مجتمعة فى هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص تأكيدا لا يدع مجالا للشك أو منفذا للطعن ، كما أن الغرض من القصص القرآنى أيضا بيان الأصل المشترك بين دين محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودين ابراهيم ــ عليه السلام ــ خاصة ، ثم أديان بنى اسرائيل عامة ، وابراز هذا الاتصال هو ما تكررت الاشارة اليه فى قصص ابراهيم ، وموسى ، وعيسى **« ان هــذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى »** **« ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا »** **« ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل »** وغير ذلك كثير .

ومن أهم أغــراض القصص القرآنى هو ذلك الغــرض الذى يرمى الى تنبيه أبناء آدم الى غواية الشيطان اللعين ، وابراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم ، ولا شك أن ابراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى وأدعى الى الحذر الشــديد من كل هاجسة فى النفوس تدعو الى الشر ، واسنادها الى هذا العدو اللدود الذى لا يريد بالناس خيرا . هذا اذا وضعنا فى حسابنا بيــان قدرة الله على الخوارق كقصة خلق آدم ، ومولد عيسى ، وقصة « الذى مر على قرية ، وهى خاوية على عروشها » وقد أحياه الله مائة عام ثم بعثه ، وهكذا عاقبة الطيبة والصلاح والافساد .

أقول : اذا وضعنا فى حسابنا هذا كله كان لنا فى النهاية أن نجمع خيوطا عديدة يمثل كل منها غرضا هاما من أغراض القصص القرآنى ، ولكن هذه الخيوط كلها تلتقى عند نقطة واحدة ، وتتجاذب لدى عقدة موحدة . تلكم هى الناحية الدينية التى سبقت قصص القرآن ، وهى من أجل تدعيمها بما انطوت عليه من ضم صفات دينية خلقية ، والدعوة اليها بتلك الطريقة المهذبة الوعظية ، ولا غرو فقد خاطب القرآن الكريم بهذا القصص حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية ، فاذا أدركنا

أن الفن والدين صنوان فى أعماق النفس ، وقرارة الحس أدركنا أيضا مدى ما وصلت اليه هذه الأغراض من نجاح ، وأى نجاح « **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » ولكن الانسان هو الانسان من مائة قرن خلت الى مائة قرن يلدها المستقبل المتطور لو امتد أجل هذه الحياة — لن تتغير طبيعته ولن يتبدل جوهره .

حقيقة قد تتغير وسائل تعبيره عما يهوى ، وقد تتغير مظاهر اشباعه لما يريد ، ولكنه هو هو فاذا وعى القرآن قصص الأولين مع أنبيائهم ، وجدد على الناس ذكرها بعد ما طوت الليالى أصحابها فلكى يداوى عللا متشابهة ، ويطب أمراضا متماثلة ، ومن أجل هذا كثرت القصص لتحصى جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعية ، وتستأصل جرثومتها بصنوف العبر وشتى النذر ، ان الحضارات المندثرة كجثث الموتى قد يشرحها مبضع الطبيب ليتعرف أسباب هلاكها ، وليضيف بهذه المعرفة حضارة جديدة الى علم الطب تتوقى بها الانسانية ما تجهل من متاعب وآلام ، والمجتمعات التى طواها الماضى ، وهدمت تحت الثرى ، يجب اذا نضبت الحياة منها أن نتعرف كيف عاشت أو كيف تصافت وتخاصمت ، وهل تلاقت على جد أو مجون ؟ واستجابت للحق أو للباطل . ان هذه الأسئلة تغنينا نحن وعلى ضوء اجابتها قد تستقيم خطانا من عوج .

ان القرآن وهو يحكى أنباء الأولين يحولها الى دواء سائل عام ، يسكب من قطراته على نفوس المعاندين يبغى شفاءها دون نظر الى تراخى القرون واختلاف المخاطبين .

وقد يقال : أولم يكن كافيا لمحمد وأصحابه ذكر قصص من سبقهم فحسب ، ولم يكن ثمة داع لذكر القصص التى وردت تحكى حالا شاهدها الرسول ، ورأوها أتباعه ؟ كخبر الثلاثة الذين خلفوا ، أو قصة خولة فى سورة المجادلة ؟ أقول : وهل كانت مخاطبة القرآن

للمسلمين قاصرة على زمنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فحسب أم هى عامة شاملة لكل من يأتى بعدهم من أمم وأجيال حتى تقوم الساعة ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

اذا كان الأمر كذلك فأنا أجزم بأن فيها العبرة ، وفيها العظة ككل القصص الأخرى من قصص القرآن عبرة وعظة ليست لنا فحسب بل كانت لهم أيضا وقت نزولها ، فلم ينزل شىء عبثا ، ففى هذا وذاك وفى ذلك كله قدرة ، وفيه ألوهيه وفيه اعجاز فى كل حال •

ان شريعة الاسلام لم تأت بما أتت به من تكاليف لاصلاح حال المجتمع الانسانى ، وغايتها من وراء ذلك تمتع البشرية فى النهاية بالسعادة الدنيوية الحقيقية ، الأمر الذى يؤول بهم الى السعادة الأخروية ، وليست هذه القضية صادقة على أحكام المعاملات فحسب ولكنها تصدق كذلك على أحكام العبادات ، ولا يشكل على هذا الحكم المسلم به من الفقهاء جميعهم ، وهو أن أحكام هذه القضية صادقة على أحكام المعاملات فحسب ، ولكنها عبادات تعبدية محضة • ذلك أنه يراد منه أنه ليس لتشريعها علة خاصة تدور معها أحكامها وجودا وعدما ، كما هو الشأن فى مسائل المعاملات ، فلا يقال مثلا أن العلة فى تشريع الصلاة هى أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر • فاذا تحققت هذه العلة فى التصوف مثلا فانه يعطى حكمها ــ وهو الوجوب قياسا عليها ــ وهذا لأن كيفيات العبادة ترتبط بأسرار روحانية يتعذر علينا ادراكها ، ومن ثم فهى مقصودة لذاتها ، وليس لنا أن نقيس عليها غيرها ، لكن هذا لا ينفى أنها شرعت فى الجملة لمصلحة العباد ، ويؤكد هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى أشار ــ عن ايجابية لكل عبادة من العبادات الى أن فى ايجابها مصلحة لنا بوجه عام ، وقد يشير الى خصوص هذه المصلحة ليكون ذلك أدعى الى القبول والامتثال ، فهو سبحانه يقول فى الصلاة : « **وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء**

والمنكر ولذكر الله أكبر » الآية ويقول فى شأن الصوم « وأن تصوموا **خير لكم »** ويقول سبحانه تعليلا لأمره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بدعوة الناس للحج الى بيت الله الحرام : « **ليشـــهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام »** •

واذا أردنا أن ندرس القصص القــرآنى من الوجهة الوصفية ألفينا هناك فرقا كبيرا بين ما أعنيه بالوصفية هنا ، وما يريده علماء اللغة ، فهم يعتبرون الدراسة الوصفية هى تلك التى تتكفل بدراسة ظاهرة معينة من ظواهر اللغة ، ودراسة شاملة احصائية عن طريق وصف الحاصـــل والموجود فى فترة معينة من الزمن بقطع النظر عن السابق واللاحق •

أما ما أعنيه أنا بدراسة القصص القرآنى من الوجهة الوصفية ، فهو بيـــان ما عليه القصص فى شتى نواحيه الشكلية ، والطريقة التى اتبعت فى عرض هذا القصص ، وبيان موضوعها وسياقها التى وردت فيه ــ والقصص القرآنى من الوجهة الوصفية أو الشكلية أو طريقة العرض ، وجميعها صحيح تقتضينا أن تتعرض لها من ثلاثة جوانب •

أولا : ناحية البدء فى القصة •

ثانيا : ناحية الطول والقصر فيها •

ثالثا : ناحية التكرار الذى هو الطابع العام لأغلب قصص القرآن وسآخذ فى تفصيل كل ناحية ــ من هذه النواحى الثلاث ــ على حدة •

أولا : بدء القصة : ــ

ان حلقات القصص فى القرآن الكريم قد خضعت خضــوعا بينا للغرض الذى جاء له ، وسيقت من أجله ، الا وهو الغرض الدينى ومقدار

ما يوصل اليه هذا الغرض من عظة وعبرة وأهمية • وكان هو الهدف الأصيل من أهداف القرآن الكريم، فلا بدع اذا عرض القصص كلهبالقدر الذى يكفى لأداء هذا الغرض ، ومن الحلقة التى تتفق معه ولهذا كان بدء القصة على النحو التالى •

هناك قصة تعرض حلقة ميلاد بطلها منذ اللحظة الأولى لأن فى مولده عظة بارزة ، وخذ لتلك مثلا من قصة آدم منذ خلقه ــ واذا قلنا قصة آدم ، فانما نعنى قصة البشرية كلها من المنشأ الى المصير قصة الانسانمن مبدئه الى منتهاه « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة** » فالانسان ليس نباتا شيطانيا خرج الى الوجود كيفما اتفق بلا قصد من خلقه ، ولا غاية ، وليس هو حلقة من حلقات التطور أو صلتها الحلقة السابقة الى مكانها ، ثم تركها لحظة فى خط التطور العشوائى المتشعب التى تلعب المصادفة فيه دورها على غير نظام معلوم وانما هو من خلق الله عن قصد منه ــ سبحانه وتعالى ــ وتدبير « **انى جاعل فى الأرض خليفة** » وتكمن العبرة بجوار هذا كله فى ارادة الله العليا التى جعلت الانسان انسانا ، والتى جعلت لهذا الانسان مهمة معينة • مهمة الخلافة عن الله فى الارض • مولد الانسان تحتفل به السموات وتتجلى العبرة أيضا فى خلق الانسان منذ اللحظة الاولى حين تحدد له مهمته فى جلاء ووضوح ، فهو مخلوق مميز الوضع من أول لحظة ، منفرد فى ظروف وجوده وخلقته لا كغيره من المخلوقات • وتستوقفنى تلك الآية « **انى جاعل فى الأرض خليفة** »فأقرأها من جديد واذا بى ألمح فيها ان الانسان منذ مولده مخلوق للأرض ، فهو لم يخلق ليبقى فى الجنة التى شهدت مولده ، ولم تكن ارادة الله له أن يبقى فى هذه الجنة ، ولا أن يكون دوره النشيط بين روحها وريحانها نقول : اذا كان الامر كذلك فلماذا اتيحت له هذه الفرصة القصيرة ؟ والجواب لا أشك فى أنها أتيحت له ليتذوق طعم الجنة ، ويعلم كم فيها من نعيم ، ويعلم كم يستحق هــذا النعيم •

ان الجنة بالنسبة له ليست خيالا طائرا ، ولا شوقا مبهما ، ولا أمنية حائرة ، وانما هى حقيقة يشهدها بنفسه قبل أن يهبط الى الارض لدوره المقصود لتظل ذكراها فى نفسه حية نابضة ، وحنينه اليها مشاعر واضحة وسعيه للعودة اليها حقيقة واقعة .

ومن هنا كان بدء القصة حاويا للعبرة الجليلة منها ، وهى عبرة لكل بنى آدم الذين يشهدون فى أنفسهم ذات التجربة ، والذين يعرفون قصة أبيهم آدم ، فيتوقون للعودة الى الجنة التى خرج منها أبوهم القديم ، وهم عائدون . عائدون بعد أن يؤدوا الدور الذى خلقوا لأجله من الأصل : دور الخلافة عند الله فى الأرض عائدون بشرط ((**فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**)) .

واذا أخذنا مثلا آخر وهو قصة مولد عيسى بن مريم ــ عليه السلام ــ نجد أن القرآن يعرضها بتفصيل كامل ذلك أن مولده هو الآية الكبرى فى حياته ، وحول هذا المولد قام الجدل كله وعنه تفرعت كل قضايا المسيحية قبل الاسلام وبعده ، وقصة مريم وقد نذرت لله وهى فى بطن أمها ، وتولى كفالتها زكريا ، ثم رزقت منذ مولدها رزقا حسنا من عند الله فكانت ((**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله**)) ثم تطوى حلقاتها فحتى تأتى حلقة ميلاد عيسى عليه السلام ، وهى الحلقة الهامة الثانية فى حياتها .

وقصة موسى لأن لمولده ــ فى عهد اضطهاد بنى اسرائيل ، وتذبيح الذكور من أطفالهم ، ونجاته هو من ذلك مع وجوده بين آل فرعون أنفسهم ــ قيمة خاصة فى بيان رعاية الله له ، واعداده اعدادا خاصا للمهمة التى سينهض بها ، ثم تذكر من حياته حلقاتها ذات المغزى .

ونجد قصصا آخر تعرض من حلقة متأخرة نسبيا ، فقصة يوسف ــ عليه السلام ــ تبدأ من الحلقة التى كان فيها صبيا فمن هذه الحلقة

يرى الرؤيا التى تسير حياته جميعها ، وتؤثر فى مستقبله كله ، ثم تسير القصة فى طريقها المرسوم بعد هذه الرؤيا التى حكاها لأبيه بوجه طلق ، وصدر رحب ، وثغر باسم وأمل متطلع • ولما أدرك يعقوب أن القلوب متباعدة ، والنفوس غير متلاقية ، والأهواء ليست متلائمة ، وأيضا ادرك أن هذه الرؤيا اذا أعلنها ابنه أثارت حزازات ، وأيقظت عداوات لم يجد بدا من أن يقول له : « **يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا** » •

لم تكن هذه القصة بدعا فى التاريخ ، ولا جديدة على البشرية ولا غريبة على الأيام والليالى ، فكيد الأخ لأخيه ، وغدر الانسان بالانسان ، واغراء الشيطان لابن آدم أن يتجاوز حده ويخرج عن طوره ويتعدى حدود الاعتدال فى سلوكه مع الناس ، وصلته بالمواطنين أمور كلها فى جبلته الأولى وطباعه المألوفة •

كذلك نجد نوعا ثالثا من القصص لا تعرض الا فى حلقة متأخرة وهى حلقة الرسالة كقصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وكثيرين غيرهم ، ولماذا ؟ لأن الرسالة فى حياة هؤلاء أهم حلقة فيها **العظة وفيها العبرة « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »** تبين فيما مضى أن بدء القصة قد يكون من أول حلقة فى ميلاد وطنه وقد يكون فى حلقة وسطى ، وقد تكون فى حلقة أخيرة •

ثانيا : طول القصة وقصرها •

أو ناحية الاطناب والايجاز فيها ، وهى من هذه الوجهة مثلها من ناحية البدء يخضع كل من الطول والقصر فى القصة لما فيها من عظة وأهمية وبالمثال يتضح المقال :

فهناك من القصص ما طابعه الاطناب كقصة موسى التى تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها منذ مولده ، بل قبل مولده الى وقوفه بقومه

أمام الأرض المقدسة ، حين كتب عليهم التيه أربعين سنة جزاء وفاقا لأن فى كل حلقة من حلقــات القصة ، غرضـــا دينيا يبرز ، وله صلة بأهداف القرآن ، كما أن البيئة التى نزل فيها القرآن كان فيها عدد كبير من اليهود فالاتيان بقصة نبيهم طويلة يجذبهم الى ما يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — •

وهناك قصص متوسطة التفصيل كقصة نوح التى تذكر فيهـــا تفصيلات رسالته ، ودعوته لقومه واستكبارهم عنها ، وحلقة صنع السفينة ، وحلقة الطوفان ، وغرق ابنه ، ودعائه الله أن ينجيه ، وعدم استجابته له لأنه ليس من أهله ، ولو كان ابنه لأنه عمل غير صالح •

وكذا قصة مريم وسليمان وداود •

وهنـــاك قصص موجزة وقصيرة ، وهى التى تعرض عند حلقة الرسالة وحدها وهى ما سبق الحديث عنها عند بدء القصة • فان هذه جميعا تتضمن الرسالة والحوار مع قومهم وتكذيبهم القوم ، ثم اهلاكهم بسبب هذا التكذيب • ومثل ذلك قصة اسماعيل ويعقوب فى اختصارهما النسبى ازاء قصة كل من ابراهيم ويوسف •

وهناك قصص متناهية فى الايجاز كقصة زكريا التى تذكر عند مولد يحيى ، وعند كفالته لمريم ، وقصة أيوب تذكر عند مس الضر له ثم استغاثته بالله وشفائه ورد أهله اليه ، وقصة يونس وتذكر عند ابتلاع الحوت له ثم نبـــذه بالعراء ، ورسالته لقومه ، وايمانهم به وهناك من القصص ما يشار اليها ، ولا يذكر شىء عنها الا وصفا خاطفا لأصحابهـــا كقصص ادريس ، واليسع ، وذى الكفل وطائفة أخرى لا تذكر الا أسماء فى صدر استعراض سجل الأنبياء • وهناك قصص تعرض حسبما تبلغ الغاية منها وهى النـــاحية الوعظية البحتة مثل أصحاب الأخـــدود ، وأهل الكهف ، وابنى آدم ، وصاحب الجنتين ، وأصحاب الجنة ، وقصة الذى مر على قرية ، وهى خاوية على عروشها •

وعلى هذا أتت قصص القرآن العزيز حيث نرى القصة الواحدة التى لا تختلف معانيها ، كيف تأتى فى صـــور مختلفة ، وقوالب من الألفاظ متعددة حتى لا تكاد تشتبه فى موضعين منه ، ولا بد أن نجد الفرق بين صورها ظاهرا ، والى هذا المعنى اشار ابن أبى الاصبع المصرى فى قصيدة له قال فيها :

وآيته العظمى بلاغــة مابه[1] أتى من كتاب فضله ليس يجحد
تفرد فى عصر البيـــان بيـــانه بأسـلوبه اذ نظمـــه متفـــرد
وفى نظمه بعـــد الغرابة معجز محاســـنه لم تنحصر فتعـــدد
هدى الناس منه للبديع بديعه فصاغوا حلى القول منه وولدوا
بمعنى يزين المرء منـــه كلامه فيخلو بأسماع الورى حين يورد
ويضحى لما يأتى به أى رونق يعظمـــه المصغى لـــه ويمجـــد
وجاء سليما نظمه من معـــايب بلا ســقطة فيـــه لمن يتفقـــد
به قصص تأتيـــك طورا بسيطة ليفهمهـــا من بســـطها المتبلد
وطورا بايجاز يبث لذى حجى له زند فهم ثاقب ليس يصـــلد

التكرار فى قصص القرآن :

ان الدارس لقصص القـــرآن يلمح ظاهرة جديرة بالملاحظة ، تلكم هى ما يتراءى من تكرار بعض القصص فى مـــواطن مختلفة من سور القرآن الكريم •

ويتقول قصار النظر بأن الشىء الذى أريد تأكيده تكرر الحديث عنه لا بد أن يكون على حالة نقيض قبـــل تأكيده ، وهم بهذا ينسبون القصور لبعض آيات القرآن ، ويعدون القصص القرآنى من المتشابه ، ولما كان هذا موضوعا خطيرا له شأنه وله كيانه ، فقد آثرت أن أبسط القول فيه مفصلا له بعض التفصيل •

---

(١) بديع القـــرآن ٢٩٠ •

لعلنا لم ننس ما قلناه فيما سبق حين بينت كيف استحق قصص القرآن أن يكون سر اعجاز من ناحيته الشكلية والموضوعية .

وهنـــا نقول : ان ثمة معنى دقيق فى التحدى ما يظنه العرب الا وقد بلغوا منه عجبا ألا وهو التكرار الذى يجىء فى بعض آيات القرآن فيختلف فى طرق الأداء ، وأصل المعنى واحـــد فى العبـــارات المختلفة ، وكالذى يكون فى بعض قصصه ــ وهو ما يهمنا هنـــا بصفة خاصـــة ــ لتوكيد الزجر والوعيـــد وبسط الموعظة ، وتثبيت الحجة ونحـــوها .

وهو مذهب للعرب معـــروف ولكنهم لا يذهبون اليه فى ضروب عظيمة من خطابهم ــ بيد أن وروده فى القرآن الكريم مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته ، وأنهم يتخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها ــ يقول الطبرى ــ « المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعانى ، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى » . وكذلك يقول غيره من شيوخ المفسرين : « ما كان الا توهما ولضعف غريب فى أنفسهم لم يعرفوه الا بهذه القوة لأن المعنى الواحد يتردد فى أسلوب بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجها أو عبارة ، وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة ومستمرون على العجز ولا يطيقون ولا ينطقون » . فهذا لعمرك أبلغ فى الاعجاز وأشد عليهم فى التحدى اذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز النفسى الذى قد يمكن معه الاستطلاعة ، أو المعارضة حينا بعد حين الى العجز الفطرى الذى لا يتأول فيه المتأول ، ولا يعتذر منه المعتذرون ، ولا يجرى الأمر فيه على المسامحة ، وقد خفى هذا المعنى ــ التكرار ــ على الملحدة وأشباههم ومن لا قوة له فى أسرار العربية ، ومقاصد الخطاب ، والتأتى بالسياسة البيانية الى هذه المقاصد ، فزعموا به المزاعم السخيفة ، وأحالوه الى النقض والوهن ، وقالوا : ان هذا

التكرار ضعف من قوة ، وضيق من سعة وهو – أخزاهم الله – كان أروع وأبلغ وأسرى عند الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيهـا ، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيبا .

قال العلماء فى شرح آية : « **ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل** » رددنا وكررنا من كل معنى كالمثـل فى غرابته وحسنه أو سقنا لهم وجوه العبر والأحكام والوعد والوعيد والقصص وغير ذلك ، فالقرآن الكريم لون حديثه للسامعين – ليس فى القصص فحسب – تلوينا يمزج بين ايقاظ العقل والضمير معا ، ثم تابع سوقه متابعة ان أفلت المرء منها أولا لم يفلت آخرا ، وذلك هو تصريف الأمثال للناس أى احاطة الانسان بسلسلة من المغريات المنوعة التى لا معدى له من الركون الى احداها ، أو قل ان معالجة القلوب المغلقة بمفاتيح شتى لابد أن يستسلم العقل الى واحد منها .

والهدف الأهم من وراء هذا السرد المتكرر ليس بيان الحق فقط بل هو الى جانب ذلك تعميق مجراه فى القلوب تعميقا ينفى ما طبع عليه الانسان من جدل وملل .

ذلك هو دفاعنا عن التكرار عموما وان وقوعه فى القرآن ليس نقصا كما يتوهمون .

وبقى أن نبين وجه الحق فى مسألة لا تقل أهمية ان لم تزد تلك هى أن التـكرار لم يقع فى القرآن مطلقا ، وانمـا التـكرار وقع على بعض الحلقات فى القصة ليس فيها كلها فورود القصة الواحدة – فى معظم الحالات – مكررة فى مواضيع شتى لايتناولها كلها – غالبا – انما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه اشارات لموضع العبرة فيها أما جسم القصة كلها فلا يكرر الا نادرا ، ولمناسبات خاصـة فى السياق اقتضاها الموقف الذى نزلت فيه ، وهذا ما يؤكده علماء التفسير عند

ذكرهم أسباب النزول لكل قصة على حدة ، وان كانت جميعها متداخلة أو تمثل مرحلة واحـــدة •

وان الانسان حين يقرأ هذه الحلقات المكررة من القصة الواحدة ملاحظا السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماما فى اختيار الحلقة التى تعرض هنـــا أو هناك ، وفى طريقة عرضها كذلك على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررا فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة •

يتضح هذا حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها ــ فمعظم القصص يبدأ باشارات مقتضبة ثم تطول هذه الاشارات شيئا فشيئا ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون فى مجموعها جسم القصة ــ وقد تستمر الاشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات ــ حتى اذا استوفت القصة حلقاتها عادت هــذه الاشارات هى كل ما يعرض منها • وخذ لذلك مثلا قصة موسى ــ عليه السلام ــ فهى أكثر القصص فى القرآن تكرارا اذ أنها وردت فى حوالى ثلاثين موضعا ، وهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة عن هذا التكرار غير المطلق لأن فى كل منها جميعا اشـــارة معينة قد تطول وقد تقصر ، وهى فى هذا وذاك متلونة متغيرة فى واحدة عنها فى الأخرى ذلك لأن التكرار فيها أغلبه اشارات وعظية الى القصة اقتضاها السياق ، أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريبا ، واذا كررت حلقة منها جاءت بشىء جديد مما يتنافى ووجود التكرار فى القرآن الكريم ، أو فى قصصه على وجه الخصوص ، ونعتقد أن المسألة بعد كل هذا أبين من أن تسبب لبسا ، وأسمى من أن تكون مبعث اشتباه ولنتركها الى الحديث عن شىء آخر هو الخلقية الدينية فى قصص القرآن حيث أن بعضه يريد بعضا •

بينت فيمـــا سبق عند الحديث على أغراض القصص القرآنى ، وقلت : ان القصص انما جاء لتثبيت وحدة الاله ، ووحدة الدين ووحدة

الرسل ، بل ووحدة طرائق الدعوة ووحدة المصير الذى يلقاه المكذبون •

وقد أوضحت أنه قد نشأ عن خضوع القصة لهذه الأغراض أن يعرض شريط الأنبيـاء والرسل الداعين الى الايمـان بدين واحـد والانسـانية المكذبة بهذا الدين الواحـد مرات متعددة تبعد هـذه الأغراض ، وقد نشأ عن ذلك ظاهرة التكرار الذى دافعنا عن وجوده باطـلاقه •

وقد كان عرض هذا الشريط دافعا للمتأمل أنه نبى واحد ، وأنها انسانية واحـدة على تطاول الأزمان والآماد كل نبى يمر وهو يقول كلمته الهادية ، فتكذبه هذه الانسانية الضالة ، ثم يمضى ويجىء تاليه فيقول الكلمة نفسها ويمضى وهكذا • والذى يهمنا هنا أن نبين أنه فى أثنـاء عرض هذا وذاك نجد القـرآن يسوق توجيهاته الدينية بكثرة ووفرة ، وهى فى جميعها تدل على الغرض الأساسى من سياق القصة وهو الغرض الدينى أولا وقبل جميع الأغراض •

ومزج هذه التوجيهات الدينية قد اختلف فى قصة عنه فى أخرى فأحيانا تساق تلك التوجيهات قبل القصة ، وتارة تذكر بعدها ، وطورا تكون فى ثناياها •

ولنأخذ فى بيان كل من الأحوال على حدة •

فنقول : ان خير مثال يدل على سياق التوجيه الدينى قبل القصة ما نراه فى مجىء بعض القصص مصدقة للأنبياء مثل « **نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم • وأن عذابى هو العـذاب الأليم** » ثم تأتى القصة التى تدل على الرحمة ، والتى تدل على العذاب • كذلك يجىء التوجيه قبل القصة للتنبيه الى دلالة القصة على الوحى بها ، ومثال ذلك قصة يوسف وقصة آدم عليهما السلام •

أما ما يذكر من التوجيهات الدينية بعد القصة فهو ما نرى له مثلا

فى سورة العنكبوت عقب قصص الأنبياء مجتمعة يقول سبحانه وتعالى :

« **فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** » والتوجيه الدينى هنا يتعلق ببيان العدل فى عقاب الله سبحانه وتعالى ، وأنه لا يحاسبهم ولا يأخذ القوم الا بعد الانذار .

كذلك يساق التوجيه بعد القصة للتنبيه على دلالة القصص على الوحى بها وهذا الهدف الأخير مشترك بين التوجيه فى أول القصة وفى آخرها ، واذا أردنا مثالا هنا فهو ما نجده فى أعقاب قصة موسى فى **سورة القصص** « **فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** » والذى يتتبع قصص القرآن يجد عقب كل قصة تعقيبا دينيا يناسب العبرة فيها .

وأما الصنف الثالث والأخير ، وهو ما يذكر من التوجيهات فى ثنايا القصة فخير مثال عليه نجده فى قصة يوسف مع خادمى الملك يفسر لهما الرؤيا ثم يقول : « **ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** » .

وهكذا لا يسير سياق القصة الا وفى ثناياه تلك التوجيهات الدينية زيادة على المغزى الذى تؤدى اليه بحوادثها دون توجيهاتها .

وهكذا نرى أن مزج هذه التوجيهات قبل قصص القرآن وعقبه وفى ثناياه دليل على مراعاة القرآن الكريم لجانب الأخلاق الدينية لدى المسلمين ، والعمل على تنميته وتذكيته حتى يفوزوا بالدارين وينعموا

بالحسنيين « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع النـــاس فيمكث فى الأرض » .

لقد أطلنا الحديث عن الدين والخلق والعبرة والموعظة التى أرادها القرآن الكريم من وراء قصصه ، ولكنه بجوار هذا كله وجد فيه كثير من مظاهر التناسق الفنى تخللت قصصه وسمت بأخباره ، وكان من مقتضى الأغراض الدينية أن تتساوق مع الوسط الذى تعــرض فيه فأنشأ هذا التساوق نوعا من التناسق لم نتردد لحظة فى تسميته « جمالا فنيا » ولنأخذ فى عرضه منذ الآن فنقول :

هناك خصائص فنية عامة تحقق الغرض الدينى للقصة عن طريق جمالها الفنى ، اذ أن هــذا الجمال يجعل ورودها الفنى الى النفس أيسر ، ووقوعها فى الوجدان أعمق ، وهــذه الخصائص تمثلها أربع ظواهر فنية هى :

أولا : تنوع طريقة العرض :

هناك أربع طرائق مختلفة جرى عليها النهج القرآنى فى عرض قصصه ، وذلك من ناحية التلخيص والتفصــيلات فمرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ، ثم يعرض التفصــيلات بعد ذلك ويستمر هكذا من البدء الى النهاية ، وذلك كطريقة قصة أهل الكهف فهى تبدأ هكذا :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لمـــا لبثوا أمدا » .

ذلك ملخص للقصة ثم تتبعه التفصــيلات تحكى تشاورهم قبل دخول الكهف وحالتهم فيه ــ نومهم ويقظتهم ــ ثم ارسالهم واحدا

منهم ليشترى لهم طعاما وكشفه فى المدينة وعودته ، ثم موتهم وبناء المعبد عليهم واختلاف القوم فى أمرهم .. الخ، فكان هذا التلخيص بمثابة مقدمة مشوقة لتلك التفصيلات العديدة .

ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة من بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها ، وذلك كقصة موسى فى سورة القصص وفيها نجد المقدمة كاشفة عن الغاية من القصة فى الوقت الذى تمهد فيه لمعرفة الطريق التى تتحقق بها تلك الغاية المرسومة .

ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ، ولا تلخيص لما فى مفاجآتها الخاصة من الغناء والكفاء مثل قصة مريم عند مولد عيسى عليه السلام .

ومرة تتجه طريقة العرض الى احالة القصة تمثيلية حوارية فيها الحوار وفيها المشاهد فيذكر من الألفاظ فيها ما ينبه الأذهان الى ابتداء القصة ، ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها ، وذلك كالمشهد الذى نجده فى قصة ابراهيم واسماعيل — عليهما السلام .

ثانيا : تنوع طريقة المفاجأة :

والقرآن الكريم اذ يسلك هذا المسلك فانما يعنى بسر المفاجأة من زاويتين : زاوية البطل الذى راد القصة ، وزاوية النظارة التى يرجى صلاحها من وراء هذه القصة . فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهما معا فى آن واحد ولا أدل على ذلك من قصة موسى عليه السلام — مع العبد الصالح « العالم » فى سورة الكهف فان القارىء اذا قرأ هذه القصة فى القرآن الكريم وجد مفاجآت متوالية يظل جاهلا سرها غير كاشف أمرها ، وليس بدعا فى ذلك ، فهو يكرر الدهشة التى أصابت موسى نفسه — عليه السلام — فاذا قرأ آيات تلو

آيات انجلى له السر ، وكشف له الأمر ، فيعلمه وقت علم البطل به • ومرة يكشف السر للنظارة ويترك أبطال القصة عنه فى عماية انتظاره — ليس هـذا فحسب — بل ان أولئك يتصرفون وهم جاهلون بالسر وأولئك يشاهدون تصرفاتهم مدركين عالمين • وأظنك أيها القارىء قد أدركت أن هذا انما يكون فى موضع يتطلبه وهو معرض السخرية من تصرفات الممثلين • ونرى هذا جليا فى قصة أصحاب الجنة « **اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون • فطاف عليهـا طائف من ربك وهم نائمـون فأصبحت كالصريم** »(١) وبينما يكشف هذا للنظارة فان أصحاب الجنة أنفسهم كانوا به جاهلين « **فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنهـا اليوم عليكم مسكين • وغدوا على حرد قادرين** » وقد ظللنا نحن النظارة نسخر منهم وهم يتنادون ويتخافتون ، والجنـة خاوية كالصريم حتى انكشف لهم السر أخيرا بعد أن شبع النظارة منهم سخرية وتهكما •

ومرة يكشف بعض السر للنظـارة ، وهو خاف على البطـل فى موضع ، وخاف عن النظـارة وعن البطل فى موضع آخـر فى القصة الواحدة ، مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذى جىء به فى طرفة عين ، وعرفنا نحن أنه بين يدى سليمان فى حين أن بلقيس ظلت تجهل مافعله « **فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو** »(٢) •

فهذه المفاجأة قد عرفنا سرها سلفا ، ولكن مفاجأة الصرح الممرد من قوارير ظلت محجوبة عنا خافية علينا حتى فوجئنا به معها حينما « **قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيهـا قال انه صرح ممرد من قوارير** »(٢) •

ومرة لا يكون هناك سر بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة فى آن واحد ، ويعلمان سرها فى الوقت ذاته ، وذلك كمفاجآت قصة مريم حين

---

(١) القلم : ١٩ ، ٢٥ (٢) النمل : ٤٢ ، ٤٤

تتخذ من دون أهلها حجابا فتفاجأ هناك بالروح الأمين فى هيئة رجل خافته فأعلمها وطمأنها قائلا أنا رسول ربك .

ثالثا : الفجوات بين المشهد والمشهد :

وهذه خصيصة فنية ثالثة قد اتبعت فى عرض القصة ، وتبدو فى ترك فجوة يملؤها الخيال بين كل مشهدين أو حلقتين ، ويستمتع باقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق .

وهذه طريقة متبعة فى جميع القصص القرآنى على وجه التقريب ، وأوضح مثال لها قصة يوسف عليه السلام فالقارىء لهـذه القصة فى سورتها يجد مشاهد متعددة يفصل كل مشهد عن غيره بفجوة قصيرة لا يلبث أن يأتى المشهد الأخير عقبها ليسير بالقصة خطوة الى الأمام وهكذا .

رابعا : التصوير فى القصة :

وهى أبرز الخصائص الفنية فى القصة فالتعبير القرآنى يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التى يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التى يعرضها ، فتستحيل القصة حادثا يقع ، ومشهدا يجرى لا قصة تروى ولا حادثا مضى .

وهذا التصوير له ألوان عديدة فى مشاهد قصص القرآن ، فلون يبدو فى قوة العرض والأحياء ، حتى ليظن المشهد حاضرا يحس ويرى ، وهذا واضح جدا فى قصة أصحاب الكهف ، فبينما نجدهم يتشاورون فى أمرهم بعـدما اهتدوا الى الله بين قوم مشركين اذ بالمشهد ينتهى فيسدل الستار ، ثم يرفع مرة أخرى ليدركهم وقد نفذوا ما عزموا عليه ، واهتدى أمرهم اليه ، فهاهم أولاء فى الكهف تراهم رأى العين . ولا غرو فان التعبير القرآنى والتصوير الربانى لا يدع شكا فى أنك

تراهم يقينا **((وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين))**[1] انظر الى كلمة تزاور ، وقف عنـــدها قليلا ، فانك لا شك واجد هذه الحركة المتماوجة عيـــانا ، فانه يعجز عن تصوير هذا التمـــاوج الذى صورته اللقطة فى سهولة غريبة .

ومن هذا تدرك أن « قوة التصوير والأحياء » هى السمة البارزة فى مشاهد القصة جميعا ، وأن هذا اللون هو الذى يطبعها ويغلب فيها على الألوان الأخرى .

أما اللون الثانى من ألوان التصوير فى القصة فيكون فى تصوير العواطف والانفعالات وابرازها ، وشاهد هــذا اللون قصة مريم عند ميلاد عيسى ، وهى ما ذكرناها أولا عند تنوع طريقة العرض فى ذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص .

ولكننا نذكرها هنا ناظرين اليها من زاوية أخرى ، زاوية ابراز العاطفة الانثوية لدى مريم حين تدافع عن عرضـــها ، وقد نزل عليها الروح الامين يخبرها أنه سيهب لها غلاما زكيا فتقول : **((أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا))** هكذا صراحة بالألفاظ المكشوفة ، فهى والـــرجل فى خلوة والغرض من مباغتته لها صـــار مكشوفا ، وما يخفف من روعة الموقف أن يقول لها : **((انما أنا رسول ربك))** فقد تكون هذه خدعة فاتك أو حيلة ناهب ، فالحياء اذا ليس مجديا ، والصراحة هنـــا أولى . **((قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا))**[2] .

ثم ماذا ؟ هنا نجد فجوة من فجوات القصة ، فجوة فنية كبرى تترك للخيال يتصورها كما يهوى ويصعد بها حسبما يريد .

---

(١) الكهف : ١٨ (٢) مريم : ٢١ .

ثم تمضى القصة فى طريقها لتعرض موقفا آخر يختلف عن الموقف الأول الى مدى بعيد ، فهي وان كانت فى موقفها الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها فهى هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة ، ثم هى تواجه آلاما جسـدية بجانب الآلام النفسية ، تواجه الألم الجسـمى الحاد الذى فاجأها فجعلها تلجأ الى جـذع النخلة ، وهى وحيدة فريدة ، تعانى حيرة العذراء فى أول مخاض ، ولا علم لها بشىء ، ولا معين لها فى شىء ، فاذا هى قالت : **« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »** فاننا نكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواجع الالم فيها .

حقا لقد برز الغرض الدينى هنا ، وبرزت مشاهد القصة فى جلاء ووضوح ، ولكن مما لا شك فيه أن قوة ابراز العواطف والانفعالات هى السمة الغالبة ، وأن هذا اللون هو الذى يطبعها ويغلب فيهـا على الألوان الأخرى .

فاذا تركنا هذين اللونين من ألوان التصوير ، وهما قوة العرض والاحياء وغلبة العواطف وذهبنا نتحسس ألوانا أخرى ، ألفينا ثالثا لا يقل عن سابقيه أهمية ان لم يزد عليها ذلك هو رسم الشخصيات فى القصة وابرازها .

والقرآن الكريم ووجهته الاولى هى الدعوة الدينية نراه يلم فى الطريق بهـذه السمة تتجاوز حدود الشخصية المعنية الى الشخصية النموذجية ، ولا غرو فنحن لم ننس أغراض القصص القرآنى بقدر .

واذا آن لنا أن نعرض نموذجا أخـذت فيه الشخصية مكانها المرموق فى القصة فسنختار شخصية موسى عليه السلام ، انه نموذج للزعيم الشديد ولا أدل على ذلك من وكزه الرجل فقضى عليه ، ولكن سرعان ما تذهب هذه الشـدة ، فيعود الى نفسه شأن الأقـوياء

« **قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين** »[1] ولكنه خائف مترقب هيئة المتفزع المتلفت المتوقع الشر فى كل حركة لأنه خائف ، وبرغم أنه ثاب فى المرة الأولى ، فقد أوشك أن يعيد الكرة مرة أخرى لولا أن الرجل تداركه قائلا « **يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس** » فيرجع عن اندفاعه ، ويرحل عن المدينة ، تلك شخصية بارزة ، ونموذج انسانى واضح فى كل مرحلة من مراحل القصة جميعا •

فاذا أردت لهذه الشخصية الشديدة مقابلا فانك واجد شخصية ابراهيم عليه السلام انه نموذج الهدوء والتسامح والحلم ، وما أصدق قول القرآن فيه : « **ان ابراهيم لحليم أواه منيب** »[2] •

ويوسف نموذج الرجل الواعى الحصيف الذى يقدر المسئولية حق قدرها ، ولماذا نذهب بعيدا ؟ أو ليست شخصية آدم أبو البشر تمثل النموذج العام للانسان ففيها الضعف البشرى الأكبر الذى يجمع كل نواحى الضعف الأخرى ، فيها الضعف أمام الرغبة فى الخلود ، وقد لمس ابليس موضع الضعف هذا فاستجاب له آدم ، واستجابت له حواء قبله ، وقامت بدورها المعهود « الرغبة فى الممنوع والاغراء بالمشاركة » فالانسان الفانى حريص على الخلود أبدا فلما لم ينله كما مناه الشيطان ظل وسيظل يحاوله بشتى الطرق بالنسل وبالذكر وبالخيال وان لم ينفعه هذا لجأ الى الدين الذى يضمن له البعث مرة أخرى ، ويضمن له نوعا من الخلود أيضا • أما شخصية ابليس فهى شخصية الشيطان وكفى •

وهذه الألوان الثلاثة قوية العرض والايحاء ، وتحتل العواطف والانفعالات ورسم الشخصيات وابرازها كل هذه الألوان ليست منفصلة ، ولكن أحدها يبرز فى بعض المواقف ، ويظهر على أخويه فيسمى باسمه أما الحق فان هذه اللمسات الفنية كلها تبدو فى مشاهد القصص القرآنى على وجه العموم •

---

(١) القصص : ١٥ (٢) هود : ٧٥

اذا علمت هذا من التصوير فى القصة وأضفته كظاهرة رابعة الى كل من تنوع العرض وتنوع طريقة المفاجأة والفجوات بين المشهد تحصل لك أخيرا أربعة خصائص فنية عامة هى ما سبق أن قلنا عنها : بأنها قد حققت الغرض الدينى للقصة عن طريق الجمال الفنى ليكون ورودها الى النفس أيسر ووقعها فى الوجدان أعمق .

أين نحن من قصص القرآن ؟

لقد لاحظنا بعد هذه التطوافة السريعة بعض السمات البارزة فى قصص القرآن منها :

أنه قصص نظيف ، وليس المقصود بالنظافة هنا أنها تعرض النفس البشرية بيضاء من غير سوء ، فالقرآن يعرض تلك النفس فىجميع حالاتها ، حالة القوة وحالة الضعف ، حالة الارتفاع وحالة الهبوط ، وحالة التأرجح بين القوة والضعف والارتفاع والهبوط ، نعم القرآن يعرض هذا كله ، كما يرسم الدوافع المختلفة التى تنتاب نفوس البشر فى هذه الأرض فتدفعهم حينا الى اللصوق بالطين ، وتتيح لهم أحيانا الانطلاق ، ومنشأ هذه النظافة أنه حين يلم بلحظة « الضعف البشرى » لا يصنع منها بطولة تستحق الاعجاب والتصفيق ، انه يعرضها عرضا واقعيا خالصا ، ولكنه لا يقف عندها طويلا وانما يسرع ليسلط الأضواء على لحظة الافاقة لحظة التغلب على الضعف البشرى لأنها وحدها الجديرة بتسليط الأضواء عليها ، وهى فى حقيقتها «الانسان» الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وعهد اليه بالخلافة الراشدة فى هذه الأرض ، فهو اذ يعرض الفتنة التى وقع فيها سليمان أو داود أو يوسف أو موسى — عليهم السلام — يعرض لحظة الضعف كما هى انها فتنة ، انها ضعف ، انها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية ولكنها — على واقعيتها لا تستحق الاحتفال الا من جانب واحد هو أن الانسان يفىء منها الى نفسه ، ويعرف انها كانت لحظة ضعف فيرتفع

عنها وينيب الى الله ، والقرآن اذ ينهج هذا المنهج فى قصصه لا يقف طويلا عند لحظة الجنس منحرفة أو غير متحرفة ، فهو اذ يعرض الناحية لا يعرضها لاثارة تلذذ القارىء أو السامع بمشاعر الجنس المنحرفة كما تصنع المذاهب « الواقعية » و « الطبيعية » فى المذاهب الحديثة لأن لحظة الجنس لا تستأهل الوقوف عندها أكثر من الحد اللازم اذ أنها ليست هى الحياة انما هى وسيلة من وسائل الحياة ، انها عارض يعرض ويقضى ، يقضى ليفسح المجال لأهداف الحياة العليا الجديرة بالتحقيق ، يفتح المجال للتصور الايمانى الكبير للكون والحياة والانسان

ومن ثم لا تستحق لحظة الجنس فى قصص القرآن الوقوف عندها طويلا واعادتها ، والتفنن فى عرضها لأن ذلك كله اسراف فى المقادير بالنسبة لما يلزم للحياة البشرية ، وتحويل الوسيلة حتى تصبح غاية وهى ليست كذلك ولا ينبغى أن تكون •

تلك قاعدة مرعية فى كل قصص القرآن عن « الفاحشة » وهى كذلك ينبغى أن تكون مرعية فى كل القصص الاسلامى على وجه العموم •

ان الاسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية ــ نظيفة أو غير نظيفة ــ ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف ، ولكن يعرضها كما ينبغى أن تعرض لحظة ضعف لا لحظة بطولة ، ولحظة عابرة يفيق منها الانسان الى ترفعه الواجب ، ولا يظل دائرا فى حلقتها على الدوام •

واننا اذ ندعوا الى تطهير الفن من واقعيته السخيفة ــ حتى نكون اسلاميين وقرآنيين ــ لم نغفل بحال من الأحوال لحظات الضعف والهبوط هذه لأنها فى طبيعة الانسان وجبلته كما أننا لم نرد الغاء تصوير المشاعر الخسيسة من الحساب أو تصوير الانسان ملاكا بلا خطايا ، كلا انما هدفنا من وراء هذا كله أن نبين الى أنه من الواجب

أن يركز الضـــوء على لحظات الارتفـــاع فوق الواقع لا على لحظات الهبوط أقول : يجب اتبـــاع منهج القـــرآن والتأسى به فى مختلف تصـــويره وشتى ألوانه ، ولا أعنى بذلك تقليده فى طريقة معالجته لموضوعاته كلا اننى أريد الاستفادة منه فى مفاهيمه وطرائق أدائه التوجيـــه » .

فحين نجد القـــرآن الكريم مثلا يســـتخدم القصة « للتربية » ويضمنها كل توجيهاته المتمشية مع مفاهيمه عن الكون والحياة والانسان، فاننا نكون اسلاميين وقرآنيين حين ننشىء القصة الهادفة ونستخدمها للتوجيه الفنى لا الوعظى ، ونجعل هذا التوجيه فى سبيل رفعة الانسان وانطلاقه لا فى سبيل هبوطه وانحلاله ، وليس معنى هـــذا أن الفن الاسلامى فى ذلك الحين سيكون مقيدا بالموضوعات القرآنية ، وبأغراض التعبير القرآنى وطرائقه لا ، ان له أن يختار من الموضوعات والأغراض والطرائق ما يشاء .

ولكنه على أية حال مقيـــد بقيد واحد وملتزم بشرط واحد وهو أن ينبثق من التصور الاسلامى للوجود الكبير، أو على الأقل لا يصطدم بالمفاهيم الاسلامية عن الكون والحياة والانسانية ، ولا ينحرف عن هذه المفاهيم لأن الناموس الأكبر الذى يشمل الوجود كله لايرتطم بحال من الأحوال مع هذه المفاهيم كما لا يضادها أو حتى يقف فى طريقها ولنضرب لذلك الأمثال :

اننا حين ننادى بما قلناه لا نريد للفن الاسلامى أن يحسن الشر أو يقبح الخير كما لا نريد له أن يدعو للمنكر أو يبارك لحظة الضعف ويجعل منها بطولة تستحق اعجاب ، لا نريد له هذا فى الوقت الذى نأبى فيه أن يقبع هذا الفن داخل واقعه الصغير الذى تحكمه الضرورة القاهرة ، ويهمل الواقع الكبير الذى يتسع للضرورة كما يتسع للانطلاق منها .

نريد للفن ألا يفصل بين الأرض والسماء لأن هذا الانفصال ليس حقيقة ، ولا بين الانسان والله فذلك أيضا ليس حقيقة ، نريد أن يوسع لوحته التى تجرى عليها أحداثه واشخاصه ،فلا يقف بحادثة عند دلالتها المفردة ، ولا ببطله عند كيانه الفرد ، وانما يجب أن يشير الى دلالتها الشاملة ، ويشير ببطله الى « الانسان » من وراء الظروف والملابسات يجب أن ترسم يد القدر من وراء الأبطال والأحداث على أنها القوة المهيمنة ، القوة الموجهة ، القوة المريدة التى تسـير كل شيء بمقتضى الناموس الأكبر الذى يحكم هذا الوجود •

ومن هنا فانى أقول صادقا : انها خسارة كبيرة تلك التى جناها العرب من وراء عزوفهم عن قرآنهم يستمدون منه وحيهم الفنى ، وهذه حقيقة لا نبطىء تجاهلها بل يجب أن تكون فى الاعتبار حتى ننقى أدبنا مما علق به من أرجاس وأدناس •

أقول : أخرجوا كل القصص التى تزين الفـاحشة أية فاحشة نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو خلقية — وتظهرها فى صورة جميلة فليس ذلك حقيقة • أخرجوا كل القصص التى تعرض نقائص الانسان فى صورة علمية بارزة على أنها وحدها حقيقة الانسان الأصيلة العميقة فليس ذلك حقيقة •

أخرجوا كل القصص التى تقلب القيم فتصور انتصار الشر على الخير على أنه سنة كونية فليس ذلك حقيقة — وان بدأ فى فترة معينة من الزمن أنه حقيقة — •

أخرجوا كل القصص التى لا تهدف الى شيء ، فليس حقيقة أن هناك شيئا بلا هدف فى هذا الوجود •

أخرجوا هذا القصص كله من دائرة الفن الاسلامى ليتسع المجال

اتساعه الحقيقى لتصوير الحيـــاة بأسرها والنفس البشرية بمختلف انفعالاتها حتى تلتقى الحقيقة الكونية بالجمـــال الكونى بلا تعارض ولا اصطدام لأنه لا تعارض فى نظرة الكون بين الحقيقة والجمال •

وبعد فقد رأينا فيما مضى من سطور كيف حقق القصص القرآنى غايته المنشودة ، وهدفه المرسوم عن طريق ما فيه من جمال فنى ، وأننا حين نستمتع بهذا الفن فى القصص القرآنى ـ شكلا وموضوعا ـ يدركنا الأسف ولا شك على أن الأدب العربى قد خلا تقريبا ـ الى ما قبيل العصر الحديث ـ مما يمكن أن يسمى قصة فنية حقيقية مع وجود هذا الذخر الفنى فى كتاب العرب المسلمين الذين يتلونه آناء الليل وأطراف النهار ، ذلكم لأن هذا الفن حين وجد لم يستمد من هذا الأصل الكبير انما استمد مادته من التصورات الأجنبية كما استمد منها طرائق الأداء •

ونحن لا ننحى عليه باللائمة لاستمداد طرائق الأداء من هناك انما ننحى عليه أخذه التصورات والايحاءات أيضا ، أما كان استمدادها من النبع الأصيل أجدى علينا وعلى البشرية وأكمل وأجمل بل وأكثر اتساقا مع كمال الكون وجمال الحياة ؟!

وعلى العموم فأيا ما كانت أســباب هذا العزوف لانصراف فى المــاضى فلا تزال الفرصة قائمة للافادة من هذا الرصيد الضخم واقامة فن انسانى سامق على أساس من التصوير الاسلامى للكون والانسان والحيــاة •

ان الفن الاسلامى فى حاجة ماسة وشديدة لأن يراجع القرآن فيما يخص القصة بالذات • وقد يقال : أليست القصة فى القرآن لونا من ألوان الفن ، والقرآن ككتاب دين فما له والفن ؟

أقول : ان الدين فى المفهوم الاسلامى أمر شامل محيط •• انه ليس عبادات معينة ينقطع لها الناس فترة من الزمن عن تيار الحياة ،

وانما الدين هو المنهج الشامل للحياة : حياة المشاعر ، وحياة الأفكار وحياة السلوك وحياة الوجدان •

فاذا علمنا أن الفن هو التعبير الجميل الموحى عن هـذه الحياة أدركنا تمام الادراك أن الدين والفن صنوان لا يختلفان فهما متحابان بالطبع متفقان بالجوهر والغريزة فلا ضير اذا التقيا التقاء كاملا فى الحس المسلم على شريطة أن يكون الفن قائما على التصور الايمانى للوجود والمشاعر والأفكار والسلوك والوجدان •

والتزام الفن بالمفاهيم الاسلامية لا يضيق من رقعته كما لا يحصر حدوده •• بل هو يوسع الرقعة ويوسع الحدود على سواء حتى تشمل الكون كله والحياة بأسرها والانسان فى أشمل نطاق يمكن أن يخطر فى حس انسان •

وهذا الالتزام ينظف الفن تنظيفا شاملا « فاذا كانت النظافة قيدا من جانب فهى فسحة من جانب آخر لأنها تطلق النفس من قيود الضرورة القـاهرة الى عالم الطلاقة والحرية والجمال والاشراق » ولا معدى بعد هذا كله من أن نقرر أن القرآن الكريم هو المرجع الذى ينبغى أن ترجع اليه الفنون الاسـلامية أو القصص الحر على وجه الخصوص وان أية قصة تتبع هذا المنهج القرآنى يكتب لها البقـاء والخلود •

فهل لنا بعد هذا أن ننقى أدبنا من قصصه الرخيص الشائن الذى يملأ سوقنا ــ للأسف ــ فى هذه الأيام ثم ماذا علينا لو التزمنا بقصص القرآن الكريم كمنهج رشيد لفننا الاسلامى •

ان القصص القرآنى بحر لا يغيض ملىء بالخير والارشاد فهل لنا أن نلتقط توجيهه وارشاده « عسى أن يكون ذلك قريبا » •

الفصل الرابع

التصوير البيانى فى القرآن

تشبيهات القرآن :

فى هـذا الكتاب •• الذى نزل على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليكون معجزته الكبرى فى الرد على العرب أساطين البلاغة وأرباب البيان •• نريد أن نتأمل ما احتواه ذلك الدستور الالهى من روائع التشبيه ونماذجه العليا ، وأن نقف برهة أمام هذا الينبوع الغنى المتجدد من الجمال والسحر ، وربما كان التذوق الخالص من الدراسة الفاحصة شيئا جميلا تتحرك له النفوس ، ويهز له الوجدان ، ولكن الدارس الذى يجعل هدفه الأصيل بيان مواطن الحسن ، والكشف عن أسبابه وعلله ، لا يقنع برؤية الجمال رؤية سطحية وانمـا يتغلغل فى أعماق الشىء ــ ما استطاع ــ حتى يصل الى جوهره ولبه ، وهذا ــ فى حد ذاته ــ غاية من غايات العلم فى اطاره العام •

ان أول ما يلفت النظر ــ فى صور التشبيه القرآنية ــ هو انتزاع أجزائها من عناصر الطبيعة ، ومن ثم جاء استمرار حيويتها الدائمة استمرار الطبيعة نفسها ، كلما وقعت أعينهم على الأشياء المحيطة بهم ، فنحن لا نكاد نجد فى تشبيهات القرآن تشبيها واحدا يدرك جمـاله شخص دون آخر ، أو يتأثر به انسان دون انسان ، وهـذا ما نكاد نفقده فى تلك التشبيهات المصنوعة ، والقائمة على منطق العقل وحده ، اذ لا يفهم سر الحسن فيها الا من عاش حياة صاحبها •

فالطبيعة ميدان القرآن التى استمد منها صوره التشبيهية ، وانتزع من عناصرها المختلفة تمثيلاته المختلفة ، حتى يقرب الصورة العقلية فى طبيعتها الكلية الى ذهن الانسان العربى الذى لم يكن يعرف المنطق أو الفلسفة ، وانما كان ينحصر تفكيره فيما يحيط به ، ويملأ بيئته من نبات وحيوان وجماد .. فمن النبات الذى اتخذه القرآن صورة للمشبه به : العرجون ، وأعجاز النخل الخاوية ، والعصف المأكول ، والشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، وهشيم المحتضر ، والزرع الذى أخرج شطأه .

ومن الحيوان : الانسان ، والعنكبوت ، والحمار ، والكلب ، والجراد ، والجمال ، والأنعام .

ومن الجماد : الصيب ، والجبال ، والحجارة ، والعهن المنفوش ، والرماد ، والياقوت ، والمرجان ، والخشب[1] .

وبنظرة الى تشبيهات القرآن نجدها قد جمعت أنواع التشبيه وأقسامه من حيث الأداة والوجه والمشبه والمشبه به .

فمن حيث الأداة وجدت فيه أدوات التشبيه – اسما وفعلا وحرفا – فالاسم كقوله تعالى : « **مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر** »[2] .

والفعل كقوله تعالى : « **يحسبه الظمآن ماء** »[3] **وكقوله تعالى** : « **يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى** »[4] .

---

(١) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى ١٩٦ وما بعدها .
(٢) آل عمران : ١١٧ .
(٣) النور : ٣٩ .
(٤) طـه : ٦٦ .

والحرف البسيط كقوله تعالى : « **كرماد اشتدت به الريح** »[1] وكقوله أيضا : « **كدأب آل فرعون** »[2] .

والحرف المركب كقوله تعالى : « **كأنهن بيض مكنون** »[3] **وكقوله** : « **كأنهم أعجاز نخل خاوية** »[4] . وقوله تعالى : « **كأنهن الياقوت والمرجان** »[5] .

ومن التشبيهات المحذوفة الأداء للمبالغة قوله تعالى : « **وأزواجه أمهاتهم** »[6] وقوله تعالى : « **وجنة عرضها السموات والأرض** »[7] **وقوله** : « **تمر مر السحاب** »[8] هذا .. وان اختلف البيانيون فى نحو قوله تعالى : « **صم بكم عمى** »[9] .

فقالوا : انه تشبيه بليغ أو استعارة ، وأغلب البيانيين وعلى رأسهم الزمخشرى[10] على أنه تشبيه لأن المستعار له — وهم المنافقون مذكور فى تقرير الآية ، والاستعارة من تصميمها الفنى ألا يذكر المستعار له ، وأن يجعل الكلام خلوا عنه ، بحيث تصلح لأن يراد به المنقول عنه والمنقول اليه ، لولا القرينة ، وقد قال الزمخشرى فى ذلك : « والاستعارة انما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له » وقال السكاكى : « لأن من شرط الاستعارة امكان حمل الكلام على الحقيقة فى الظاهر وتناسى التشبيه »[11] . ومن الصور التشبيهية الفنية فى القرآن الكريم ترك التشبيه لفظا وارادته معنى لأنه ان لم يرد معنى ، لم يكن منويا كان استعارة كقوله تعالى : « **حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** »[12] حيث بينا بقوله من الفجر

---

(١) ابراهيم : ١٨
(٢) آل عمران : ١١ ، الانفال : ٥٢ ، ٥٤ (٣) الصافات : ٤٩
(٤) الحاقة : ٧ (٥) الرحمن : ٥٨ (٦) الأحزاب : ٦
(٧) آل عمران : ١٣٣ (٨) النمل : ٨٨ (٩) البقرة : ١٨
(١٠) أنظر الكشاف فى تفسير الآية .
(١١) المفتاح : باب التشبيه . (١٢) البقرة : ١٨٧

والفجر – وان كان بيانا للخيط الأبيض – لكن لما كان أحدهما بيانا للآخر لدلالته عليه اكتفى به عنه ولولا البيان كانت الآية من الاستعارة[1] .

وأما تشبيه المحسوس بالمعقول ، فقد منعه بعض العلماء بحجة أن العقل مستفاد من الحس ، ومن هنا قيل : من فقد حسا فقد فقد علما .

واذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعا ، والفرع أصلا ، وهذا غير جائز ، وان وجد فى غير القرآن كقول القاضى التنوخى :

وكأن النجوم بين دجاه   سنن لاح بينهن ابتداع

وهذا ما سأوضحه فيما بعد .

وقد وجدت فى القرآن الكريم شواهد لتقسيم آخر غير تقسيمات التشبيه وهو يقع فى خمسة أوجه :

الأول : تشبيه ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه « اعتمادا على النقيض والضد ، فان ادراكهما أبلغ من ادراك الحاسة كقوله تعالى : « **طلعها كأنه رءوس الشياطين** » فالمشبه به لا يشك فى انكاره وقيمته ، لما حصل فى نفوس الناس من بشاعة صور الشياطين ولما ثبت فى الأذهان من هول منظرها ، وان لم تكن تراها عيانا فانها تدركها بالتخيل وان وجدت أدركت بالحس ومثلها قول الشاعر :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى   ومسنونة زرق كأنياب أغوال

الثانى : اخراج ما لا يحس – وهو الايمان – الى ما يحس –

---

(١) انظر المفتاح ١٨٩ والبرهان ٣ : ٤١٩ .

وهو السراب — فى قوله تعالى : « **والذين كفروا أعمالهم كسراب** » فالجامع بين المشبه والمشبه به بطلان التوهم بين شدة الحاجة وعظم الفاقة .

الثالث : اخراج ما لم تجربه العادة — وهو بهجة الحياة الدنيا وزينتها — الى ما جرت به العادة وهو نزول المطر واخضرار الأرض ، وتزينها — وظن أهلها الواهم أنهم قادرون عليها — فى قوله تعالى : « **انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** »[1] ، ويتلخص وجه الشبه ، أو الجامع هنا فى حصول البهجة والزينة وبلوغهما الغاية ، ثم الهلاك المفاجىء وذلك أمر فيه من العبرة ما فيه !

الرابع : اخراج مالا يعرف بالبديهة — وهو عرض الجنة — الى ما يعرف بها وهو عرض السموات والأرض فى قوله تعالى : « **وجنة عرضها السموات والأرض** »[2] يظهر وجه الشبه هنا فى العظم والاتساع الهائل ، ومنه يحدث التشويق الى الجنة بحسن الصفة .

الخامس : تشبيه ما لا قوة له فى الصفة — وهو السفن الضخمة — الى ما له قوة فيها — وهو الأعلام ، (الجبال) — فى قوله تعالى : « **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام** »[3] ، فوجه الشبه هو العظم ، وفائدة التشبيه بيان قدرة الله — عز وجل — على تسخير الأجسام العظيمة فى أعظم مايكون معه الماء ..

---

(١) يونس : ٢٤ (٢) آل عمران : ١٣٢ .
(٣) الرحمن : ٣٤

كما وجد فى القرآن الكريم تقسيم آخر للتشبيه ، وهو تقسيم باعتبار الوجه الى مفرد وتمثيل ، والمراد بالتشبيه التمثيلى ما كان فيه تشبيه هيئة بهيئة ، وكان الوجه فيه هيئة وبالمفرد تشبيه شىء واحد بشىء واحد ، وما كان فيه وجه الشبه مفردا كأكثر التشبيهات المتقدمة ، أما التمثيلى فمثاله قوله تعالى : « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** »(١) فالتشبيه مركب من أحوال الحمار التى منها حمل الأسفار ، التى هى أوعية العلم . وخزائنه ثمار العقول ، ثم عدم المعرفة بشىء فيها ، بل وعدم التفرقة بينها وبين غيرها من سائر الأحمال ، فليس له مما يحمل حظ سوى الأثقال على كاهله(٢) .

وكقوله تعالى : « **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً** »(٣) .

وقوله تعالى . « **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** »(٤) شبه بهجة الدنيا فى عدم الدوام على حال الهناءة والمتعة بآنق النبات الذى يصير بعد تلك البهجة والطراوة الى ما ذكر ، ووجه الشبه اما أن يكون هيئة الماء الذى اذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت ، وان أخذت على قدر الحاجة انتفعت ، فكذلك الدنيا ، وقيل : ان وجه الشبه هو الهيئة التى يكون عليها الماء اذا أخذت تطبق كفك عليه لتحفظه ، فانه لا يبقى منه شىء كذلك حال الدنيا !

كذلك وجد فى القرآن قسم ثالث وهو تشبيه المفرد بالمركب كقوله تعالى : « **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور**

---

(١) الجمعة : ٥
(٢) البرهان فى علوم القرآن ٣/٤١٢
(٣) الكهف : ٤٥
(٤) العنكبوت : ٤١

على نور يهــدى الله لنوره من يشاء »[1] فانه ــ سـبحانه ــ أراد أن يشبه نوره الذى يلقيه فى قلب المؤمن بمصــباح ، وهــذا المصباح قــد اجتمعت فيه أســباب الاضاءة من وضعه فى مشــكاة [2] تجمع خيوط الضوء وتركزه فى موضع واحد ، وقد وضع هذا المصــباح فى زجاجة صــافية شفافة ينفــذ منهــا الضوء الســاطع فى حدة ، ثم نأتى لزيت المصــباح فنجــده من أصفى وأنقى أنواع الــدهن وأقواها وقودا ، لأنه من زيت شجرة وصفها بأنها **« مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ! »** وقد يتوهم أن التشبيه فى هذه الآية الكريمة الرائعة مقلوب ، لأن نور الله أقوى من نور المشكاة ، ولكن المشبه به فى هذه الآية أقوى من المشبه فى الذهن لكونه أوضح ، ومن ثم فالاحاطة به أتم وأكمل[3] ، وأما قوله تعالى : **« ان مثل عيسى عنــد الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »**[4] فهو من تشبيه الغريب بالأغرب لأن خلق آدم أغرب من خلق عيسى ، وذلك ليكون أقطع للخصم ، وأوقع فى النفس ، وفيه دليل على جواز القياس ، وهو رد فرع الى أصله لشبه ما ، لأن عيسى رد الى آدم لشبه بينهما ، والمعنى أن آدم خلق من تراب ، ولم يكن له أب ولا أم ، فكذلك خلق عيسى من غير أب ، وفى هذا نصف مماثلة فجاز القياس وحسن الحمل عليه • ويهمنا هنا أن نشير الى نقطة هامة ، وهى أن الأصل فى التصوير البيانى بوسيلة التشبيه أن تدخل أداة التشبيه على المشبه به حتى تكون الصورة التشبيهية كاملة ، كقولنا مثــلا : ليست الفضة كالذهب ، وليس العبــد كالحر ، ولكن قد تخالف هذه الصورة وحينئذ تدخل الأداة على المشبه ، وقد وجد هذا النوع فى القرآن الكريم ، ويحسن بنا أن نعرض الى الأسباب التى تستدعى دخول الأداة على المشبه • من هذه الأسباب :

---

(١) النور : ٣٥
(٢) الطاقة غير النافذة .
(٣) البرهان ٣/٤٢٦ .
(٤) آل عمران : ٢٥٩

١ ــ وضوح الحال كما فى قوله تعالى : **« وليس الذكر كالأنثى »**[١] فان أصل التشـــبيه أن يقال : وليس الأنثى كالذكر ، وانما عدل عن الأصل : أما لأن وليس الذكر الذى طلب كالانثى التى وهبت ، لان الأنثى أفضل منه ، واما مراعاة الفواصل لان قبلها « انى وضعتها أنثى » وهذه الصورة ليست من التشبيه المقلوب كما يتبادر الى الذهن ، وكما وقع لابن الزملكانى فى كتابه « البرهان فى اعجاز القرآن » حيث عد هذه الآية من التشبيه المقلوب .

٢ ــ قد تدخل الأداء على المشبه للمبالغة ، وبذلك تعد الصورة فى هذه الحالة تشبيها مقلوبا ، ويجعل المشبه أصلا كقوله تعالى :**« قالوا انما البيع مثل الربا »**[٢] كان الأصل أن يقال : انما الربا مثل البيع ، لأن الكلام فى الربا لا فى البيع ، ولكنهم عدلوا عن ذلك وتجرؤا اذ جعلوا الربا أصلا ملحقا به البيع فى الجواز ، وأنه الخليق بالحل ..

ومنه قوله تعالى : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » فان الظاهر من الصور القرآنية العكس فى المعنى ، لأن الخطاب لعبدة الأوثان ، اذ كانوا قد سموها آلهة تشبيها بالله ــ سبحانه وتعالى ــ وجعلوا غير الخالق مثل الخالق فى استحقاق العبادة والاسلام له فى كل شىء ، فخولف فى خطابهم لأنهم بالغوا فى عبـــادتهم وغالوا حتى صارت عندهم الآلهة الجمادية أصلا والخالق ــ سبحانه ــ فرعا ، والظاهر أنهم لمـــا قاسوا غير الخالقبالخالق خوطبوا بأشد الالزامينوهو تنقيصالمقدس لا تقديس الناقص ! وللسكاكى فى هذا التشبيه رأى ،وله عليه تخريج فيقول : « انه لمزيد التوبيخ ... وعندى أن الذى تقتضيه البلاغة القرآنية هو أن يكون المراد بمن لا يخلق الحى العالم القادر من الخلق لا الأصنام . وأن يكون الانكار موجها الى توهم تشبيه الحى العالم القادر من الخلق به ــ تعالى وتقدس عن ذلك ..

---

(١) آل عمران : ٣٦ (٢) البقرة : ٢٧٥

تعريضا به عن أبلغ الانكار لتشبيه ما ليس بخالق بالخالق ويكون قوله : « **أفلا تذكرون** » تنبيه يوقظهم من سبات الجهل والضلالة الى صباح من الحق مبين •

ومنه قوله تعالى : « **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** » [1] وقوله تعالى : « **أم نجعل المتقين كالفجار** » [2] ••خالفت الصورة التشبيه أصلا فى الآيتين السابقتين لأمرين :

الأول : ان الكفار كانوا يقولون : نحن نسود فى الآخرة كما نسود فى الدنيا ، ويكونون ــ أى المسلمين ــ أتباعا لنا ، فكما أعزنا الله فى هذه الدار يعزنا فى الآخرة ، فجاءت الصورة الكلامية للجواب على معتقدهم الفاسد ردا مقنعا وبليغا •

الثانى : لما قيل قبل الآية : « **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا** » [3] أى يظنون أن الأمر مهمل ، وأنه لا حشر ولا نشر ، أم لم يظنوا ذلك ، ولكن يظنون أن نجعل المؤمنين كالمجرمين ، والمتقين كالفجار ويصح أن يقال : ان التشبيه فى الذم يشبه الأعلى بالأدنى ، لأن الذم مقام الادنى ، والاعلى ظاهر فيشبه به فى السلب ، ومثله قوله تعالى : « **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء** » [4] أى فى النزول من العلو ، ويكون التقدير فى الآيتين : أى نجعلهم مثلهم فى سوء الحال وانحطاط المنزلة • وقد تأتى الصورة التشبيهية ــ فى القرآن الكريم ــ ويخيل للناظر اليها أن فى الكلام تشبيها ، وأن الأداء الموجودة فى الصورة ألحقت شيئا بشىء ، وأشركتهما فى صفة زادت فى المشبه به عن المشبه ، ولكن الحقيقة التى تظهر للباحث المتأمل غير ذلك •

---

(١) سورة القلم : ٣٥ — (٢) ص : ٢٨

(٣) سورة ص ٢٧ • — (٤) الأحزاب : ٢٣

فانظر — مثلا — الى الصورة الكلامية التى تتضمنها هذه الآيات ، وتأمل أداة التشبيه لتعرف : ماذا فعلت هذه الأداة ؟

تأمل قوله تعالى : « **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ، كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم ، بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون** »[1] .

وقوله تعالى : « **انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول** » [1] . فالأداة فى هذه التشبيهات لم تلحق ناقصا بكامل ، كما لم تزد المعنى جلاء ووضوحا وهو الغرض الاساسى للتشبيه ، وانما انحصر عملها فى ايجاد المساواة بين أمرين ، ولذلك يحسن أن تسمى هذه الكاف — فى مثل هذه الصورة أداة المساواة [3] وفى هذا الاطار نرى قوله تعالى : « **انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده** » [4] فالتشبيه فى الآية لا يؤدى شيئا ، ولا يوضح معنى ، ولا يخرج الخفى الى الوضوح والجلاء ، وانما الذى نلمحه هو ازالة الغرابة من نفوس السامعين ، واستبعادهم نزول الوحى على الرسول — صلى الله عليه وسلم — فالقرآن يقرنه — على طريقة القياس الواضح البسيط — بما لا يشكون فى رسالته ، ليأنس المستغرب الى الدعوة ، وليطمئن المضطرب فى أمره الى حقيقة الرسالة . وقد يكون هذا التساوى مثار التهكم كقوله تعالى : « **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** » [5] .

---

(١) التوبة : ٦٨ ، ٦٩
(٢) المزمل : ١٥ ، ١٦ .
(٣) أنظر بلاغة القرآن ٢١
(٤) النساء ١٦٣
(٥) الأنعام ٩٤

أو الاستنكار ، كقوله تعالى : « **ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** » [1] فسر الاستنكار ومرده هنا هو اقامة التسوية المتوهمة بين فتنة الناس وعذاب الله .

وبعد هذا الاستعراض المتواضع لبعض صور التشبيه فى القرآن الكريم ، أحب أن أقرر أن الهدف لم يكن الاستقصاء الكامل الذى يحيط بكل صغيرة وكبيرة ، وانما قصدت التدليل الصريح على أن القـرآن يحوى أغلب أنواع الصور التشبيهية وأقسامها التى عرفها علماء البلاغة كما أننى سأحاول — فيما يأتى — توضيح الفرق الهائل بين تشبيهات القرآن وبين تشبيهات العرب وفى هذا المجال ربما ظهر التكرار فى بعض الآيات الشريفة ، والذى أريده هو أن أنفى العيب عن هذا التكرار ، لأن الهدف قد اختلف ، والقصد قد تحول الى وجهة أخرى .

أول ما يلاحظ الباحث عن تشبيهات القرآن أنها تتمثل فى تشبيه محسوس بمحسوس ، أو تشبيه معقول بمحسوس ، وليس معنى هذا أن الحس وحده هو الذى يجمع بين طرفى التشبيه ، ولكن الذى يجمع فى الحقيقة هو النفس والحس معا ، بل نرى أن دخل النفس أكثر حظا وأوفر اسهاما فى تركيب التشبيه نفسه ، ذلك لأن القرآن — فى تشبيهه المحسوس بالمحسوس — اما أن يهدف الى رسم الصورة كما تحس بها النفس كما فى قوله تعالى : « **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** »[2] . فقد تم تصوير الأمواج المرتفعة بالجبال فى الضخامة ، ومن ناحية أخرى فهى تصور احساس ركاب السـفينة المضطربة ، بين الغرق والنجاة بمشاهدتهم هذه الأمواج ، ورهبتهم منها ، وقوله تعـالى : « **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** » [3] فهنا يرسم القرآن حالة الجبـال يوم القيامة عندما تصير هشة لا تتماسك ذراتها ، وفى نفس الوقت يرمى

---

(١) العنكبوت : ١٠
(٢) هود : ٤٢١
(٣) القارعة : ٥

القرآن الى هز النفس بتصوير أقوى الاشياء لها فى صورة لينة الى السخرية من عظمتها الحالية ، وتأخذ بيد المتأمل الى الايمان بخالق ثابت لا يتغير ..

وقوله تعالى : « **انها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر** » (١) فالصورة هنا تبرز الشرر المتطاير من أتون جهنم فى هيئة الشجر العظيم الملتف ، والجمال الضخمة الصفراء ، ولا شك فى أن هذا التصوير يوحى الى النفس برهبة الموقف ، وذلك عندما يتخيل الانسان شررا فى مثل هذه الضخامة والهول ، فلا شك أنه يهتز ، وتتحرك أعماقه رهبة من عذاب الله ، وخشية من وسائل تعذيبه ..

وقد يشترك الطرفان فى صفة محسوسة ولكن يلاحظ أن النفس فى اختيار المشبه به الذى له تلك الصفة نصيبا كبيرا كقوله تعالى فى وصف نساء الجنة :« **كأنهن بيض مكنون** » (٢) وقوله : « **كأنهن الياقوت والمرجان** » (٣) وقوله :« **وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون** » (٤)

فليس فى الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون يشوق السامع فحسب ، بل فيه ـ بجانب ذلك ـ هدوء صاف ، ونقاء شفاف ، وهذه وتلك من غايات النفس العليا التى تتوق اليها فى شوق دائم ، وحنين مستمر .

هذا بالاضافة الى أن هذه الأحجار الكريمة من الأشياء التى تصان ان امتلكت ، ويحافظ عليها ان صارت فى يد الانسان .. كذلك نساء الجنة لهن نصيب وافر من تلك الصيانة والحفظ ، ومن هنا يزداد الحرص عليهن فى تجدد ولهفة .. أما الرابط بين النساء والبيض المكنون ، فانه يعطى معنى كبيرا يتمثل فى المعاملة الرقيقة لهن .. تماما كما يتصرف

---

(١) المرسلات : ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) الصافات : ٤٩
(٣) الرحمن : ٥٨ .
(٤) الواقعة : ٢٢ ، ٢٣ .

الانسان مع بيض الطيور ذى الغشاء الرقيق ! ! ولا شك أن الرابط هنا لا يقف عند دائرة الحس ، بل انه يتخطى حدود هذه الدائرة ليرتبط بالنفس فى تعاطف شديد ، ويتطلب كثيرا من العواطف والأحاسيس ، حتى تنفعل معه ، ثم يحدث التأثير والافهام الذى هو الغاية الأساسية من كل كلام أدبى بليغ .

واذا ما أتينا الى تشبيه المعقول المعنوى بالمحسوس وجدنا العمل الذى يقوم به مثل ذلك التشبيه من توضيح الأمر المعنوى — الذى يتصف بالكلية وعدم التحديد — بالحس الواقعى — الذى يتصف بالجزئية المحصورة فى دائرة الحواس — وما أوضح ذلك فى تشبيه وهن ما اعتمد عليه المشركون فى عبادتهم غير الله ، وعدم الفائدة المرجوة من هذه العبادة الباطلة من الأساس .. ببيت العنكبوت الذى يجهد نفسه فى بنائه ، ويبذل طاقته كلها فى نسجه وتنظيمه ... يفعل كل هذا وهو لا يبنى سوى أوهن بيت فى الوجود .. « **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** » [1] وهكذا نرى أبعاد الصورة المعنوية تتحدد ، وظلالها تتضح وتظهر أكثر انكشافا [2] .

والغالب فى تشبيهات القرآن الكريم أن الفائدة التى تحصل منه تعود الى المشبه ، فهى — كما رأينا فيما سبق — توضحه وتحدده ، وتقرب به من الأذهان ، ومن هنا كانت الصفة الرابطة بين المشبه به والمشبه — أو بعبارة أخرى : وجه الشبه — أقوى فى المشبه به من المشبه .

وعلى هذا فقد يعترض معترض بقوله تعالى : « **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** » **الآية**[3] ..

---

(١) العنكبوت : ٤١ (٢) أنظر من بلاغة القرآن ٢٨ .
(٣) النور : ٣٥ وانظر ص ٣٢٣ من هذا الكتاب .

بأن الصفة التى تجمع الطرفين أقوى فى المشبه عن المشبه به ، وهذا ما يتخيله الناظر من أول وهلة ، ولكن الباحث المدقق اذا تأمل فى المعنى علم أن المـــراد بالنور هنا : النور الذى يغمـــر القلب ، ويشرق على الضمير ، فتتضح الرؤية الصحيحة للعقل البشرى فى معرفة الحق ، والسير الواثق فى طريقه ، والقلب لا يحتاج أكثر من هذا المصباح ؛ يلقى عليه أشعته الالهية ، فيكشف له جميع الفراغات المنطفئة التى كثيرا ما يتهاون فيها الانسان بوعى أو بلا وعى •

كما أن الصورة التشبيهية هنا توحى بحالة القلب المتردد الذى لفه ظلام الشك وليل الظنون ، حتى صار مضطرب الخفقان يترقب •• ثم لا يلبث أن يفجأه القنديل الالهى بأنوار الحق واليقين ، والطمأنينة والاستقرار ، وما أبدع التصوير والترشيح فى وصف ضوء المصباح من أنقى أنواع الزجاج ، وأكثره شفافية ، ولم يكتف بابعاد هذه الصورة المشرقة بل جعل زيت المصباح من شجرة مبـــاركة •• دهنها من أطيب الدهون وأصلحها فى الاضاءة •

فلا شك بعد هذا التركيب المبدع أن يتكفل هذا المصباح بسحق جميع خيوط الظلام المنسوجة حول قلب الانســـان ، وتحطيم قضبان الشك القائمة على العقل كسجن رهيب •

ما هو السر فى خلود تشبيهات القرآن ؟

حقا ان تشبيهات القرآن الكريم تشتمل على عناصر قوية تمكنها من البقاء والاستمرار ، وتمدها بمزيد من الحيوية لا ينفد •• وتلك ظاهرة تؤكدها تلك القرون الكثيرة التى مرت على نزول القرآن حتى الآن • كعلماء البلاغة والنقاد ما زالوا فى دهشة من روعة هذه التشبيهات ، هذا مع اعترافهم الصادق ــ فى الوقت نفسه ــ ببلوغ القـــرآن فى هذا الأسلوب التشـــبيهى أو التمثيلى قمة عالية من الفن •• لم يستطيع

متطاول ما ـ مهما بلغت منزلته فى البيان ـ أن يصل الى مبدئها •• فكيف بمنتهاها ؟ !

ربما تكون الاجابة على سؤالنا المطروح قد مرت فى ثنايا حديثنا السابق ، ولكن أهمية هذه النقطة بالذات تجعلنا نلقى عليها مزيدا من الضـــوء •

ذلك أن القرآن الكريم قد استمد تشبيهاته ـ أو بتعبير أدق : عناصر هذه التشبيهات من الطبيعة نفسها ، تلك الطبيعة التى مازالت تشهد مرور الأجيال البشرية ، وهى ثابتة على حالتها المتغيرة ، ومن هنا نلحظ ارتباط الانسان ـ فى أى جيل ـ بهذه الطبيعة التى تمثل المسرح الذى يمثل عليه الجنس الآدمى دوره فى الحياة •• وكلما امتزجت عناصر هذا الاختلاط بين الانسان والطبيعة ازدادت القرابة بينهما ، وبرزت الألفة القائمة على معرفة الانسان بأدق مظاهر الطبيعة ، فلا غرو أن ينزل القرآن على محمد ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ محتويا على تشبيهات قد استمدت أجزاءها المكونة من هذه الطبيعة التى أثبتنا لها مع الانسان القرابة والألفة ، وهكذا لا نجـــد غرابة فى عموم هـــذه التشبيهات •• ذلك العموم الذى جعل الناس كلهم على سواء فى ادراكها، فهى تختلف كل الاختلاف عن تشبيهات العرب فى الجاهلية مثلا لأن هذه الأخيرة مستمد من بيئة خاصة لايدركها الا من عاش فى هذه البيئة ، وعاشر أشياءها علىاختلاف طبقاتها من نبات وحيوان وجماد • فالطبيعة ـ اذن ـ هى ميدان التشبيهات القرآنية ، منها استمدت حيويتها ، وتجـــددها الدائمين دوام الانسان والطبيعة • وقد ســـبق توضيح ذلك فى أول تشبيها تالقرآن •

بقيت مســـألة هامة نريد التعرض لها وهى : تماســـك الصور التشبيهية فى القرآن تماسكا شديدا يجعلها بحيث لوحاولنا فصل أحد الأجزاء لانفرط عقد الصورة ، وانتثرت معالم الجمال فيها ، ومن هنا

نرى القوة البيانية متمثلة فى اعطاء الفكرة عن طريق الصورة التمثيلية مركبة الاجزاء ، والعجب فى ذلك أن التشبيه أو التمثيل نفسه لم يأت عبثا ، ولكننا نراه يجىء عقب فكـــرة يراد توضيحها وتمكينها فى ذهن السامع ، هذا لمـــا نعلمه من أن الحجة لا تقام الا بعد طرح الدعوى وبسط الفكرة • تأمل مثلا ــ قوله تعالى **« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين »**[1] •

فقد يتوهم أن المعنى يفهم لو اقتصر فى التشبيه على قوله : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل •

ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقا حين يقرن بقية أجزائها اليها من حمل الأسفار ، وعدم الفقه بما فيها ، واعتقاد أنها كبقية الاحمال تثقل الكاهل ، وتجهد القوى ، وذلك فى جميع أبعاده يطابق حال اليهود وقد منحوا التوراة لتكون لهم نبعا يســـتقون منه الحكمة والهداية ، ولكنهم يحملونها ويكتفون باثقال سواعدهم بها دون أن يتدبروها ، كأن على قلوبهم الأقفال ••

فتمام الصورة لا يحصل الا بتجميع كل هذه الأجزاء ، والصاق كل تلك القيود ، ومن هنا تبرز الصورة قوية التعبير صادقة الأداء •

وانظر الى قوله تعالى فى تصوير نفرة الكفار من الدعوة الاسلامية : **« كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة »** قد يظن أيضا قصير النظر أنه كان يمكن الاكتفاء فى تصوير حالتهم بوصفهم بالحمر ، ولكن المراد غير ذلك ، فالمشركون لا يريدون اعمال عقولهم فى خلق السموات والأرض ليهتدوا الى الخالق ، وهم ــ فى الوقت نفسه ــ لا يســـتجيبون الى

---

(١) سورة الجمعة ٥ .

الداعى ، بل كلما عرض عليهم شيئا من دعوته ابتعدوا عنه مسرعين . وكان فى أمامهم شيئا يحثهم على الهرب منه ، والابتعاد الخاطف من طريق دعوته .. هذه الحالة لا تكفى لها حالة الحمر ، وانما تقتضى كون هذه الحمر مستنفرة مدفوعة — من نفسها أو من غيرها — الى العدو الجبان ، ثم تزداد الصورة وضوحا ، وتمكنا فى النفس عندما يلحق بها جزئية الفرار من أسد هصور يطلبها طعاما لأنيابه ومخالبه ، فنجدها تتفـــرق فى كل مكان . هائمة على وجهها ، والخوف الشـــديد يملأ صدرها — . فهذا أبلغ تصوير لاعراض الكافرين عن الدعوة ، وهو فى الوقت نفسه بعث للنفوس العاقلة على السخرية منهم (١) .

ومن ناحية أخرى .. هى أن تشبيهات القرآن تمتاز بعنصر هام من العناصر التى تجعل الكلام موحيا مشعا لا يكاد ينقر حبات القلوب ، حتى يؤثر فيها بطريقة فنية ونفسية عجيبة .. ذلك العنصر هو انتقاء ألفاظ التشبيهات ، واختيارها اختيارا مناسبا للمعنى ، معطيا كل ما يتطلبه المقـــام .

والتشبيه فى القرآن — بصفة خاصة — نجده يؤثر فى العاطفة رغبة ورهبة ، فهو أسلوب أحسن استخدامه على أتم وجه ، ومن ثم فقد نراه يؤدى دوره وهو متمكن من نفسه ثم من نفوس السامعين . يتضح ذلك فى معظم التشبيهات التى تتعلق بالكفار والمنافقين ودعوتهم الى الاسلام ، ثم فى تصوير عناد هؤلاء وأولئك وكيدهم الظاهر والمستتر للدعوة فى جميع مراحل نموها ، كما أ نالقرآن يعطى نصيبا كبيرا ليوم القيامة وتصوير ما فيه من محن وأهوال ، وفى هذا المجال يبرز التشبيه كوسيلة تقرب للأذهان ألوان النعيم ، وصور العذاب فى هذا اليوم

---

(١) انظر هامش ص ٢٠٠ من بلاغة القرآن .

الموعود ، كما يصور أمر البعث ، ويؤكد فى نفوس الناس امكان حصوله بضرب الأمثال ، وعقد التشبيهات التى يقف أمامها المتأمل وكأنها صورة حية واقعية أمام نفسه وحسه ، كما يعود القرآن بالانسان الى نشأته الأولى ، وبدء حياته منذ نفخ الله فى جسمه الروح فصار حيا يتحرك •• كيف خلق ؟ وممم خلق ؟ كما يصور حال الناس الحاضرة ، ويتعرض لبعض العادات الدنيئة ، كتصويره لحالة آكل الربا بأبشع صورة ينفر منها الذوق الانسانى وتشمئز منها النفوس الصحيحة •

ويبدع القرآن أيما ابداع فى تصوير فناء هذا العالم ، ودمار تلك الحياة التى يظن أصحابها أنهـا باقية خالدة لا شىء بعدها •• **« واضرب لهم مثل الحياة الدنيـا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا »**[1] •

وقوله تعالى : **« انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعـام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »**[2] •

وقوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نبـاته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما »[3] •

فهذه آيات ثلاث ترمى الى هدف واحد وهو عدم الثقة فى الحياة الدنيا الى حد اعتبارها خالدة ، وأنه لاحياة بعدها ، ولكن الأسلوب

---

(١) الكهف ٤٥ (٢) يونس ٢٤
(٣) سورة الحديد ٢٠

تجده قد اختلف بعضه عن بعض فى درجات متفاوتة ، ولكنها تمثل جميعا قمة التعبير الأدبى عن هــذا المعنى الخالد • ومن جهة أخرى نلتقى بالقرآن الكريم وهو يصور شأن المــال فى يد الانسان حينما يرجو منه بدله ، ويدعوه الى الانفاق منه على البائسين والمساكين فبالرغم من أهمية المــال وقيمته لدى الانسان حتى ان القرآن نفسه فى موضع آخر قد قدمه على الأبناء فى قوله : « **المــال والبنون زينة الحيــاة الدنيا** »[1] نجد القرآن يقدم المغريات لهذا الانسان ــ الذى يعلم منه الحرص والشره ، على جمع المــال واكتنازه ــ حتى ينفق منه بسخاء وطيب خاطر :« **مثل الذين ينفقون أموالهم فى ســبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل ســنبلة مائة حبة** »[2] •• ويقول فى موضع آخر : « **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغــاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين** »[3] •

فمن هذا وأمثاله نجد الترغيب فى البذل مصورا تصويرا بليغا ، وقائما على أسس نفسية تحرك عواطف الانسان ، وتعمل فى وجدانه الذى هو أقوى من عقله فى الاندفاع الى الأمر المرغوب فيه • وبعد •• فكل ما أرجوه أن أكون قد وضحت صــور التشبيه فى القرآن الكريم بصورة مبسطة تقربه الى الأذهان ، وتكشف ــ فى الوقت نفسه ــ عن قيمته كأسلوب من أساليب التعبير الأدبى •

والاستعارة فرع عن التشبيه وهى كثيرة الدوران فى القرآن الكريم وان أنكر وجودها فيه بعض القدماء أمثال القاضى عبد الوهاب المالكى • لأنه رأى فى اطلاق لفظ الاســتعارة فى القرآن ابهــاما للحاجة[1] ،

---

(١) الكهف : ٤٦ . (٢) البقرة : ٢٦١ .
(٣) البقرة : ٢٦٥ .

والمجوزون لها احترسوا مما خاف منه المـالكى فاشترطوا البعد عن الابهام ـ وهو بلا شك غير موجود فى القرآن ـ وقال القاضى نجم الدين ابراهيم بن على الطرسوسى المتوفى سنة ٧٠٨ هـ : « ان أطلق المسلمون الاستعارة فيه ـ القرآن ـ أطلقناها وان امتنعوا امتنعنا » وانى لا أقف بجانب الطرطوسى فى هـذا الرأى ، وخاصة أنه متأخر ، فقد سبقه علماء كثيرون أجلاء أثبتوا وجودها فى القرآن بل بها وبغيرها من الصور البديعية أثبتوا اعجازه ، فالرمانى جعلها من نكته ، واستشهد لها من آياته ، وأبو هلال قدم شواهدها القرآنية على غيرها من الشواهد ، وعبد القاهر الجرجانى أقام الدنيا وأقعدها علي نظم القرآن الذى منه الاستعارة ، وابن أبى الاصبع المصرى عقد لها بابا فى كتابه « بديع القرآن » اسـتخرج جميع أمثلة أقسامهـا منه ، فكان الواجب على الطرسوسى ـ وهو متأخر عن هؤلاء ـ ألا يقف هذا الموقف المتردد بين الجواز والمنع ، كما أن جميع أنواع المجاز تقع تحت اسم السعة ـ والسعة ضد الضيق ، وهو قصر الكلام على حقيقة من غير خروج عنها ـ والاستعارة من المجاز فهى تعمل على التوسعة والتصوير فى التعبير وعدم الوقوف ازاء الحقيقة .

والسر فى جمال الاستعارة فى القرآن هو ـ بعد حسن تصويرها وايضاحها للمعنى وايجازها فى أدائه ـ اختيار ألفاظها وحسن تركيبها ومراعاة حسن تشبيهها الذى بنيت عليه ، فألفاظ القرآن موحية صادقة فى جعل السامع أو القارىء يحس بالمعنى أكمل احساس وأوفاه ، كما أنها تصور المنظر للعين ، وتنقل الصوت للأذن وتجعل الأمر المعنوى ملموسا محسا[٢] ، كما أنه يراعى أن ألفاظ القرآن مع ايحائها بالمراد

---

(١) أنظر البرهان للزركشى ٣ : ٤٣٢ .
(٢) أنظر ص ٢١٨ من بلاغة القرآن :

متناسبة متناسقة مؤتلفة مع بعضها ومع معانيها وذلك كقوله تعالى : **« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** [1] .

فالمتأمل للآية السابقة يرى فيها أربع استعارات :

الأولى استعارة القرية للأهل ـ الثانية : استعارة الذوق فى اللباس . الثالثة : استعارة اللباس فى الجوع . الرابعة : استعارة الباس فى الخوف .

واذا تأملنا هذه الاستعارات الأربعة نجدها متلائمة ، وفيها من التناسب مالا خفاء فيه لأنه لما ذكر ـ سبحانه ـ الأمن ، والرغبة فى الرزق ، أردفه بما يلائمه من الجوع والخوف والاذاقة لما فى ذلك من البلاغة ، وهذه الآية وان بنيت فيها الاستعارات على بعضها ، وخولف فيها مقياس ابن سنان الخفاجى فى جمال الاستعارة ، الا أن ألفاظها متلائمة ، واستعاراتها مصورة متناسقة .

كما أننا نلاحظ فى استعارات القرآن استعمال الألفاظ الموضوعة للأمور المحسوسة فى الدلالة على الأمور المعنوية حتى تصير الأخيرة بفضل هذا الاستعمال ملموسة مرئية ، مع ما فيها من ايحاءات . ففى قوله تعالى : **« والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون »** [2] حيث استعمل القرآن الأودية للمقاصد الشعرية التى يلخصونها بأفئدتهم ، ويصوغونها بأفكارهم والأودية ملموسة محسوسة ، والمقاصد الشعرية معنوية عقلية ، وخص الاستعارة بالأودية دون الطرق والمسالك لأن المعانى الشعرية تستخرج بالفكرة والروية ، وفيها خفاء وغموض فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة [3] ولا أدل على حسن تصوير الاستعارة القرآنية المترتبة

---

(١) النحل : ١١٢ . (٢) الشعراء : ٢٢٤
(٣) انظر الطراز ١ : ٢١٤

على تخير الألفاظ من قوله تعالى : ((**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب**))
فان الاستعارة التى تضمنتها لفظة ((زلزلوا)) والتى شبه فيها الاضطراب النفسى الشديد الذى أصابهم بالزلزال مهما حاولنا تغيير لفظ الاستعارة ما أدى المعنى المطلوب ، ولا صور الحالة المرجوة •

كما أن تصوير المعنى وزيادة وضوحه يظهر جليا فى النفس حينما نقرأ قوله تعالى : ((**انا لمـــا طغى الماء حملناكم فى الجارية**)) حيث شبهت الثورة والتكبر والاستعلاء والغليان الذى كان شبيها بالطغيان بزيادة المـــاء ، فحسن التصوير الذى وضح الأمر وجعله أصلا يقاس عليه ، والجامع بينهما الخروج فى الاستعلاء والطغيان والتكبر عن الحد •

كما أن الاستعارة فى القرآن لا تقف عند أسلوب المدح بل منها ما يكون معدودا فى التهكم وبخاصة عنـــد ذكر الكفار ، وأهل الشرك والنفاق ، ويغلب ذلك فى استعمال الألفاظ الدالة على المدح فى نقائضها من الذم والاهانة والتهكم بالمخاطب كما فى قوله تعالى : ((**انك لأنت الحليم الرشيد**))مكان نقيضها من السفيه الغوى • وقوله تعالى : ((**فبشرهم بعذاب أليم**)) بدل وأنذرهم ، لأن البشارة تستعمل فى الأمور المحمودة والمراد هنا الويل والعذاب • وقوله تعالى : ((**فاهدوهم الى صراط الجحيم**)) وغير ذلك • كما أنه لا أدل على حسن التصوير بالاستعارة من مجىء الاستعارة عقب الاستعارة ، والعلاقة بين الثانية والأولى قوية ، والمناسبة تامة كقوله تعالى : ((**اشتروا الضلالة بالهدى**)) حيث استعار الشراء ثم أعقبه بذكر الربح •

---

(١) البقرة : ٢١٤ .　　(٢) هود : ٨٧

وقوله تعـــالى : « **الر ، كتاب أنزلنـــاه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور** » [1] فذكر الظلمات والنور وانما كان على جهـــة الاستعارة للكفر والايمان والضلالة والهدى ، كأنه قال لتخرج النـــاس من الكفر والضلالة اللذين هما كالظلمة الى الايمان والهدى اللذين هما كالنور، والمستعار له مطوى الذكر[2] ، ومن حسن تصوير الاستعارة فى القرآن وايضاحها للمعنى تمثيلها ما ليس مرئيا بالمرئى ، فينتقل السامع من حد السماع الى حد العيان ، ولا شك فى بلاغة ذلك كقوله تعالى : « **وانه فى أم الكتاب** » [3] فان حقيقته انه فى أصل الكتاب ، فاستعار لفظ « الأم » لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول.

والاســـتعارة بصورها السابقة يوجد أكثرها فى القرآن ، ففيه الصريحة كأغلب الأمثلة السابقة ، والمكنية أو بالكناية كقوله تعالى : « **وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءا منثورا** [4] لأن الصورة شبه فيها القدوم بالعمل لأن حقيقة الصورة عملنا ، وحذف المشبه ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو الجعل ، ولا شك أن صورة القرآن أبلغ من حقيقتها لدلالتها على أن الله تعالى عامل الكفار معاملة القـــادم من سفره ، لأنه من أجل امهالهم السابق عاملهم ، كما يفعل الغائب عنهم اذا قدم فرآهم على خلاف ما أمر به ، ولا شك أن الصورة تنقل لنا — غير ما تقدم — معنى أسمى ، وهو التحذير من الاعتذار بالامهال •

وصور الاســـتعارة الأصلية موجودة فى القرآن كثيرا والتبعية كقوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا** » [5] لجريانها فى الفعل • وهى استعارة أيضـــا بالكناية ومثله قوله تعالى : « **أرســـلنا عليهم الريح العقيم** » [6] وغير ذلك كثير لمن أراد ، ولكن الذى يهمنا هو التصوير بالاستعارة وبلاغتها •

---

(١) ابراهيم : ١
(٢) انظر الطراز : ٢١٣ .
(٣) الزخرف : ٤ .
(٤) الفرقان : ٣٥
(٥) مريم : ١٩
(٦) الذاريات : ٥١

الأسلوب الكنائى فى القرآن :

طبيعى أن تكون تلك المعجزة الخالدة التى أعجزت العرب عن أن يأتوا بمثلها ، وهم أرباب الفصاحة ، وأساطين البيان ـ فرموا الرسول بالسحر تارة وبالجنون أخرى ، أقول : من الطبيعى أن يكون القرآن الكريم نبعا صافيا لكل صنوف البيان يروى ظمأ الدارس • ويزيده كلما استزاد •

فالأسلوب الكنائى ليس بدعا من بين الصور البيانية •• فلقد حفل الكتاب الحكيم بضروب شتى منه[٢] ففيه الاشـارة كقوله تعـالى : « **وغيض المـاء** » فان غيض المـاء يشير الى انقطاع مادة المـاء من نبع الأرض ، ومطر السماء ، ولولا ذلك لمـا غاض المـاء ، ومنها أيضا قوله تعـالى : « **وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين** » ففيه اشارة الى كل ما تميل اليه النفس من الشهوات التى لا تنحصر وتلذ الأعين من المرئيات التى لا تنضبط ، لنعلم أن هذا اللفظ القليل قد دل على معان لا تنحصر عدا ، ومنها قوله تعالى : « **وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر** » فانظر الى ما أشارت اليه لفظة « الأمر » من ابتداء نبوة موسى ـ عليه السـلام ـ وخطاب الحق له ، واعطائه الآيات البينات من القاء العصا لتصير ثعبانا ، واخراج يده بيضاء ، وارساله الى فرعون ، وسؤاله شد عضده بأخيه هارون الى جميع ما جرى فى ذلك المقام •• كل ذلك أشارت اليه هذه اللفظة الواحدة •

وفيه الارداف ، ومنه قوله تعـالى : « **وقضى الأمر** » وحقيقة ذلك ، وهلك من قضى الله هلاكه ، ونجا من قضى نجاته ، وعـدل عن الحقيقة للدلالة والتنبيه على ذلك بأمر مطاع لايرد قضـاؤه • ومنه

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٢/٣٠٣ ، ٣٠٤ •

قوله تعالى : ((**فيهن قاصرات الطرف**)) أى عفيفات قد قصرت عفتهن طرفهن فى بعولتهن ، عدل عن المعنى الخاص الى لفظ الارداف ، لأن كل من عف غض الطرف عن مطموح اليه ، فقد يمتد نظر الانسان الى شيء وتشتهيه نفسه ، ويعف عنه مع القدرة عليه لأمر آمر ، وقصر طرف المرأة على بعلها ، أو قصر طرفها حياء وخفرا أمر زائد على العفة ، لأن من لا يطمح طرفها لغير بعلها ، أو لا يطمح حياء وخفرا فانها ضرورة تكون عفيفة ، وليست كل عفيفة قاصرة الطرف فلذلك عدل عن اللفظ الخاص الى لفظ الارداف •

وفيه التمثيل كقوله تعـالى : ((**واستوت على الجودى**)) فان حقيقة ذلك • وجلست على هذا المكان ، فعدل عن هـذه الحقيقة الى التمثيل لمـا فى الاستواء من الاشـعار بجلوس متمكن لازيغ فيه ولا ميل ، ولا حركة معه ولا اضطراب ، فان هذا الجلوس تسكن معه قلوب أهل السفينة لسكونها ، ولا تسكن الا بهذا الجلوس المنعوت بالاستواء ، وبذلك يحصل تمام الأمن وكمال الطمأنينة ، ولا يحصل ذلك من قولنا : جلست ولا ما يدل على معناه فقط ، فلذلك عـدل عن لفظ الحقيقة الى التمثيل ، وما كان ذلك الا لحسن التصوير وجمـال التعبـير •

وفيه الرمز والايماء : كقوله تعالى : ((**ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف**)) فقد أشارت لفظة ((**ألوف**)) الى العدد فقد روى بعض العلماء أنهم كانوا أربعة آلاف ، وروى من طريق آخر أنهم كانوا ثلاثين ألفـا ، وصحح العلماء الرواية الثانية بقوله تعـالى : ((**ألوف**)) فجمعها جمع الكثرة ، ولو كانت الرواية الأولى أصح لقال سبحانه : آلافا ، ولم يقل ألوفا ، ولا شك أن الذى صور هذا المعنى هو اللفظ الذى رمز به الى العدد •

وسر جمال الأسلوب الكنائى بعد افادته ، تصوير المعانى أحسن

تصوير ، ورسمها مصورة موحية فى أسلوب موجز مؤتلفة ألفاظه ، مع معانيه ما يأتى :

١ ــ التنبيه على عظم القدرة كقوله تعالى : « **هو الذى خلقكم من نفس واحدة** » كناية عن آدم •

٢ ــ ترك اللفظ الى ما هو أجمل منه كقوله تعالى : « **ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة** » هـذا على أن المراد بالنعجة هنا المرأة ــ كما هى عادة العرب • وقد خالف فى ذلك جمع غفير من المفسرين معترضين بأن اســتعمال اللفظ فى معناه الواضح الصريح هو المقصود • ومن هذا النوع قوله تعــالى : « **الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة** » حيث كنى بالتحيز عن الهزيمة •

٣ ــ أن يفحش ذكر اللفظة فى السمع فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع • كقوله تعالى : « **واذا مروا باللغو مروا كراما** » أى كنوا عن لفظه ولم يوردوه على صــيغته • ومنه قوله تعــالى : « **ولكن لا تواعدوهن سرا** » فكنى عن الجماع بالسر وفيه لطيفة أخرى ــ كما يقول الزركشى ــ وهو أن الجماع غالبا يكون من الآدميين فى السر • ولا يسره ما عداهم الا الغراب •

هذا ، ومن عادة القرآن الكناية عن الجمــاع باللمس والملامسة والرفث والدخول والنكاح والغشيان كقوله تعــالى : « **أو لامســتم النساء** » « **فالآن باشروهن** » وقوله : « **فلما تغشاها حملت حملا خفيفا** » •

٤ ــ الاعتماد على فطنة المخاطب : كقوله تعالى : « **واتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة** » فانه كناية على ألا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة •

وقوله تعالى : « **انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ... الآيات** » فان هذه تسلية للنبى — صلى الله عليه وسلم — والمعنى : لا تظن أنك مقصر فى انذارهم فانا نحن المـــانعون لهم من الايمان ، فقد جعلناهم حطبا للنار ، ليقوى التذاذ المؤمن بالنعيم ، كما لا تبين لذة الصحيح الا برؤية المريض !!

٥ — تحسين اللفظ كقوله تعالى : « **كأنهن بيض مكنون** » فان العرب كانت عادتها الكفاية عن حرائر النساء بالبيض. قال أمرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خبـــاؤها تمتعت من لهو بهـــا غير معجل

وكقوله تعالى : « **وثيابك فطهر** » » ومنه أيضا قول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيـــابه ليس الكريم على القنا بمحرم

٦ — **القصد** الى البلاغة كقوله تعالى : « **أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين** " فانه سبحانه ، كنى عن النساء بأنهن ينشأن فى الترف والتزين والتشاغل عن النظر فى الأمور ، ودقيق **المعانى** . ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك ، والمراد نفى الأنوثة عن الملائكة ، وكونهم بنات الله .

٧ — قصد المبالغة فى التشنيع . كقوله تعالى حكاية عن اليهود : « **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان** » كناية عن كرمه ، وثنى اليد وان أفردت فى أول الآية : ليكون أبلغ فى السخاء والجود . وأما قوله تعالى : « **غلت أيديهم** » فيحمل على المجاز على وجه الدعاء والمطابقة للفظ .

ولهذا قيل انهم أبخل خلق الله . والحقيقة أنهم تغل أيديهم فى الدنيا بالاسار . وفى الآخرة بالعذاب وأغلال النار .

٨ ــ التنبيه بالكناية على المصير كقوله تعالى : « **تبت يدا أبى لهب** » وكقوله تعالى : « **حمالة الحطب** » أى نمامة ومصيرها الى أن تكون حطبا لجهنم •

٩ ــ قصد الاختصار: وهو الكناية عن أفعال متعددة بلفظ « فعل » كقوله تعالى : « **لبئس ما كانوا يفعلون** » • « **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به** » « **فان لم تفعلوا ولن تفعلوا** » •

١٠ ــ أن يعمد القرآن الى جملة ورد معناها على خلاف الظاهر ، فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة أو المجاز ، فيعبر بها عن المقصود • كقوله تعالى : « **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة** » كناية عن عظمته •

وبعد هذا النهل المبارك من فيض الكتاب الحكيم • تبقى كلمة بالنسبة لبلاغة الأسلوب الكنائى كما يرى عبد القاهر الجرجانى ، ذلك أنهم اذا جعلوا له مزية على التصريح لم يجعلوا تلك المزية فى المعنى المكنى عنه ، ولكن فى اثباته للذى تثبت له •

وذلك أنا نعلم أن المعانى التى يقصد الاخبار بها لا تتغير فى أنفسها بأن يكنى عنها بمعانى سواها ، ودون أن تذكر الألفاظ التى هى لها فى اللغة[1] • ومن هذا الذى يشك أن معنى طول القامة وكثرة القرى لا يتغيران بأن يكنى عنهما بطول النجاد أو كثرة الرماد • والسبب أيضا فى بلاغة الكناية أنك اذا كنيت عن كثرة القرى بكثرة الرماد • كنت قد أثبت كثرة القرى باثبات دليلها ومشاهدها ، وما هو علم وجودها وذلك لا محالة يكون أبلغ من اثباتها بنفسها ، وذلك لأن سبيلها حينئذ سبيل الدعوى • وهذا ما قاله القدماء • وقد سبق أن قلت رأيى فى ذلك سابقا •

---

(١) دلائل الاعجاز لعبد القاهر ٣٤٣ طبعة المنار •

الفصل الخامس

نَظْمُ القُرْآن

ان نظم القرآن قائم على الموسيقى ، وعلى الروح المستشفة من هذا النظم التى تخاطب الروح ، وألفاظه ليست ألفاظا فقط ، بل هى حياة تضطر فيها زيادة على صـوت النفس الطبيعى فى تركيب اللغة العربية ، وصوت الفكر أوالعقل فيما فوق ذلك الى صوت الحس فى الألفاظ والمعانى الممثلة •

والذى لا حظته على العلماء القائلين باعجاز القرآن البيـانى اهتمـامهم بنظم القرآن ونسقه لأنهم وجدوا نظمه مؤتلفـا وخلاف ما اعتاده بلغاء العرب وفصحاؤهم قبل نزول القرآن وبعده ، فأردت أن أعرض لهذا النظم كاشفا عن غرابته وعجزهم عن الوصـول اليه • ولأجل أن يتمكن الناقد البصير من الحكم بأن نظم القرآن وآياته اجمالا وتفصـيلا تختلف كل الاختلاف عن النظم والترتيب اللذين اعتادهما شـعراء العرب وبلغاؤهم حتى ساعة تبليغ الرسالة المحمدية الشاملة لدين الله الاسلامى الجديد ، فمن الضرورة القصوى الالمـام بمبلغ ما وصلت اليه الآداب العربية من الرفعة وعلو الشأن ، فبهذا وحده يمكن للواقف على تاريخ تلك النهضة البديعة أن يعرف قدر اعجاز القرآن فى بلاغته وبيانه وبديعه نظما وترتيبا وحكما ، وأنه جاء بخلاف ما اعتاده الفصحاء والبلغاء فى استخدام البليغ البـديع فى لغتهم ، وعلى غير ما ارتضـوه من النظم والترتيب فى انشائهم • وقد اعترف بهـذا فحول البـلاغة وسـادتها من العـرب ، واعترف به غيرهـم فى عصرهم ، فلم يبق اذن لمن بعدهم من المتأخرين من العـرب أو من غير العرب ـ مجال للانكار بعد ذلك الاجماع • على أن العارفين من الأمم

الأعجمية وان جهلوا العربية فقد حقت شهادتهم عن انصاف وتقدير بما فيه من دقة الأحكام وكمال الهداية فى التشريع ، ودستور المعارف النـــافعة • ان أكثر « آداب اللغة العربية » قبل الاسلام كانت على الغالب وصفية اذ تتضمن وصف الأشياء التى كانت تقع تحت حواسهم وصفا بليغا كوصف ابلهم وخيلهم ، أو تفضيل بعض الجمال والحسن من المرأة التى شغفتهم حبا ، أو توجيه المديح لأمير أو ملك من أمرائهم وملكوهم لاستجداء نعمته ، أو اطراء من يميلون اليه، وهجاء من لا يجدون الى ولائه سبيلا ، أو نقد عادة ذميمة أو خلة عقيمة ، أو تفصيل طعنة أصابوا بها كبد عدوهم ، أو وقائع غزوة من غزواتهم • لا غرو أن ينبغ فى كل زمان من الأزمنة السابقة والحاضرة أدباء بلغاء يتمثل فيهم العقل فى بلوغ رشده ، فكانوا سادة قومهم فى نبوغهم ، وهم فيه يظهرون بمظهرهم الخاص الذى يميزهم عن غيرهم ، وهذا طبيعى عند كل الأمم •

لزاما على رجال الأدب ، فى العصـــور اللاحقة ، أن يكونوا على المـــام تام بمبلغ علوم البلاغة وارتقائها فى عصرهم بحيث يخرجون للناس نوعا من الكتابة أرقى بكثير مما كان يستخدمه البلغاء فى الأزمنة السابقة ضمن دائرة وطنهم ، ولقد ارتقى علماء الأدب العربى وتطوروا بتطور بيئتهم ، وجددوا فى انشائهم فى العهد الاسلامى ، وأجمعوا على اعجاز القرآن ، ومنهم من ألف الكتب المطـــولة واقفين عنـــد حدهم الانســـانى •

والقـــرآن بعكس ما كان ينســـجه العرب فى العصور الســـابقة للدعوة الاسلامية وفى غضونها ، وفى العصور اللاحقة بعد أن استتب للاســـلام أمره بالنسبة الى نظمه الجديد المعجـــز ، الذى لم يكونوا ليعرفوه ، لم يخضع لاصطلاحات الأدب والبيان التى سادت فى أيام تبليغه بل تحدى به البلغاء والفصحاء منهم • ومن ثم ، فلا مثيل له فى تآليفهم ، ولا فى انشائهم من جهة أنه أكبر وأعلى ــ لاعجاز بلاغته

وعظمة معانى آياته ، وابداع مبانيها من كل ما أجهدت النفـــوس القادرة على الاتيان بمنتهى الفن البليغ فى كلامهم من قواعد بيانية •

ان القرآن فى جميع أحكامه لم يتصد الا الى اتباع الحقيقة فقط وكان فيما يتوجه به من الآيات المحكمات بعيدا كل البعد عن مناحى الكذب والمبالغات التى يعتادها الكتاب فى كلامهم البليغ ، وهو فى اعجازه فى بلاغته ، قد نشر للملأ من أهل الأدب والمتأدبين مثالا أرفع من نسق الانشاء البليغ الفصيح • وقد نأى فى نظمه عن الشعر واصطلاحاته النظمية والنثرية التى يحيط بها القصور الوهمى والخيال والمبـــالغة والكذب — فى غالب الأحيان — ليصح أن يحكمببلاغته وفصاحته •

ونحن لا نجهل أن كل شطرة من شطرات الشعر لا تتصف بجمال النظم والنسق وكمال البـــلاغة والفصـــاحة فى التعبير اذا فصلت عن أختها ، أو عما يتبعها من الشعر حتى قالوا يجب أن ننظر الى القصيدة كوحدة قائمة بذاتها ، وهذا عكس ما هو مشاهد فى القرآن من أن كل آية من آياته ، دون استثناء ، ذات نسق كامل وبلاغة لا مثيل لها ، ومعان ساحرة ، ولا يختلف فى ذلك وجيزها وطويلها •

من المعلوم أيضـــا أن كل كاتب ، أيا كان شاعرا أم ناثرا ، اذا اضطرته الظروف الى تكرار موضوع ، أو اعادة ذكر قصة ، أو الرجوع فى كتابته الى سرد نفس البحث الذى ألم بأطرافه من قبل لم يخرج فى تكراره واعادته ورجوعه الى ما سبق له اتباعه من اعادة ما سبق ، وتكرار ما قال فى ملل يشل الفكر ، ويبهم المعنى ، ولكن فى القرآن قد تكرر ذكر الحوادث وتفصيل مبدأ الخلق ، وميعاده ، وبيـــان مجمل التشريع ، ومفصله فى آيات يختلف بعضها عن بعض اختـــلافا كبيرا تاما فى مبانيها وألفاظها التى استخدمت لكل واحدة منها فى كل فقرة وجملة منها ، ايجازا وتطويلا ، فكانت كل آية منها على درجة عظمى

من البيان والبديع ، وعلى فن أعلى فى النظم والتفصيل سواء كانت خاصة بأمور عالم الشهادة أم بعالم الغيب دون أن تذهب منها طلاوتها ، وكمال معانيها الساحرة والاعجاز فى بلاغتها •

ان جميع آيات القرآن انما جاءت بتقرير بيان العبادات ، والأعمال الصالحات ، والنهى عن المنكر واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، واحسان النية فى الاستقامة على الطريقة والأخلاق الفاضلة ، والتمسك بمعالى الأمور والتنزه عن سفسافها ، واصلاح الحال فى الدنيا ، ببيان التشريعات الكفيلة باصلاح المجتمع فيها والخروج منها على ما يكفل السعادة فى الآخرة • وقد أكد هذا كله بقوة مكينة وكرره المرات العديدة ببأس شديد ، فى آيات تأخذ بمجامع القلوب والعقول معا لسحر تفسيرها وصريح اعرابها ، وهذه الموضوعات ، كما لا يعزب عن فكر أحد ، تهبط من مقام البلاغة والبينة اللتين أولع بهما ذلك العربى الذى يستهويه البيان الى الاعجاب ، وتغريه الفصاحة الى الاطراب • ولا نذهب فى ذلك الى دليل ظاهر أكثر من القول الفصل بأنه لو عرض على شاعر أو كاتب — مهما كان أديبا بليغا ومنشئا فصيحا — أن يصدر للناس عشرة أحكام شرعية ، أو عشرة موضوعات دينية ، بكلام ذى درجة عالية فى البيان والبديع والبلاغة والفصاحة ، بحيث يحليها بالمجاز والكناية وما الى ذلك من مستلزمات الاصطلاحات المتفق عليها فى البلاغة لخر فاشلا عند محاولة البدء بهذه المهمة الشاقة •

ومن المعروف فى العربية ، والمتفق عليه بين جميع علمائها أنه اذا نبغ انسان فى احدى نواحى هذا الفن لم يكن كذلك فى ناحية أخرى منه • ولدينا أمثلة كثيرة من شعراء الجاهلية الأولى ، فلقد كان شعر النابغة الذبيانى بليغا فى أمور الحرب ، وشعر الأعشى فى الشكوى وفى الوصف وفى الخمر ، وشعر زهير فى الغزل وفى الأمل ، وشعر امرىء القيس فى شرح الملذات ووصف الحبيبة والخيل •

لكن آيات القرآن دائما بليغة لحد الاعجاز مهما كان موضوعها وعلى أية صيغة صدرت دون أن يكون من مبلغ الاستطاعة استثناء آية واحدة من هذا الحكم العادل • مما لا يخرج عن اجماع أهل فن الأدب أنه اذا جاء فى جملة عديد من الموضوعات التى تنوعت مراميها باختلاف مبادىء كل منها وغاياتها ، فقدت تلك الجملة قوة بلاغتها ، وذهب منها رواء بهجتها ورونق جمالها ، ومع ذلك فقد وجدت فى القرآن آيات طويلة مشتملة على ذكر بعض الحوادث ، والانتقال منها الى عرض حوادث أخرى تماثلها أو تكون على طرفى نقيض منها ، كما وجدت فيه آية واحدة تحمل فى نفسها بعض الأوامر والنواهى والقصص والاستفهام والجزاء والوعد والوعيد ، واثبات نبوة بعض الأنبياء ، وتوحيد الله وتعداد صفاته وتنزيهه ، والحض على عبادته ، والاغراء والتحذير وضرب الأمثال الحكمية ، وتفصيل حال الأمم السابقة ، ولفت النظر الى نفسية الأمم الحاضرة ، وغير ذلك ، ولكن على الرغم من وجود هذه الأمور فى آية واحدة ، فان تلك الآية دائما على درجة من النظم والتناسق والبلاغة العالية التى تبعد عن قواعد فن الأدب المتفق عليها بين رجاله من البلغاء المشهورين ، والفصحاء المعروفين •

وقد أتى القرآن بآيات وجيزة جد الايجاز وهى على الرغم من ايجازها ، تشتمل على معان كثيرة ليس فى مكنة أحد أن يأتى بها الا باستخدام تعبيرات مطولة لكل معنى من معانى الآية الواحدة المتعددة ، التى هى فى بلاغتها وفصاحتها تؤثر بمعانيها الساحرة ، وتعمل فى النفوس فتخضعها الى الاذعان • ولا نذهب بالقارىء بعيدا فاننا ندعوه الى تدبر سورة (ص) فهذه السورة القصيرة قد افتتحت بمقدمة جميلة بليغة ، يتبعها تفصيل دقيق للمنكرين وما يماثلهم من أهل الالحاد وتأنيبهم ، وتذكيرهم بتنكيل الله لمن كان على شاكلتهم من الأمم التى سبقتهم ، وذكر تكذيب هؤلاء للنبى محمد — صلى الله عليه وسلم — وارتيابهم فى بعثته ، ووصف ما انطوت عليه نياتهم باجماعهم

على الاستمرار فى شركهم ، وصدق تمثيلهم بما يدفعهم من الحسد الذى يحدوهم الى زخرف من باطل أقوالهم وكشف الغطاء عن عجزهم ، وتحقيرهم وانذارهم بالفشل فى دنياهم وأخراهم وتذكيرهم بما آل اليه حال الأمم السابقة من المكذبين من التنكيل بهم ، وبأن سوء عاقبة من يقلدهم من العرب وغيرهم سواء بسواء كسوء عاقبتهم • وبعد تفصيل كل هذا عنهم ، جاء فى السورة بصدق النصح لنبيه — صلى الله عليه وسلم — بأن يدأب على تبليغ رسالته ، ولا يفتر عن جهاده ، وأن يكون له أسوة حسنة بما أصيب به من سبقه من الرسل والنبيين من قبل كابراهيم ويعقوب وداود وسليمان وأيوب عليهم السلام ، وقد فصل ذلك فى آيات قصيرة وجيزة ذات معانى بليغة ومبادىء عالية وغايات مثلى مع نظم متسق ، وائتلاف لفظ مع معنى وعبارة فصيحة •

ان القرآن قد حوى جميع قواعد البيان والبديع دون أن يترك قاعدة واحدة منها • ولم يستطع بليغ من بلغاء العرب أن يصل الى هذا الكمال الجامع مهما كان نبوغه • انما وصل بعض البلغاء الى سؤدده فى ناحية أو اثنتين من نواحى البلاغة ، ولم يستطيعوا أن يمدوا أعناقهم الى أكثر من ذلك • وقد وجد من الكتاب الجاهليين من وصل الى درجة كبرى فى الأدب العربى •• كما وجد أمثاله فى العهد الاسلامى قديما وحديثا • لكنهم جميعا قد اعترفوا للقرآن بميزته المعروفة وباعجازه ، وأعلنوا صدق عجزهم عن الاتيان بمثله أو تقليده ، وهذا دليل قاطع على أنه كتاب كريم أوحاه الله الى رسوله ، ثبت من آيات الاعجاز مالا يجوز معه الانكار ، سيكون المعجزة الخالدة على مر الدهور •

كما أن القرآن نشر بين أعداء الدين ممن تربوا فى أحضان الشرك والوثنية ، وامتزج بدمهم التعصب لما دربوا عليه من سخف العقائد

وبين كثير من المنكرين الذين قد اختاروا من المبادىء ما وافقهم دون علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد نبغ منهم شعراء وأدباء ذوو معارف لا يستهان بها ولكنهم لم يفكروا أن القرآن فى نظمه وبلاغته خارج عن مألوفهم ، وقد ثبتوا على توكيد قولهم بأنه على درجة من الاعجـــاز ليست فى مقدورهم ، معترفين بالفرق العظيم بين نظمه وصياغته وبين نسق نثرهم ونظمهم ، وانتهى الأمر بهم بعد عجزهم عن تقليده الى القول بأنه سحر فى اللغة البليغة والأدب العالى غير معروف لديهم .
ويلاحظ أن البلغاء ، عندما أشرقت شمس الاسلام كانوا كثيرين وكانوا مشهورين بتعصبهم لشعرهم الذى طبعوا على طريقتهم فيه ، وكان يتحدى بعضهم بعضا فيما كان ينظمه من قصائده ، وكانوا يغالون فى دفاعهم عن آبائهم الأولين الى حد بعيد ، تحداهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علنا الى الاتيان بمثل ما جاء به من آيات القرآن الكريم وقد وضع لهم أجلا معلوما ليجيبوا على تحديه ثم أزفت آزفة الأجل المعين بفوز الحقيقة ، وعدم امكانهم الاتيان بأقصر سورة منه فى هذا المجال يقول القرآن الكريم فى ســـورة الاسراء : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » انتهى الأجل المعين على الرغم من طوله ، ولم يستطع المشركون والذين كفروا أن يأتوا بمثل القرآن . فأمهلهم النبى الى أجل آخر أمره به ربه ، وتحداهم مرة ثانية ليأتوا بعشر سور فقط من مثله مفـــتريات تتفق معه فى النظم والنسق دون المعنى فقال فى ســـورة هود :

« **أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صـــادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون** » .
خاب فأل المعـــارضين من الذين كفروا ، والذين أشركوا ثانى مرة ، وفشلوا ولم ينبسوا ببنت شفة بعد تحديهم . فأراد الله أن يجعل

كلمته هى العليا اذ أمر رســوله أن يتحداهم ، وأن يترك لهم أجلا أطول ، وأن يخفف عليهم جهدهم بدعوتهم الى الاتيان بأقصر سورة منه فقال لهم : ((**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النــار التى وقودها النــاس والحجارة أعدت للكافرين**)) • انتهى الأجل المضروب الثالث للتحدى ، ولم يستطع هؤلاء أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، فصدق الله وعده ، وحق الحق على المنكرين ، ونصر الله رسوله وهو خير الناصرين بنظم القرآن وبلاغته •

وقد أثبت التاريخ اجماعا أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان أميا • وفى كثير من الآيات القرآنية اثبات أنه كان كذلك أميا ، ولم يحظ بشىء من العلم ليكون مشرعا ، ولا أن يكون عالمـــا ولا نابغا فى أدب الكتابة ، ولم يكن على شىء من المعارف الكونية يستطيع معه أن يقود أمة بأسرها ، وأن يضع لها قوانين وأحكاما تهيىء لها سبيل النظام ، وأن يصفوا أدبا ونفسا وبدنا • ومع ذلك فقد حوى القرآن كثيرا من المعارف الخاصة ، ومثلها من القوانين الكونية العامة التى لم يجهلها العرب وحدهم ، بل كانت بعيــدة عن اطلاع النبى ــ صلى الله عليه وســلم ــ نفسه ، ولا سيما ما كان منها خاصا بشريعة جديدة لم يكن العالم بأسره حين تبليغها على علم منها ، ذلك بأنه لم يكن لديه شىء منها ، ولا تصــور أن تكون لديه ليعمل بها يوما من الأيام • والقرآن يشتمل ــ غير ذلك ــ على تعاليم ذات أدب جم ، راقية أحسن رقى ، وذات عبرة قيمة لا يمكن تقديرها ، ومنطق يرشد به العقل الى الرأى الصائب ، والفكر الثاقب • وفى القرآن كثير من القصص غايتها احقاق العــدل ، ومحاربة الظلم والجور ، وبث الكمال والفضيلة فى جميع وجوهها • وفيه مالا عدله من الحكم والأمثال والمواعظ التى ترشد العالم الى سواء السبيل فى جميع مرافق الحيــاة • ويجمع وفيرا من قواعــد الفلسفة الصحيحة الوجيهة ، وعديدا من سنن الطبيعة ، وعلم التوحيد ، والعلوم الدينية

والمدنية والاجتماعية • ويكنز حلولا لكثير من المعضلات التى تعترض حياة الفرد والأسرة والمجتمع • ويضع القواعد لاتحاد الجماعة ويأتى بما فيه حفظ اللغة وتعديلها على مقتضى حاجات العصر ، ويدعو الى تعميم الاسلام فى جميع الأقطار مستدلا على وجوب استماع دعوته بما لا يقبل العقل السليم دحضه ، وعلى ضرورة اعتناق مذهب القومية العربية الجديد واتخاذ لغتها لسانا عربيا له •

فكتاب كهذا ، بهــذه القيمة الأدبية والاجتمــاعية وبهذا النظم والتنسيق والبلاغة لا يمكن أنيكون نتيجة لمجهود رجل أمى لم يتلق شيئا من العلوم ، اللهم الا أن يكون وحيا الهيا قد بلغه وأمر بتبليغه الى ســواه •

ولمــا لم يفعل هؤلاء ما قد تحداهم به صاحب الرسالة كما أثبتناه سابقا بقوا على عجزهم جامدين ، اذن حقت نبوته كما أذاعها لأمته أولا ، وللعالم كله بعد ذلك وكان من الصادقين ، وثبت اعجازه بنظمه الذى لم يستطعه أحد وخاب فأل المعاندين •

* * *

بعد أن بينا نظم القرآن ، يدعونا البحث الى الحديث عن أشياء تتعلق بهذا النظم كوجود بعض ألفاظ أعجمية فى القرآن ، وذكر آيات للاستدلات بها على الانسجام بين ألفاظه والائتلاف بين معانيه • لأن القرآن معجزة خالدة ، خصه الله بخاتم كتبه المنزلة ، كما خص نبيه محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ بخاتم أنبيائه ورسله ، ومما لا شك فيه أن القرآن تتفاوت دلالة آياته على المعانى وضوحا وخفاء ، لأنه لو لم يكن كذلك لتساوت فى ادراك معانيــه الأفهام كمواد القوانين الوضعية وخمدت الهمم وعمها الغباء لعدم وجود ما يحملها على الخوض والتفكير العميق ، لكن الله جلت حكمته جعل القرآن بحيث تختلف الأفهام والقرائح فى ادراك أسراره واجتلاء معانيه ، فاحتيج الى علوم

تساعد فى تفهم أسرار الكتاب الحكيم فلذلك دونت العلوم العربية من مفردات اللغة ، والاشتقاق ، والصرف ، والنحو ، والبلاغة ، وما الى ذلك من علوم اللسان العربى • ومن أجل ذلك أيضا وضع علم التفسير وعلم أصول الفقه والجدل والتاريخ ، ونحو ذلك مما يفيد فى معرفة مراتب الحجج والأدلة ، وفى ادراك مواطن العبر من أبنائه •

* * *

هل فى القرآن ألفــاظ أعجمية[1] ؟ :

وقد أخذ بعض الناس على القرآن وجود ألفاظ أعجمية فيه مع قوله تعالى : « **بلسان عربى مبين** » واختلف علماء المسلمين فى ذلك •

فقال أبو عبيدة ــ معمر بن المثنى ــ ان فى كتاب الله تعالى من كل لغة •

وذهب الطبرى وغيره الى أن القــرآن ليس فيه لفظة الا وهى عربية صريحة ، وأن الأمثلة والحروف التى تنسب الى سائر اللغات ، انما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد ، وذلك مثل قوله تعــالى : « **ان ناشئة الليل** » قال ابن عباس : نشأ : بلغة الحبشة قام من الليل ، وقوله تعالى : « **يؤتكم كفلين من رحمته** » قال أبو موسى الأشعرى : كفلان : ضعفان من الأجــر بلســان الحبشة • وقال الفقيه القــاضى أبو محمــد عبد الحق بن عطية ــ رضى الله عنه ــ : ان العقيدة والقاعدة هى أن القرآن بلسان عربى مبين ، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب ، فلا تفهمها الا من لسان آخر ، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها ، فانه قد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض الألفــاظ

---

(١) البرهان للزركشى ٢ : ٨١ والاتقان للسيوطى ٢ : ١٧ •

ما خلفه لسائر الألسنة بسبب تجاراتها ، وبرحلتى قريش ، وسفر المسافرين ، كسفر أبى عمرو الى الشام ، وسفر عمر بن الخطاب ، وعمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد الى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى الى الحيرة وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة ، فعلقت بلغة العرب بهذا كله ألفاظ أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت الى تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها فى أشعارها ، ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربى الصريح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن فان جهلها عربى فكجهله الصريح بلغة غيره ، فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية ، لكن استعملتها العرب وعربتها فهى عربية بهذا الوجه .

ورد ابن عطية على قول الطبرى السابق بقوله :

« ما ذهب اليه الطبرى من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة فذلك بعيد بل احداها أصل ، والأخرى فرع فى الأكثر وان كنا لا نمنع أيضا جواز الاتفاق قليلا وشاذا » .

ونرى بعد ذلك لزاما لزيادة الفائدة والبحث والدراسة اثبات ذلك النظم تطبيقيا بعرض بعض آيات القرآن لوحظ فى بعضها اختيار الألفاظ التى تأتلف مع معانيها ، وينسجم بعضها مع بعض وروعى فيها الاقتصار على ذهن السامع مما دعا بعض الناس أن يقول : ان فى القرآن شعرا لأنه لاحظ زنة بعض الآيات أو آيات بأكملها ، وأنها تؤلف بيتا من الشعر يندرج تحت بحر من بحوره ، فقالوا ان قوله تعالى : « **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » من صحيح بحر الطويل وقوله تعالى : « **واصنع الفلك بأعيننا** » من المديد ، وقوله تعالى : « **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** » من البسيط ، وقوله تعالى : « **ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** » من الوافر ، وقوله

(١) البرهان ٢ : ٨٣

تعالى :« **والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** » من البحر الكامل ، الخ ••• ولولا الاطالة لأتيت على شواهد جميع البحور من القرآن •
ولكن الحقيقة التى لا شك فيها أن الذى دفعهم الى ذلك هو الانسجام بين الأفاظ والائتلاف بينها وبين المعانى •

ولكن القرآن لم يقع فيه على حد قولهم من الشعر الا ما هو على مثال شطر البيت أو البيت الواحد ، والبيت المفرد لا يسمى شعرا ، قصد أو لم يقصد ، وما خيل لذوى القرائح السقيمة ، والعقول الضالة من أن فى القرآن شعر ، لم يخرج ما ادعوه شعرا عن كونه كلاما موزونا فقط ، وغير مقفى ، ونحن نستطيع أن نزن كل كلام ينطق به أى انسان ، ونستخرج البحر الذى يتفق مع وزنه ، ولا نستطيع أن نقول عنه انه شعر •

* * *

١ ــ آيات يرجع صحة نظمها الى حسن اختيار ألفاظها قوله تعالى : « **حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** » فان ظاهر نظم هذه الآية مؤاخذة من حيث أن لفظة (أصبحوا) فى الظاهر حشو لا فائدة فيه ، فان هؤلاء المخبر عنهم بالخسران قد أمسوا فى مثل ما أصبحوا ، ومتى قلت : أصبح العسل حلوا ، كانت لفظة أصبح زائدة من الحشو الذى لا فائدة فيه لانه أمسى كذلك •

وللرمانى على بن عيسى فى ذلك تأويل قد تحصل به الفائدة الجليلة لهذه اللفظة التى لولا مجيئها لم تحصل ، وهو أنه قال : لما كان العليل الذى قد بات مكابدا آلاما شديدة تغير حاله عند الصباح ، فاذا أصبح مفيقا مستريحا من تلك الآلام رجى له الخير ، وغلب على الظن برؤه ، وافاقته من ذلك المرض ، واذا أصبح كما أمسى تيقن هلاكه بجريان العادة بهيجان المرض فى الليل وسكونه فى الصباح ، وشبهت

حال الاشقياء بالعليل الذى أصبح من الألم على ما أمسى ، فهو ممن يئس من صلاحه ، وعلى هذا تكون لفظه « فأصبحوا » قد أفادت معنى حسنا جليلا ، وخرجت عن كونها حشوا غير مفيد • والذى أراه أن ظاهر نظم الآية لا يحتاج الى تأويل الرمانى ، وان الآية لا عيب فيها وأن لفظة « أصبحوا » يحتاج الكلام اليها ، ومعناه متوقف عليها ، وذلك أنه لما كانت مدة الموت والمقام فى البرزخ كالليل ، والليل محل النوم لكون الموت كالنوم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « **الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها** » وكان آخر ليلة من ليالى البرزخ يتمخض عن يوم القيامة ، والصباح أول كل يوم ، وأول يوم القيامة هو وقت الحساب ، ووزن الاعمال ونشر الصحف ، والوقت الذى لا ينطق فيه الكتاب ، وهناك يتبين الربح من الخسران وذلك الوقت هو صباح يوم القيامة ، وباقى ذلك اليوم ظرف للثواب والعقاب ، فمن قبلت أعماله أصبح فيه رابحا ، ومن حبطت أعماله أصبح فيه خاسرا ، ولما أخبر ــ سبحانه ــ عن هؤلاء الاشقياء بأنهم حبطت أعمالهم ، علم بالقطع أنهم أصبحوا خاسرين فلفظة أصبحوا لا يصلح غيرها فى موضعها ، ولا يتم المعنى الا بها ، وما مثل به من قول القائل : أصبح العسل حلوا ، وقد أمسى كذلك انما يقال هذا فى الامور الواقعة فى دار الدنيا ، لان زمانها فيه صباح ومساء ، فلما أصبح فيه على الحال التى يمسى عليها ، فذكر الصباح فيه والمساء حشو لا فائدة فيه ، أما يوم القيامة الذى لا مساء فيه ، فان تمثيله بأصبح فى الزمن الذى لصاحبه مساء تمثيل غير مطابق له •

٢ ــ قوله تعالى : « **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** » فانه كان يمكن أن تأتى اللفظتان بغير زيادة فيقال : « لها ما كسبت وعليها ما كسبت » وانما منع من ذلك ما يحصل للنظم من العيب واغماض المعنى الذى قصد ، أما العيب فاستثقال تكرار لفظه « كسبت » بغير زيادة فى نظم قربت فيه الثانية من الأولى ، وأما الاغماض فلأن المراد

الاشارة الى أن الفطرة التى فطر الله ــ سبحانه وتعالى ــ الناس عليها فطرة الخير ، فالانسان بتلك الفطرة السابقة فى أصـــل الخلق لا يحسن أن ينسبَ اليه الا كسب الحسنات ، وما يعمله من السيئات يعمله لمخالفته الفطرة ، فكأنه تكلف من ذلك ما ليس فى جبلته ، فوجبت زيادة التاء التى للافتعال ، فحصلت بزيادتها اماطة العيب عن النظم لمخالفة احدى اللفظتين أختها ، والاشارة الى المعنى المراد ، ليوافق معنى هذا الكلام معنى قوله تعالى : ((**فطرة الله التى فطر الناس عليها**)) ومعنى قوله عليه السلام ـ ((**كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**)) .

٤ ــ قوله تعـــالى : ((**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان**)) . من يقرأ هذه الآية يحس لأول وهلة أنها قد أتت على غير طريق البلاغة ، وأن نظمها غير مستقيم لأن البلاغة تقتضى أن يقال كالأعمى والبصير ، والاصم والسميع ليلائم بعض الألفاظ بعضا ، فتتآلف معانيها ، ويأتى فى كل جملة من الجملتين طباق لفظى ، ولكن الأمر على خلاف ما توهمه ، لأن فى الكلام على حسب نظم الآية تصحيحا للمعنى ، وفيه على ما توهمه المتوهم فساد المعنى ، وذلك أنه سبحانه ــ قال ((مثل الفريقين)) فاقتضى ((الفريقين)) تفســيرهما فقال : كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، ليكون المشبه به قسمين ، وليكون المشبه وفق عدد الفريقين ، أحد القسمين مبتلى ، والآخـــر معافى ليضاد بين القسمين ، حتى يصح السؤال عن التنسوية بينهما مع تضادهما من باب تجاهل العارف للسؤال عن معلوم ، لقصد التوبيخ ، ولو قيل كالأعمى والبصير لكانت هذه الجملة فريقين ، ثم يعود فيقول : والأصم والسميع ، فتكون الجملة الاخرى فريقين آخرين ، فيكون قد فسر الفريقين بأربعة ، وهذا فساد ظاهر ، فلذلك عدل عن الملاءمة فى ظاهر الكلام الى ما هو أهم منها وهو تصحيح المعنى المراد .

٥ — ومن عجيب النظم فى القرآن تغاير المعنى لمغايرة اللفظ فقوله تعالى : « **ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم** » [١] فان معنى هذه الآية بهذا النظم يغاير قوله تعالى فى نفس المعنى لنظم آخر : « **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم** » . حيث قدم فى الآية الأولى وعده بالرزق للآباء على وعده برزق الأبناء ، وفى الآية الثانية بالعكس ، وسبب المغايرة بينهما أن الخطاب فى الآية الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى « من املاق » فاقتضت البلاغة تقديم وعدهم أعنى الآباء الملقين بما يغنيهم من الرزق ، واقتضت تكميل المعنى بعدة الأنبياء بعد عدة الآباء ليكمل سكون الأنفس ، ولم يبق لها تعلق بشىء .

وفى الآية الثانية الخطاب للأغنياء بدليل قوله تعالى : « **خشية املاق** » فانه لا يخشى الفقـــر الا الغنى ، أما الفقير ففقره حاصل فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء بالرزق ليشير هذا التقديم الى انه — سبحانه — هو الذى يرزق الأبناء ليزول ما توهمه الأغنياء من آنهم بانفاقهم على الابناء سيصيرون الى الفقر بعد الغنى ثم كمل الطمأنينة بعدتهم بالرزق بعد عدة أبنائهم .

تلك أمثلة قليلة من آيات القرآن كان للفظة فيها أثر كبير فى حسن النظم وانسجام المعانى وائتلاف الالفاظ معها .

* * *

آيات يرجع حسن نظمها الى ترتيب جملها .

سوف أسوق فيما يأتى شواهد من القرآن لم يكن للفظة الواحدة وحدها أثر فى اظهار المعنى وحسن الترتيب كما سبق بل كان حسن النظم

---

(١) أنظر بديع القرآن : ١٠٦ .

وبلاغة الأسلوب موجودة من ائتلاف الجمل بعضها مع بعض وائتلافها مع معانيها .

١ ــ قوله تعالى : « **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض المــاء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيــل بعدا للقوم الظالمين** » (١) .

فتلك آية عدد ألفاظها سبع عشر لفظة ، بلغ حسن نظمها الدرجة العليا ، وانسجام ألفاظها وائتلاف معانيها أديا الى وجود عشرين لونا من ألوان البلاغة ففيها المناســبة التامة فى أقلعى وابلعى ، والمطــابقة اللفظية فى ذكر السماء والارض ، والمجاز فى قوله : يا سماء فان الحقيقة يا مطر السماء ، والاشــارة فى قوله تعالى : « وغيض المــاء » فانه ــ ســبحانه وتعالى ــ عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة لأن المــاء لا يغيض حتى يقطع مطر السماء ، وتبلع الارض ما يخرج من عيون الماء فينقص الحاصــل على وجه الأرض من المــاء ، والارداف فى قوله : « واستوت على الجودى » فانه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان ، وجلوسها جلوسا متمكنا لا زيغ فيه ولا ميل ، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة ، والتمثيل فى قوله : « **وقضى الأمر** » فانه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة الى لفظ الارداف ، والتعليل ، لأن غيض المــاء علة الاستواء ، وصحة التقسيم حين استوعب ــ سبحانه ــ أقسام أحوال المــاء حالة نقصه ، اذ ليس الا احتباس ماء السماء ، واحتقان المــاء الذى ينبع من الأرض ، وغيض المــاء الحاصــل على ظهر الأرض ، والاحتراس فى قوله : « **وقيل بعدا للقوم الظالمين** » محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لا يستحق الهلاك ، فجاء ــ سبحانه ــ

---

(١) بديع القرآن : باب الانفصال

بالدعاء على الاهلكين ، ليعلم أنهم مستحقو الهلاك ، فان عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه ، والانفصال ، فان لقائل أن يقول : ان لفظة « القوم » مستغنى عنها ، فانه لو قيل : « وقيل بعدا للظالمين » لتم الكلام ، والانفصال عن ذلك أن يقال : لما سبق فى صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى : « **وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** » •

وقال ــ سبحانه ــ قبل ذلك مخاطبا لنوح ــ عليه السلام : « **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون** » •

فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التى آلة التعريف فيها للعهد ، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم فى قوله تعالى : « **وكلما مر عليه ملأ من قومه** » ووصفهم بالظلم ، وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله : « **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون** » • فحصل الانفصال عن الاشكال ، وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة فى الكلام •

والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ، ولا ينقص عنه وحسن النسق فى عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا فأولا : فانه ــ سبحانه ــ أمر الأرض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالاقلاع ، ثم عطف غيض الماء على ذلك ، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ، ونجاة الناجين ، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودى ، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين ، فجاء عطف الجمل على ترتيب وقوعها فى الوجود ، وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح فى موضعها غيرها ، والايجاز لأنه ــ سبحانه ــ اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشىء فى أخصر عبارة ، بألفاظ غير مطولة • والتسهيم لأن من أول الآية الى قوله تعالى : « اقلعى » يقتضى آخرها • والتهذيب لان مفردات الألفاظ

موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه • وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف فى فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شىء منه ، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى مكانها ، غير قلقة ولا مستدعاة ، والانسجام • فى تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك ، مع جزالة لفظ كما ينسجم الماء العليل من الهواء • فانظر الى عظمة هذا الكلام ، وما انطوى عليه نظمه وما تضمنه لفظه لتقدره قدره •

٢ — ومن أمثلة حسن النظم فى القرآن :

قوله تعالى : « **ان الله فالق الحب والنوى — يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى** » [٢] فقد يعترض معترض على نظم هذه الآية ويقول : لم جاء قوله تعالى : « **ومخرج الميت من الحى** » **بصيغة** اسم الفاعل مخالفا ما جاء عليه أمثاله فى سورة « آل عمران » حيث يقول سبحانه : « **وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى** » ، وفى سورة يونس ، فانه جاء فيها أيضا بصيغة الفعل ، وكما جاء فى سورة الروم حيث قال : « **وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون** » • وعلى الجملة لم يأت فى القرآن **كله** « **ومخرج الميت من الحى** » الا فى هذا الموضع من سورة الأنعام ، فلقائل أن يقول : ما النكتة التى أوجبت مجىء ذلك فى هذا المكان على ما جاء عليه مخالفا لأمثاله ؟

يجيب ابن أبى الاصبع المصرى بقوله :

« بما عساه أن يتضح به الاشكال — انما جاء كذلك

---

(١) الانعام : ٩٥

توخيا لحسن الجوار فى النظم ليجاور كل لفظ ما يلائمه فى مناسبة الزنة لتتعادل ألفاظ النظم عند التركيب ، ولو أتى هذا اللفظ فى سورة الأنعام كما جاء أمثاله فى آل عمران ويونس والروم لخرج نظم آية الأنعام عن الاعتدال لمجىء صيغة الفعل حيث يقول : ((**يخرج الميت من الحى**)) متوسطا بين أسماء الفاعلين منقوله :((**فالق الحب والنوى**)) وقوله :((**فالق الاصباح وجعل الليل سكنا**)) .. فمجىء اسم الفاعل فى سورة الأنعام ملائم لما جاوره من أسماء الفاعلين وبقية صيغة الفعل فيها ملائم لما جاورها من صيغ الأفعال فى السور الأخرى ، وناظم الكلام اذا نظم كلاما وجب عليه أن يلائم بين ألفاظه ، ليأتى كلامه موصوفا بالائتلاف بحيث لا تأتى لفظة منافرة لأخواتها ، موضوعة فى غير موضعها ، فان الكلام اذا وقع فيه مثل ذلك عيب بسوء الجوار ،ولما أوجبت البلاغة أن يأتى خبر « ان » فى سورة الأنعام بصيغة اسم الفاعل فى قوله : ((**ان الله فالق الحب والنوى**)) لكون اسم الفاعل المضاف يدل على المضى ، والفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال دون المضى ، والآية سيقت للتمدح بالقدرة المطلقة التى هى صفة ذاتية لله ـ سبحانه ـ والاعتداد بالنعم على عباده ، فكان التمدح بها مع الاتيان بصيغة اسم الفاعل ، أبلغ من الاتيان بصيغة الفعل ، لما يدل عليه اسم الفاعل من المضى المطلق ، ومجىء ذلك على ما جاء عليه يستفاد منه قدم القدرة ، ويلزم من قدمها قدم الموصوف بها ، ولما علم ـ سبحانه وتعالى ـ أن تمدحه بمجرد فلق الحب والنوى فى بطن الأرض غير تام ، لأنه لا ينتفع به حتى يخرج نباته الى ظهر الأرض فحينئذ يكون نعمة يعتد بها على العباد لانتفاعهم به ، وليظهر لأعينهم ، فيشاهدون به قدرة مخرجه ، ومخترعه ، أخبر بأنه يخرج نباتا من الأرض ليتم معنى التمدح ، ووجب أن يكون الخبر عنه بصيغة المضارع ليقع الاخبار به على ترتيب وقوعه فى الوجود ، لا يتقدم منه ما يجب تأخيره ولا يتأخر ما يجب تقديمه اذ كان انفلاق

---

(١) بديع القرآن : ٢٦٥

الحب والنوى فى بطن الأرض مقدما على خـروج النبات الى ظهـر الأرض ، فكان زمن انفلاق الحب والنوى ماضيا بالنسـبة الى زمن خروج النبات ، وخروج النبات مستقبلا بالنسبة اليه استقبالا أوله زمن الحال ، وآخره زمن الاسـتقبال ، فكان مقتضى النظم الاتيان بصيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال بعد اسم الفاعل الدال على المضى ، فوقع هذا التهذيب فى هذه الألفاظ ، كما اقتضت البلاغة أيضا تقـديم ذكر الحب على ذكر النوى لكونه قوت المخاطب المعتد عليه بهذه النعم ، وقوت دوابه ، ووجب أن يقتصر على ذكر الحب دون النوى لأن فى ذكر النوى اشارة الى ما يعتد به على المخاطب أيضا من الثمرات التى يتفكه بها ، وتتنوع له الملاذ بسببها ، فكان ذكرها من كمال معنى التمدح ، ثم لمـا علم ـ سبحانه ـ أن القدرة المطلقة اذا وصفت بايجاد النبات والتصرف فى الجماد دون ايجاد الحيوان كان الوصف ناقصا ، فاستأنف الاخبار عنه باخراج الميت من الحى ، لأن المعنى الأول قد تم الكلام فيه ، وحسن السكوت عليه ، فقطعه وأفاد ما أفاده مما ابديناه آنفا ، فقال بعد ذلك منتقلا من الاخبار عن اخراج النبات من الجماد الى الاخبار عن اخراج الحيوان لتمام المعنى الذى كان بدون ذلك ناقصا ، وصار قوله : « **ومخرج الميت من الحى** » مكملا ، وأتى فى هذه الجملة باسم الفاعل لأنه خبر مبتدأ مستأنف تقديره ، وهو مخرج الميت من الحى ليأتى نظم الجملة الثانية على ما أتى عليه نظم الجملة الأولى ، حيث قال ـ عز وجل ـ : « **ان الله فالق الحب والنوى** » ، فجاء خبر ان اسما ، فكذلك أوجبت البلاغة أن يأتى ، خبر المبتدأ فى الجملة الثانية اسما ، واقتصر ـ سبحانه ـ على التمدح باخراج الميت من الحى أعسر من اخراج الحى من الميت فى معترف عادتنا ، ومدارك عقولنا ، لأن الحى ربما أعان على خروجه بحركته ، وبما ركب الله فى طبيعته من طلب الخـروج من الضيق الى السـعة عند صلاح قوته للخروج ، ومن قدر على اخراج الأصعب كان على اخراج الأسهل أقدر »

وبذلك تحققت الحكمة فى مجىء آية الأنعام مخالفة لبقية أمثالها من الآيات .

٣ — ومن حسن النظم قوله تعالى : **« ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهـذا لسان عربى مبين »** (١)

وقـد يعترض معترض على نظم هـذه الآية بأن ما جاء جوابا للقائلين :انما يعلمه بشر ، لا يليق أن يكون جوابا صحيحا فى الظاهر لمـا يرد عليه ، فان لقائل أن يكون عند سماع قوله تعالى : **« لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »** .

نحن نعلم أن لسان المعلم أعجمى ، وأن هذا لسان عربى مبين ، لكن ذلك لا يمنع من كون الأعجمى ألقى القصص والأخبـار بعجمته لهذا العربى الفصيح ، فأخرج ما ألقاه اليه بعجمته فى قوالب ألفاظه العربية المبينة ، فجاء كما وصف ، وما عجمة الذى نسبنا تعليمه اليه بأشد من لغة الأمم المـاضين الذين يتلو علينا قصصهم وأخبارهم ، فان ألسنتهم كانت قبطية وعبرية ورومية وغيرها ، فيأخذ معانيها ، ويعبر عنها بفصاحة لسانه العربى المبين ، وهذا أمر ظاهر لا يكاد يخفى عنهم ، ولم ينقل أنهم مع عنادهم وتعنتهم على الرسول — صلى الله عليه وسلم — بأقل من هذا القول ، ولو كانوا قالوه لنقل ، وحيث لم ينقل لم يقولوه ، وحيث سكتوا عنه مع ظهوره دل سكوتهم عنه على أنهم لو قالوه لانقلبت الحجة عليهم بسببه ، فلأجل ذلك سكتوا عنه ، واذا نظر فى السبب الذى أسكتهم عنه استفيد منه الخروج من الاشكال الذى توجه على ظاهر نظم الآية ، والذى يظهر من سبب سكوتهم عن ذلك تفطنهم الى أنهم لو قالوا ذلك لزمهم الاقرار بثبوت المعجزة ، وقيام

---

(١) النحل : ١٠٣

الحجة على صحة النبوة ، فلذلك يقال لهم : فاذا بان هذا النظم العجيب والأسلوب الغريب الذى عبر به عن هذه القصص هو كلامه لا كلام ربه ، وقد عجزتم مع فصاحتكم وتضافركم عن الاتيان بمقدار ثلاث آيات منه فى المدة المتطاولة مع تكرار التوبيخ ، وترداد التقريع ، وأنتم من أو تيتم قدرة على الكلام ، وأنفة من العار ، فقد اعترفتم بالعجز عما تحداكم به رجل منكم ، لغته لغتكم ، وأقررتم بأن فصاحته قد خرقت العادة المعروفة عندكم ، فحينئذ يلزمكم تصديقه ، ولا يضرنا عنادكم بقوله : انه ليس من عند الله : فان الحجة لزمت فرعون باخـــراج موسى — عليه السلام — يده بيضـــاء من غير سوء ، وشاهد العيان وظاهر الحال أنه الذى أخرجها ، والرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يتحد العرب بمعرفة الاخبار المـــاضية ، والقصص المتقدمة ، فانه يشـــاركه فى ذلك أهل الكتاب ، وكل من شارك فى طريق ذلك ، وانما تحداهم بنظم القرآن المعبر به عن هذه الاخبار ، واذا عجزوا عما تحداهم به من هذا النظم حصل المراد فى اثبات الاعجاز .

٤ — ومن ذلك قوله تعـــالى : « **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء و هى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن ســـبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها** » [1] .

قد يعترض معترض على هذا الأسلوب ويقول : لم هذا البسط والتطويل ؟ فى حين أن هذا المعنى أتى به فى أقل من هذه الألفاظ حيث

---

(١) فصلت : ١١

قال فى آية أخرى : « **الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام** »[1] .

نقول له : « ان هذا التطويل وذلك البسط أفاد فائدة جليلة ، اذ أتى بمعانى كثيرة ، وأوضح اشكالا على غير ذى قريحة نفاذة ، كما فصل مجمــلا ، وأخرج الكلام مخرج التقريع لمن جعل لله أندادا ، لأن الاستدلال بما قرب من نظر الخصم أوضح من الاستدلال بما بعد ، فان تقدير أقوات الحيوان ، وتخصيص كل صنف بقوت مألوف يميل اليه بطبعه ، وتركه تلك الأقوات الموجبة كعناية جميع الحيوانات بما تخرجه الأرض من القوت أقرب لفهم المخاطب ، وأرفع لاحتمال ما يقع لبعض ضعفاء الايمان من توهم أن هذه الأمور من صنع السموات والأرض ، لا من صنع صانعها ، كما يعتقد بعض الطبيعيين وأمثالهم فاقتضى حسن النظم وائتلاف المعنى وايضاح الفكرة أن يقدم ذكر الأرض ، وما يترتب على ذكرها من ذكر لوازمها لقربها من المخاطب ، لأن الأنداد التى عبدت منها : فالاصنام من حجارتها ، والأوثان من خشبها ، وألوان الشخوص من معادنها ، ليعرف سبحانه بعظمته وقدرته فى خلقــه الأرض كلها فى يومين ، ثم ثنى بذكر الجبــال التى تثبت الأرض ، وتكون لها رواسى .

ثم ذكر البركة التى لولاها لمــا نبت النبات ، ولا عاش الحيوان ، ولا تنوع الجماد ممتنا بذلك كله على عباده ــ وحق له الامتنان ــ ثم أعقب ذلك بذكر تقدير الأقوات ليحث على العمل والاشتغال بما هو أبقى ، ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله فى يومين آخرين داخلين فى اليومين

---

(١) السجدة : ٤ .

(٢) بديع القرآن : ٢٥٢

المتقــدمين حيث قال : « **فى أربعة أيام** » يعنى — وهو أعلم — أنه أرسى الجبال ، وبارك فى الأرض ، وقدر لها الأقوات مع خلقه لها فى أربعة أيام ، ثم ختم بذكر خلق السموات السبع ، وما تعرف الناس من نجومها وأنوائها ، وانزال الغيث من جهتها ، والرعد والبرق وتصريف الرياح ، ثم أخبر أيضا أنه خلق ذلك كله فى يومين ، فنلاحظ مما تقدم أن نظم تلك الآيات ، وما هى عليه من الاطالة ضرورى لافادة ما بينا من المعانى التى لولاه ما ظهرت ، وبذلك سلم نظم الآية ووصلنا الى انسجام ألفاظها ، وترتيب جملها من الأقرب الى الأبعد .

خاتمة

انتهيت من هذا التطواف بين علماء فكرة الاعجاز ، من وضع كل واحد منهم فى مكانه الذى يتفق ومنزلته من فكرة الاعجاز البيانى ، وبعد هذه الحياة الطويلة فى ظل القرآن ، وميدانه الرحب ، والنظر فى ألفاظه ، ومعانيه ، وقصصه ، وتصويره ، ونظمه ، وبالأحرى بلاغته وبيانه .

انتهيت من هذا كله الى أن فكرة الاعجاز عامة أهتم بها علماء كثيرون ، وأكثر من اهتم باعجازه البيانى المتكلمون والمفسرون والأدباء ، الذين كانت لهم جميعا اليد الطولى فى توضيح هذه الفكرة ، والذين التقيت مع أكثرهم ، وتقابلت مع أغلبهم فى آثارهم ناقلا وناقدا ، ومناقشا وموضحا ، واضعا الحق فى نصابه ، والقرآن هو الحكم الفصل بينى وبينهم فى أى خلاف ان وجد ، أو توضيح ان كان هناك اغلاق .

والذى لاحظته أثناء هذا التطواف ، وتلك المقابلات أن أكثر علماء الاعجاز درسوا البلاغة العربية ، وأرخوا لها ، وطوروا دراستها ، لأنهم كانوا مؤمنين بأن دراسة البلاغة وسيلة لغاية أسمى ، وهى اعجاز القرآن البيانى ، ويمكن التأكد من هذا بالرجوع الى مقدمات مؤلفاتهم فى البلاغة التى كثيرا ما يصرحون فيها بهذه الملاحظة التى أشرت اليها ، كما لاحظت من هذا التتبع أن الخلف كان مخلصا فى حسن اتباع سلفه والسير على منهجه ، اللهم الا فى القليل من الجزئيات ، أو فى فرض بعض المشكلات ، والتصدى لمناقشتها والرد عليها ، كما أن من هؤلاء

الخلف من أخلص فى اتباع سلفه ، ومنهم من نقده مخلصا فى نقده هدفه كله الكشف عن اعجاز القرآن البيانى •

تتبعت هؤلاء وهؤلاء ناقلا وناقدا حتى انتهيت من كل هذا الى نتيجة واحدة ، وهى اعجاز القرآن ببيانه الذى نتبين أسراره فى ألفاظه ومعانيه وقصصه وتصويره ونظمه ، ثم تناولت هـذه العناصر كلها بالدراسة التطبيقية فى المبحث الثانى ، فعقدت فصلا للألفاظ بينت فيه حسن اختيارها حتى تكون مؤتلفة مع بعضها ، بعيدة عن التنافر موحية الى المقصود ، متمكنة فى مكانها بحيث لو رفعنا لفظة ، لم تسعفنا اللغة العربية بأخرى تقوم مكانها ، وتؤدى معناها • ثم وجدت من الضرورى الحديث عن فواتح السور المعجمة والمعربة بصفتها كلمات مفردة ، كما وجدت أن هذه الفواتح أثير حولها حديث طويل أوجب على الالتقاء مع أصحابه قدماء ومحدثين مسلمين ومستشرقين •

ثم عقدت فصلا للمعانى ــ لمعانى القرآن ــ ، بينت فيه ائتلافها مع بعضها ، وائتلافها مع ألفاظها ، وشمولها لكل ما تحتــاج اليه حياتنا وآخرتنا أفرادا وجماعات ، ثم وجدت من الضرورى وأنا بصدد الحديث عن المعانى وجدت من الضرورى التحدث عن القصص القرآنى لأنه منها فتحدثت عنه طويلا أثبت فى هذا الحديث البدء والانتهاء ، والطول والقصر ، والتكرار وفائدته ، والعرض والالتئام ، وأثبت بعد كل ذلك الغرض من القصص القرآنى ، وقلت ان أهم غرض لهذا القصص الغرض الدينى أولا وقبل كل شىء •

ثم عقدت فصلا ثالثا لبلاغة القرآن أو البلاغة والقرآن أثبت فيه الوحدة الفنية فى القرآن الكريم ، وفصلا رابعا كشفت فيه عن التصوير فى القرآن ، وقلت : ان المراد بالتصوير البيانى هو التصوير بالصور البيانية ــ الاستعارة والتشبيه ، والأسلوب الكنائى وغيرها ــ • وفصلا

خامسا للكشف عن نظم كل ذلك فى دراسة تطبيقية متمثلا بآيات القرآن الكريم •

وآمل أخيرا أن يعود علماء المسلمين الى القـــرآن ينهلون من معينة الذى لا ينضب ، ومنبعه الصافى الذى يسعفنا بكل شىء فى كل شىء •

والى هنـــا أقف وألقى القلم ، ولعلى أكون فى هـــذا البحث قد ألقيت ضوءا على فكرة اعجاز القرآن البيانى ، وتطورها ، ودراستها تطبيقيا ونظريا ، فان كل ذلك فالى القارىء شكرى والى المجلس الأعلى أعظم ثنائى على اتاحة الفرصة لنشر هذا البحث ، وان كانت الأخرى فالى القارىء أقدم اعتذارى ، وكفانى أن أكون قد فتحت الباب لمن يريد الاستقصاء والدراسة المستفيضة ، والله حسبى ونعم الوكيل •

فهرس الموضوعات

صفحة

المبحث الأول

الدراسة النظرية لتطور فكرة الاعجاز البيانى

١٥ — ٢١٧

صفحة

المبحث الثانى

الدراسة التطبيقية لأسرار اعجاز القرآن البيانى

٢١٨ — ٣٧٤